بسم الله الرحمن الرحيم (سيرة مسافر سعودي)

«إن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله».

أما بعد: فإن كل عبد من عباد الله على سفر منذ قدر الله له الحياة فخلقه من تراب ثم من نطفة، حتى يقبضه الله روحه بموته، وأطول أسفاره وأصعبها سفره الأخير الذي لا مفر له منه ولا مشيئة له فيه ولا محيد له عنه؛ إلى البرزخ والحشر والصراط ثم إلى الجنة أو النار وقعره ما قدم لنفسه بفضل الله وعدله.

وبيد سفر السيادة الذي لا خيار للعبد فيه وبيد سفر النزاهة الذي لا مهرب منه ولا شك فيه؛ سفر خلقه الله له وقدره عليه بمشيئته: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾، وهداه النجدين وخيّره بين الإيمان به وطاعته وبين الكفر به ومعصيته: ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾، فإنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها﴾ بعد أن هداه الله لهداية الدلالة العامة لجميع مخلوقاته: ﴿أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾، وقد اختار الإنسان بحمله حمل أمانة التكاليف الشرعية وتحمل النتائج بقدر الله تعالى وعلمه بما يكون في مستقبل الحياة: ﴿ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون﴾، ﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً﴾، ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم﴾، ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم﴾، ولله تعالى الحكم وإليه يرجع الأمر كله يهدي من يشاء هداية التوفيق بفضله، ويضل من يشاء من عباده بعدله تعالى وباستحقاقه عبده ذلك منه.

وسبعة أنا كتبت سيرة سفر هذا المواطن السعودي التعليمية، ثم كتبت سيرته الوظيفية، وكانت الأولى (التعليمية) محاولة لاستجابة لطلب كريم خاص من أخي في الله وفي وطنه الدعوة إليه على بصيرة الأستاذ د. عبد الله بن محمد السيدي رئيس قسم التربية في جامعة الملك عبد العزيز شطر مكة (جامعة أم القرى فيما بعد) ثم المدير العام للتعليم في المنطقة الغربية، ولطلب كريم عام من وزارة المعارف (التربية والتعليم فيما بعد)، وبشرط د. عبد الله السديد بعد أن قدم لها بما هو خير منها. وكانت الثانية (الوظيفية) تخص الدعوة إلى الله على منهاج النبوة (أعظم وظيفة بعد العبودية والنبوة والرسالة) محاولة لاستجابة لطلب كريم من معالي الشيخ د. عبد الله بن عبد المحسن التركي بصفته وزيراً للشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد. ولكل منهما دالة برحمة وجدية وحكمة وإنجازات وبعلاقة العملية بكانت لهذه السيرة دفعتها (على ضعف وتقصير ونقص) إلى إجابة الطلب دون حساب للنتائج فأمرها لله وحده.

ولهذه السيرة الثالثة المتعلقة بتسفير لهذا المواطن السعودي في أرض الله داخل حدود المملكة المباركة وخارجها طلبت تسجيلها الشيخ أحمد طالب حفيد الشيخ عبد المجيد بن حسن الجبرتي إمام المسجد النبوي والقاضي وعضو هيئة كبار العلماء قبل أن يعجزه الكبر وسدكه الأجل وتوفاه في المدينة النبوية رحمه الله، وكان قبل ذلك كله أستاذاً لكاتب هذه السيرة ومديراً لمدرسته الابتدائية في شقراء منذ أسست حتى نقل للعمل قاضياً في رابغ.
ومن الله وحده التوفيق ومنه عبده الخطأ والنسيان:

١- سيما كانه أول مرة فاجأ فيها كاتب السيرة عامر قريته (شقراء) في مرحلة الطفولة لم يبعد عنه سور القرية أكثر من مائة متر لمثل الأغراض التالية:
١) مشاهدة منة الله بالغيث إذا انتشت به الأودية وأهمها (وادي الغدير) الذي يتميز بحصبه في قليب (الحميضة) وهي لا تمتلئ منه أبداً بل لا تزال تطلب المزيد منه حتى ينتهي وهي تفرقه على الآبار الأخرى في القرية ثم تعود إليه لتصيب منه في اليوم التالي.
ومع أني شاهدت بعيني أكبر السيول في العالم فلا زلت أتذكر الدهشة والرهبة التي عمرتني يوم انشقت نزية سيل وادي الغدير في قليب الحميضة.
٢) مشاهدة حفر خندقة (نبية) صغار الجراد قبل أن يطير (الدبا) خلف السور عندما يزحف على القرية، فإذا بدأ تساقط في الخندق أخذ الناس في ضربه بأغصان النخل (العسب) حتى ينتهي زحفه أو يقلب بكليته.
وصحبت والدي رحمه الله مرة إلى هذا الخندق وكان الذين يحفرونه يقفون على فوهة المساحي والفؤوس، فلما رأوا الوالد (رحمه الله ورحمهم) منعهم الهيام (وهو من كبار رجال الحسبة عشرات السنين) تركوا أعنتهم العاطفية وردوا نشيداً وطنياً يحمدون الله فيه على ما أعزهم به من دينه وصدقه وعبده ويوحدون الله وحده: (نحمد الله عز ربنا وصدقه بالوعد ونلبس التوحيد ثوباً من البياض جديد) وبذلك تخلصوا من إنكار الوالد عليهم.
٣) صيد الجراد بمصيدة الفجر قبل طلوع الشمس لمباغتته في مراقده قبل أن تدفئه الشمس فيطير، وكان من المحتمل أن تقع أيدي الصائدين على عقرب أو حية ولكنه نشوة الصيد تنسي الصائد مخاطره.
وكان الناس يحتفلون مساء يوم الصيد بطبخ الجراد حيثما ثم أكله، ثم تركوه بعد أيام وقد خطر ببالي (صناعي غير طبيعي ومولد غير محتمل): سموم مكافحة الجراد التي تلقى عليه طائرات بعثة المكافحة الأمريكية.

وكلية بعصة الناس وعيشوا عوضاً بشبع مخيمات البعثة وحفر ما دفسته من معلبات الطعام والخضروات التي انتهت مدة صلاحيتها، وهم لم يعرفوا أنه للطعام مدة صلاحية، وأكثرهم لا يقرأ ولا يكتب ولا يأبه.

ب - وكان أول سفر حقيقي للكاتب بعد انتهاء الدراسة الابتدائية أول عام ١٣٦٨هـ حيث شقاء إلى الرياض على ظهر سيارة نقل (تشق طريقها بشق الأنفس عابرة السهول والتلال في طريق غير معبد قبل أن تعرف طرقات المملكة المباركة التعبيد والسفلتة) مع عمي عمر رحمه الله وأسكنه فسيح جناته. وفي الرياض رأيت أول شارع مسفلت (شارع الوزير) وفي جزء منه سلسلة تمتد يفرضه بعد الأذان لتوقف مرور السيارات القليلة جداً حتى تقضي الصلاة.

وسكنا بيتاً طينياً صغيراً في شارع الظهيرة (وكل البيوت من الطين) وكانت الأزقة حولنا تتحول إلى مناقات للكلاب الضالة (وكل الكلاب ضالة) وتعودنا على الخوصة في مجموعة من الكلاب والحمير في طريقنا المظلم لصلاة الفجر فيفزعنا نباحها وعوياها بمختلف طبقات الصوت وينال من صراخ المفاجئ أكثر مما نالت من أقدامنا الضعيفة.

ولم يكن ينافس الكلاب كثرة في الرياض غير النمل الذي لم تتخلص من سطوته على مؤونتنا من التمر إلا بأن تمتد سبباً إلى السماء وتوزع وعاء التمر في طرفيه السقف والأرض، ولم ينعم خلاصنا أكثر من بضعة أيام حتى اكتشف النمل طريقاً جديداً للسرقة فوقنا من التمر تسلقه الجدار أسفاً ثم السقف أفقياً ثم الاختيار بين القفز أو النزول على الحبل إلى حيث يتدلى التمر بين السماء والأرض، ولم تعصه مدة طويلة حتى جفنا وشبع النمل بدليل أن لونه تحول إلى لون التمر.

ومن أبرز ما شاهده الكاتب الطفل في سفره هذا إلى الرياض:

١) أول حوادث السفلتة وربما آخرها شهده من حال حدوثها، ففي مفرق شارع الوزير إلى حوطة خالد سابقة شيخي معلمي من شيوخ البادية سيارة صغيرة يقودها شاب من أبناء الأكابر فكانت الغلبة للسيارة وطار الشيخ ثم وقع فوق السيارة ميتاً، ولما عرف السائق نفسه إلى شرطي ذلك المفرق، ركب معي في مقدمة السيارة ليسلمني إلى ولاة الأمر بدون تردد ولا ضجة وكأنه تعود على فعل ذلك كل يوم.

٢) وصول الملك عبد العزيز الحسين (المملكة الأردنية الهاشمية) تجاوزاً عنه إلى الرياض، وكان الملك عبد العزيز رحمه الله في استقباله، وقد رأيته طويلاً

المطار بالماء حتى تخف ثورة الغبار إذا لم يصل إليه الإسفلت بعد، وفي أرض المطار نصبت خيام للإدارة والاستقبال والانتظار قبل أن يتخذ البناء لشيء من هذه الأغراض بضع سنين.

واستقبل بالعرضة الشعبية وهي النوع الوحيد من النغم المأذون به في ذلك الوقت ولذلك استمرت العرضة بعد حفل الضيف والمضيف من المطار إلى الرياض، وزيد في الشعر بيت غير مأذون به: (مرحبا بالبيه عبدالله ـ مرحبا الله كاتب الملك راضي).

٢) مضيف (ثليم) للبادية غالبا، لأنهم يفدون إلى الرياض في أيام معينة من السنة لاستلام أعطياتهم الممنوحة لهم من قبل الملك، ويفد معهم كثير من صغار التجار لاستيفاء مالهم على البادية من ديون. وكانت الأعطيات (البرودات والشرهات) تصرف جنيهات ذهبية ومعها كثير في أيدي الناس تنخفض قيمة صرفها، وكاتب أحمد الدائنة من أهل شقراء يحاول أن يأخذ (بوم) فلا يجد إلى ذلك سبيلا لأنه ممن ابتلي بوسط ـ بانخفاض صرف ما في يده من الذهب فسأل إجازة عن سبب أزمته: (بوم)؟ فأجاب: (كل يوم، بوم، وذهب منخفض).

جـ ـ وكانت السفر الحقيقي الثاني والأهم في حياة صاحب السيرة: سفره آخر عام ١٣٦٨ إلى الطائف لدراسة المرحلة المتوسطة والثانوية في دار التوحيد (للعلوم الشرعية)، وقد كان مدير المعارف محمد طاهر الدباغ رحمه الله (حسب رواية محمد الجاسر رحمه الله في حوادث ذكرياته) قد اقترح أن تنشأ لتخريج معلميه من أهل نجد للتدريس في المدارس التي عمها افتتاحها في نجد قلة المؤهلين للتعليم، فرأى الملك عبدالعزيز بمشورة العلماء رحمهم الله جميعا أنه تخصص للعلوم الشرعية والعربية وكان الخير في ذلك فقد تخرج منها عدد كبير من المعلمين والقضاة والإداريين.

وكانت دار التوحيد ثالث معهد للعلوم الشرعية أمر الملك عبدالعزيز رحمه الله بتأسيسها لتعليم الشباب من مختلف المناطق وتوفير ما يحتاجه طالب العلم من مسكن ومطعم وخدمات أخرى على نفقة الدولة الناشئة. وكان أول هذه المعاهد المعهد العلمي السعودي بمكة المكرمة لإعداد الوافدين إليها من الداخل والخارج أسس بعد سنتين أو ثلاث من ولاية الملك عبدالعزيز رحمه الله عليها، واختير له عدد من خيرة العلماء السعوديين والمصريين برئاسة الشيخ محمد رحمت الطباخ.

وكان ثاني هذه المعاهد في ينبع لأبناء البادية أسس بعد معهد مكة

بعشرسنين، ولحداثة هذا النوع من التعليم الحكومي لم يكن مرغوباً فيه، ولكنه الآن مطرد
مكانة الشيخ عبدالله بن حسن آل الشيخ رئيس القضاة في مكة رحمه الله يرغب
الناس فيه أثناء موسم الحج بخاصة، وسخر لهم سبع أمير ينبع يدعو الناس
إليه بالترغيب والترهيب، وانتهى أمره بانتهاء إمارة حمود بن ابراهيم على
ينبع (رحمه الله)، وكان ثالث المعالم: دار التوحيد بالطائف، وأكثر طلابه من
من نجد يقادون إلى الخير بالشرط، وأقلهم من مكة والمدينة والطائف عام ١٣٦٤.
وكان سفر الطلاب على ظهور الشاحنات، أو في سيارة البريد بصحبة شرطي.
ولم تكن المحطات ولا البوسة ولا المقاهي قد انتشرت على الطريق الصحراوية
فكانت السائقة يأخذ حاجته من الماء والوقود والطعام وما تكثر الحاجة إليه
من قطع الغيار (المستعملة غالباً) والأدوات لإصلاح أي خلل يطرأ على سيارته،
وليس الخيار الثاني وقوفاً على الطريق أياماً حتى يصل الفرج من مكة أو الرياض.
١) وصلنا مكة المباركة بعد بضعة أيام وليس المسافر فيها تلك الأيام لا يعرف فيها شيئاً
عن الفنادق فيها، لا اسمع ولا سمع ولا مضانها؛ فقد سألت عن بيت الجميح منها
يفضل أكثر أهل شقراء (وعندما سافر أحدهم للعلاج في مصر وليس فيها بيت للجميح
أوصاه أخوه رحمهما الله: توخ على الخديوي). وفي بيت الجميح يجد عابر فوهم من الطعام
والمنام في الصباح والمساء وما بينهما ما لم يجده أسلافهم عند حاتم الطائي
الذي ذكرت عنه الروايات لم صدقت أنه أخرما وصل إليه ذبح الفرس.
دلني أحدهم على الجورية حيث توجد محلات لأهل نجد فوقفت على أحدها
وسألت صاحبه فعرفني وأنا لم أعرفه جزاه الله خيراً وطلب مني الجلوس عنده
قليلاً حتى يؤذن لصلاة الظهر فتفاولت المحلات طوعاً أو كرهاً (منذ ولاية دولة
الدعوة)، وبعد الصلاة ذهب بي إلى منزله وأشركني في غدائه وفي المساء
أو صباح اليوم الثاني دلني على بيت الجميح، وكعادة الشيخ محمد الجميح رحمه الله
بادر بالكتابة إلى الوالد رحمه الله معاتباً لتأخري عنه النزول في ضيافته فور وصولي
فرد الوالد رحمه الله بأن بيت الجميح هو المقصد الأول بعد بيت الله، ولكنه (حال
دونه الضب وربّ غير المثل (حال دونه الضب أرنب) لمناسبة المقام مع شكره
ودعائه للمضيف المقصود وغير المقصود رحم الله الجميع وأسكنهم فسيح جناته.
سمعت عن مكة كثيراً فقد كان خالي رحمه الله يكثر التردد عليها قضاء للمناسك
وابتغاء فضل الله حتى صار أخي يسميها (مكة خالي) ومنّ الله عليّ بدخول بيته
أول مرة قبل بدء التوسعات السعودية بست سنين فكانت المنازل
والمحلات التجارية (بيع الكتب بخاصة) ملاصقة جدرانه من كل جانب وكان
المسعى تمشي فيه السيارات والدواب وعلى جانبيه تزدحم المنازل
والأسواق ومحلات التجارة من كل نوع وتزاحم المارة والباعة السعاة في

ويقابل أحد أبواب المسجد الحرام الجنوبية مقرى شعبي يقدم الشاي والشيشة
يرجع إليه المتسولون بنشاط لانظر عليهم أثناء التسول (عافانا الله مما
ابتلاهم به) للاستراحة من أداء وظيفتهم بين العشاءين، ويؤمه المحتاجون
إلى خدماتهم من غيرهم وقد ينام (على كراسيه الطويلة) المعتمر أو الحاج ليكون
أقرب إلى المسجد لصلاة الفجر، يروي محدث المدينة العلامة أبو اشنيه مع جماعة
جرّبا ذلك بعد أدائهما العمرة فذكر أحدهما للآخر أنه لم ينم لارتفاع صوت عمال
البناء طول الليل: (عجب عجب) فأجابه الآخر برحمه الله، ما ينوه، يشربونه
تبنة في جبل)، ولم يكد أهل نجد يفرغون هذا الجديد الفاسد (الحضارة) بل كانه
المسافرون منهم ملكة إلى الرياض يفتشونه في مركز الشرائع خشية انتقال
هذا الوباء إلى أرضهم لم تعرف بعد من دولة الدعوة، ولما فتشه شيخ من شقراء
سأل المفتش مستنكراً (تخافون بنظر السنة من مرابط الوحي)؟، وعلى هذا
كان من أول الغرائب التي رأى أحد القائمين على شركة الجميح الطلاعي عليه:
وكان ابن زقر عمله الصناديق المرصوصة بين أرض وسقف، ولما سألني عنه
نظرت إليه ببلاهة ولم أحر جواباً، فأخبرني أنه جاء أبو خمسة، ولم تكن أكبر
المصائب التي وقعت في دولة الدعوة من دولة الخلافة العثمانية، كان في المسجد
الحرام أربعة مقامات بعدد الأئمة الأربعة يصلي كل واحد منهم خلف إمامهم
وكان عدد المؤذنين بعدد المآذن وكانه المقصود التطيب للإيذان بدخول وقت
الصلاة وغير ذلك من محدثات البدع التي غيّرت دولة الدعوة واحدة بعد أخرى
حسب الأهمية تغييرها، فكان أول ما غيّر منه تعدد الأئمة فجمع الناس على إمام
واحد كما جمعهم دولة الدعوة على اعتقاد واحد وعبادة ومعاملة واحدة على
مثل ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وكان آخرها تطهير منطقة
الحرم من مقاهي الشيشة أولاً ثم من بيع بقية أنواع التدخين، ولم تكن
الشيشة أسوأ ما في المقاهي بل كانه أسوأ منه الفحشة في القول والعمل.
وقبل خمسين سنة من كتابة هذه الأسطر لم أعرف في مكة من دعاة منهج
النبوة غير الشيخ عبد الله بن عبد الغني خياط خطيب المسجد الحرام ومدرس كلية الشريعة
واليوم (بفضل الله ثم بفضل دولة الدعوة) لا أحصيهم عدداً.

وبعد يومين أو ثلاثة حصلت من مديرية المعارف بمكة على القبول للدراسة
بدار التوحيد (وكان التطعيم قبل سنتين أو ثلاث يلزمون به بالدراسة فيه ثم
يعربونه منه إذا وجدوا مفرّباً)، وركبت سيارة البريد إلى الطائف، وكنت
قد سألت أخي الذي سبقني إلى دار التوحيد كيف لي أن أعرف الطريق إلى
المدرسة من محطة البريد فقال: إذا نزلت من سيارة البريد في برحة القزاز
فستري زجاج نوافذ المدرسة من مكانك، ولم يكد بيننا بناء في ذلك الوقت

وكانت أكثر البيوت في الطائف كما في مكة وجدة والمدينة مبنية بالآجر ومسقوفة بالخشب ومطلية بالجص والنورة، وكانت نوافذها وأبوابها من الخشب ولم تعرف الكهرباء ولا الفانوس، ولا الماء الا منقولاً بالصفائح والقرب على ظهور الرجال، ولم تعرف شوارع الطائف الا سفلتت، وكانه أول ما حصلت عليه من ذلك كله شركة الجفالي للكهرباء سبقت بها جميع مدن وقرى المملكة المباركة.

وعرفت في دار التوحيد ما لم أعرفه من قبل من خير الدين والدنيا، كانه أول من أشرق بها خير علماء الشام منذ عصر ابن تيمية رحمه الله حتى اليوم محمد بهجت البيطار رحمه الله، وتعلمنا دروساً في الاعتقاد على أشياء من خير (بل لعلها خير) علماء الأزهر الشيخ ظاهر السماك رحمه الله عضو لجنة الافتاء في الأزهر والشيخ عبد الرزاق عفيفي رحمه الله الذي صار فيما بعد نائباً للشيخ ابن باز رحمه الله في الافتاء.

وعرفت أنواعاً جديدة من الطعام (غير البر والتمر واللبن الذي عشنا عليه) مثل الرز البخاري والسلطة وخبز التميس والفول، وأنواع من الخضروات والفواكه لم نعرفها من قبل، ومواعيد جديدة لتناول الطعام الخاص بها، بعد أنه كانت الأكلة المطبوخة الوحيدة بعد العصر (أو بعد المغرب للفلاح والعامل) إضافة إلى التمر واللبن ظهراً - لمن يملك -، وهكذا كانت حال الناس في زمن النبي صلى الله عليه وسلم كما في حديث عائشة رضي الله عنها: «ما أكل آل محمد أكلتين في يوم إلا وكانت إحداهما من التمر» وهكذا كانت حال الناس في بلاد الشام المباركة بالأنهار والأشجار والنبات كما يقول ابن القيم رحمه الله (في زاد المعاد عند بحث الوصال في الصوم).

وعرفت أنواعاً كثيرة من السيارات الأمريكية: الكاديلاك والبيوك والشفروليه والبونتياك والفورد، بل عرفت أنواعاً (انقرضت): الريسونه والباكارد، ولكنه نصيبي من آلات التركوب لم يتجاوز الدراجة الرواية وهي أعقل ما صنع منها إذ تفيد مركباً ورياضة بلا وقود ولا تلوث ولا ضجيج ولا كبير نفقة، ومع أني اقتنيت أنواعاً من سيارات التركوب فيما بعد، فلا يزال الحب للحبيب الأول.

٢) وتخللت أيام الدراسة في دار التوحيد اجتماعيات طلاب الأسبوعية يستمعون إلى إنتاج زملائهم الفكري شعراً ونثراً وتفاكراً بالنسج على منوال القصائد المشهورة مثل: (قم للمعلم وفه التبجيلا) و(على قدر أهل العزم تأتي العزائم).

٣) وتخللت الرحلات قصيرة للتسلية في الرديف وغير البقات والوسطا ووادي محرم وطويلة أطولها إلى مكة والمدينة عام ١٣٧٠، وكانه المسجد الحرام والمسجد النبوي يضاء بمولدات الكهرباء الخاصة بكل منهما وتملأ مصابيح الكهرباء في الأروقة الجانبية التي كانت تستعمل للاضاءة بالزيت أو الكهرباء، ولم تكن التوسعات السعودية بدأت في أي منهما.

وكانه الطريق من الطائف إلى مكة ومنها إلى المدينة بكراً غير مصبد ولا مجهد ولا ذلول، وربما امتد لمسافة البحر في الطريق من جدة إلى المدينة فزادت صعوبة تجاوزه، وفي أحد المقاهي في مكة عانى أكثر رفقاء السفر من تسمم طعام مقلب تناولناه جميعاً كالعادة دون أن نبحث عن تاريخ صنعه أو انتهائه ولا أذال غير مقيد بالتاريخ مالم يظهر عليه الفساد.

٥) وصلنا المدينة النبوية فبدأنا بصلاة ركعتين في المسجد النبوي (كما تهدي السنة) وصلينا وسلمنا على النبي صلى الله عليه وسلم واستغفرنا واستفتحنا برحمة الله (كما تهدي السنة) عند دخول المسجد، واكتفى بذلك بعضنا اقتداءً بفعل بعض الصحابة وزار الأكثرون منا فمروا بقبر النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبيه وكبروا الصلاة والسلام عليه ثم سلموا على صاحبيه ودعوا الله لهما بالرضوان، ولم يقف منا أحد في مواجهة القبور للدعاء كما يفعل أكثر الناس اقتداء بالمبتدعة والجهلة، بل انصرفوا للدعاء في مواجهة القبلة. وأذكر أننا جلسنا بعد العصر في مؤخرة المصلى مع الشيخ محمد الماضي أحد القضاة في المدينة ولا أرى غيرنا في المسجد، فلم يكثر الزوار والمعتمرون إلا بعد أن تيسرت سبل السفر وكثر المال في أيدي الناس بفضل الله وتوسع الناس في استقدام العمال والخدم من شبه القارة الهندية وجنوب شرقي آسيا.

وكانه من خبر من أم المصلين في المسجد النبوي (إن لم يكن خيرهم على الإطلاق) الشيخ صالح الزغيبي رحمه الله، ذكر عن أحد مؤرخي المدينة أنه لم يتخلف عن إمامة المصلين (فرضاً واحداً) خمس عشرة سنة عدا عوارض الأمراض الخفيفة، وكانه قلبه (فيما يظهر لعارفيه) معلقاً بوظيفة العظيم لا يصرفه عنها تجارة دنيوية ولا وظيفة غيرها ولا انتداب ولا إجازة، وكانه لا يخرج من المسجد بين المغرب والعشاء ويجلس في محرابه بعد صلاة الفجر حتى تطلع الشمس (كما تهدي السنة)، فلم يطمح إلى غاية دنيوية بل اختار التطوع إلى الجزاء من الله بانتظار الصلاة بعد الصلاة، «فذلكم الرباط» وصلاة الملائكة عليه «وهو الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه (أو مجلسه) الذي صلى فيه» «اللهم بلغه ما سعى إليه».

ومن خبر من أم المصلين في المسجد النبوي قبله في العهد السعودي المبارك الشيخ محمد بن عبد الرزاق حمزة ثم نقل إلى المسجد الحرام مع زميله أبو السمح وقد استقدما من مصر في أول العهد السعودي لما عرفا به من صحة المعتقد والتزام السنة إذ تعلما في مدرسة الدعوة والإرشاد التي أسسها الشيخ محمد رشيد رضا في مصر، وأثناء عملهما في المسجد الحرام أسسا دار الحديث في مكة المباركة ولا تزال شاهدة على فضل الله عليهما وإنه استولى عليها الحركيون والحزبيون فغيروا وبدلوا في منهجها واتجاهها، ولكنها بقيت حرة من قيود الروتين الإداري التعليمي متميزة على المدارس

الأهلية القديمة (مثل الصولتية) والحديثة بأكثر دروسها ومقرراتها السلفية غالبا.
وزار الشيخ محمد بن عبد العزيز الخزاعي متميزا على كل أئمة المسجد الحرام والمسجد النبوي قبله وبعده في القرون المتأخرة (رحمهم الله جميعا) في دعوته إلى الاتباع ومحاربة الابتداع.
وكان من غير أئمة المسجد النبوي الشيخ عبد الله بن محمد بن حميد رئيس المحاكم في المدينة محاربة للبدع على كثرة أهل الظاهرية والمستريبة المتعبية محبة الرسول صلى الله عليه وسلم بالغلو في ذاته والبعد عن سنته ومخالفة أمره ونهيه بالابتداع في الدين الذي أرسله به.

٦) ويسر الله لي الحج بعد بلوغي الحلم بسنة واحدة عام ١٣٧٠ ثم عام ١٣٧٢ أثناء دراستي في دار التوحيد، وكان الزحام شديداً لضعف التنظيم وقلة الخدمات في ذلك الوقت مقارنة بالحال الحاضرة عام ١٤٢٧ و١٤٢٨، فالحمد لله على الميسور ولله الحمد واسعة، وكان ركاب السيارات الصغيرة (وهم قلة) يصرون على الوقوف على الجمرة بسياراتهم، وكانت قدمي تفقد الاتصال بالأرض وتحملني موجات الزحام، وشعرت بيد تجذب ردائي فنظرت ولذا بشاب أقوى مني يطلب أن أتنازل له عن الرداء لأنه فقد ردائه بسبب الزحام فتصدقت به عليه، وقد يكون أول وآخر صدقة منّ الله علي بتقديمها لنفسي، ولكنه زلل زاد من حرصي على الهرب من هذا المصير، فالتزمت صاحبي سيارة أبو يقاتي معه فاعتذر بوجود زوجته معه فلم يضيفني الاعتذار، الزوجة تركب في المقعد الخلفي وأنا وهو في المقعد الأمامي، وركبت معه إلى مكة وعرفت أثناء الانتقال إلى مكة أنه الأستاذ عزيز ضياء صاحب الصحف الكتبي المعروف ولم نصل مكة حتى صرنا معارف رغم الإكراه.

٧) وفي الحجة الثانية عام ١٣٧٢ وجدت بصدفة مقدرة خيمة حكام مصر الثلاثة: محمد نجيب وجمال عبد الناصر وصلاح سالم (وقد يكون بينهم أنور السادات وعبد الحكيم عامر أو غيرهم) وكان معهم الباقوري وزير الأوقاف، ولاحظت بدهشة قوة وصلابة المصافحة عدا الباقوري فكانت يده مثل طرف جبة، تجاوز الله عنا وعنهم جميعا، وبعد أعلنت الثورة لم تكسب تعاطفي في شيء ولقد تابعتُ لأخبار السياسة حتى الآن، ولكني حمدت لهم (فيما بعد) سلامة ثورتهم من القتل والنهب والسلب إذا قورنت بثورة العراقة الدموية الظالمة أو بما هو أقل منها سوءاً، ولم يكن الخروج على من ولاه الله الملك (من غير أهل الحل والعقد) مخالفة لشرع الله على أي حال.
وحججت بعدها عشرات السنوات ثم تركت مكاني في المشاعر المباركة فلم أحج واكتفيت بعبادات عامة وخاصة لا يضايق فيها أحد ولا أضايق فيها أحداً، تجاوز الله عنا جميعا.

٨) أثناء الدراسة في دار التوحيد لم يكن في قرى غير مسجد عام واحد، وكان واحد يبيع فيه سعد أبو خبر البسكوت والكاز والسكر والشاي ونحوها وأهم ما احتاجه استئجار بسكليت، وكان ذكياً يعرف زبائنه أكثر مما يعرفون بضاعته، كنت أنتظر مرة نصيبي من خدماته فسلم على شاب في مثل سني أو أصغر سلام المعارف بي، ولما ذهب سألت أبو خبر عنه فقال: صحبي ما عرفته؟

لهذا عبد الرحمن الشويعر ولد عثمان، وربما استغل ضعف نباهتي فأجرني بسكليت بنت يختلف عن بسكليتات الأولاد بلونه وشكله سامحه الله.
وعندما عُدت للإقامة في الطائف بعد أكثر من نصف قرن سألت عنه ولما عرف المسئول أنه ربطنا نأجر البسكليتات قال: الآن ما يؤجر غير البواخر والطائرات (له أجر وسيلة نقل) فقد كثرت أمواله وأمراضه شفاه الله.
وانقرضت المعاهد التربية الثلاثة بالغاء معهد البادية في ينبع بعد بضع سنين من إنشائه وتحول المعهد السعودي ودار التوحيد إلى مدارس عادية.
٩) ولكنه الله عوضه خيرا بافتتاح الملك سعود رحمه الله أول المعاهد العلمية الدينية في الرياض عام (١٣٧١) ثم كليتي الشريعة واللغة العربية عام (١٣٧٢)، وانتشرت فروع المعاهد في الداخل والخارج حتى بلغت نحو أمه (٦٠) ضمنها جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية وفروعها في الداخل والخارج.
وقامت المعاهد والكليات أولا بمتابعة وإشراف الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ مفتي المملكة المبارك (رحمه الله) وتعددت وانتشرت بهمة وإدارة الشيخ د. عبد الله بن عبد المحسن التركي (وفقه الله) وجزاهما عنا خير الجزاء.
وكادت الجامعة أن تسمى جامعة الملك فيصل الإسلامية ولكنه الشيخ ابن باز رحمه الله رأى أن تحمل اسم المؤسس الأول للدولة ومجدد الدين والدعوة الإمام محمد بن سعود لفضل الله به وفضله عليه فكان له ما رأى أثابهم الله.
١٠) وبما أنه النفقة الإضافية التي كانت تصرف لطالب الدار تزيد على حاجته فقد اشتريت ببعضها عقارات زهيدة الثمن في أطراف الطائف استثمارا لأيام الحاجة، أما صاحب السيرة فاختار الله له بفضله استثمار اليوم حاجة أعظم، فقد خصص فائضه تفقته قرضا حسنا لأحد الزملاء من أكثرهم سنا وأكثرهم مرحا، كان يريد الزواج واشترك في ملكية سيارة نقل لم تكن موفقة، وبعد ما يقرب من (٤٠) سنة فوجئ صاحب السيرة بزميله المقترض منه يدعى له الرغبة في سداد القرض: (٦٦) جنيه ذهب و(٣٧٥) ريال فضة، ومع أن الله أغناه فلم يرد عليه سداد القرض ذهبا وفضة لما هو حكم الشرع إذ زاد سعرهما عشرة أضعاف، ففوض صاحب السيرة في دفع ما يشاء ومنع ما يشاء فأعطاه (٤٠) ريال قرشه عن الجنيه و(٢٥٠) ريال قرشه عن ريال الفضة، وكان سعرهما يومها (٤٠) للذهب و(٧-١٠) للفضة، فقبل المقترض منه وطلب كل منهما المغفرة والعفو من الله للآخر، عفا الله عنهما جميعا.
ولو وكلني الله لنفسي فلم أحرمها فضل الخير منذ البداية أو لاكتفيت

بارضاء نزوة العاطفة الأولى باقتراضه راتب سنة واحدة لا يضمن سنيه.
وكنت وزميلاً لي مرة عُنيزة نزور خلف المطيقاني رحمه الله ليلة وليلة
فنقترض منه رياله فضيه ونصف ثم المطبوعة منه الكبر ملاء الأغناء
وطبا بلغ القرض ثلاثة ريالات فضة كاد يفلسنا الحماء ولكنه الرغبة في
المطبوعة كانت أقلب فسألم زميلي: (كم عندنا لك يا شيخ عند الله؟)
قال: (ثلاثة) وفي يقرب سداد القرض، قال زميلي: (أقرضنا
رياليه حتى يكمله لك خمسة) فقال رحمه الله وعوضه خيراً. واحتجت
في مكة بعد أنه استأجرت بيتاً لي ولعائلتي ولكنه المقترض زادت
حاجتي (ولابد)، وصرفني الله عن مطالبته بالأداء على أي حال.
وعندما أتذكر غربتي مع ضعفي ونقصي وقلة حيلتي وحفظ الله
لي من الضياع والضلال ومن كبائر الإثم والفواحش (إلا اللمم)،
أتذكر دعاء والدتي رحمها الله قبل وبعد وأثناء غربتي في الداخل والخارج
وكانه والدي رحمه الله لا يكتفي بالدعاء النبوي: «استودع الله دينك
وأمانتك وخواتيم عملك» بل كانه يردد كأني أسمعه الآن: فالله خير
حافظاً وهو أرحم الراحمين» ولازلت (بفضل الله ثم بفضل دعائهما)
أجد محسة العاقبة في كل أمر أختاره لنفسي أو يقضيه علي...

لهذا عبد الرحمن الشويعر ولد عثمان، وربما استغل ضعف نباهتي فأجرني بسكلتيت بنت يختلف عنه بسكلتات الأولاد بلونه وشكله سامحه الله.
وعندما عدت للإقامة في الطائف بعد أكثر من نصف قرن سألت عنه ولما عرف المسئول أنه ابطنا بأجير البسكلتات قال: الآن ما يؤجر غير البواخر والطائرات (له أجر وسيلة نقل) فقد كثرت أمواله وأمراضه شفاه الله.
وانقرضت المعاهد الدينية الثلاثة بالفاء معهد البادية في ينبع بعد بضع سنين من إنشائه وتحول المعهد السعودي ودار التوحيد إلى مدارس عادية.
٩) ولكنه الله عوضه عنها بافتتاح الملك سعود رحمه الله أول المعاهد العلمية الدينية في الرياض عام (١٣٧١) ثم كلية الشريعة واللغة العربية عام (١٣٧٢)، وانتشرت فروع المعاهد في الداخل والخارج حتى بلغت نحو أمس ٦٠ ضمنه جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية وفروع في الداخل والخارج وقامت المعاهد والكليات أولا بمتابعة وإشراف الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ مفتي المملكة المباركة (رحمه الله) وتصدت وانتشرت بهمة وإدارة الشيخ د. عبد الله بن عبد المحسن التركي (وفقه الله) وجزاهما عنا خير الجزاء.
وكادت الجامعة أن تسمى جامعة الملك فيصل الإسلامية ولكن الشيخ ابن باز رحمه الله رأى أن تحمل اسم المؤسس الأول للدولة ومجدد الدين والدعوة الإمام محمد بن سعود لفضل الله به وفضله عليه فكان له ما رأى أثابهم الله.
١٠) وبما أنه النفقة الإضافية التي كانت تصرف لطالب الدارس يزيد عن حاجته فقد اشتريت بعضها عقارات زهيدة الثمن في أطراف الطائف استثمارا لأيام الحاجة، أما صاحب السيرة فاختار الله له بفضله استثمار اليوم حاجة أعظم، فقد خصص فائض نفقته قرضا حسنا لأحد الزملاء من أكثرهم سنا وأكثرهم مرحا، كان يريد الزواج واشترك في ملكية سيارة نقل لم تكن موفقة، وبعد ما يقرب من ٤٠ سنة فوجئ صاحب السيرة بزميله المقترض يبدي له الرغبة في سداد القرض: (٦٦) جنيه ذهب و(٣٧٥) ريال فضة، ومع أن الله أغناه فلم يرد عليه سداد القرض ذهبا وفضة لما هو حكم الشرع إذ زاد سعرهما عشرة أضعاف، فخوض صاحب السيرة في دفع ما يشاء ومنع ما يشاء فأعطاه (٤٠) ريال ورده عن الجنيه وريال ورده عن ريال الفضة، وكان سعرهما يومها (٤٠) للذهب و(٧-١٠) للفضة، فقبل المقترض وطلب كل منهما الطفرة والعضومة الله للآخر، عفا الله عنه الجميع.
ولو وكلني الله لنفسي فلربما اخترت فضل الخير منذ البداية أو لاكتفيت

بارضاء نزوة المماطلة الأولى باقراضه راتب ستة واحدة لا يضع سنيه.
وكنت وزميلي في مهمة تزور خلف المطيقاني رحمه الله ليلة وليلة
فنقترض ريال فضة ونصف ثمن المطبوعة من أحد البزمالاء الأغنياء
ولما بلغ القرض ثلاثة ريالات فضة كاد يفلسنا الحياء ولكنه الرغبة في
المطبوعة كانت أغلب فسأله زميلي: (كم عندنا لك يا شيخ عبدالله؟)
قال: (ثلاثة) وفي بقرب سداد القرض، قال زميلي: (أقرضنا
ريالين حتى يكمل لك خمسة) وفعل رحمه الله وعوضه خيراً. واحتجت
في مكة بعد أن استأجرت بيتاً لي ولعائلتي ولكنه المقترض زادت
حاجته (ولا بد)، وصرفني الله عنه مطالبة بالأداء على أي حال.
وعندما أتذكر غربتي مع ضعفي ونقصي وقلة حيلتي وحفظ الله
لي من الضياع والضلال ومن كبائر الإثم والفواحش (إلا اللمم)،
أتذكر دعاء والدتي رحمها الله قبل وبعد وأثناء غربتي في الداخل والخارج
وكانه والدي رحمه الله لا يكتفي بالدعاء النبوي: «أستودع الله دينك
وأمانتك وخواتيم عملك» بل كانه يردد كأني أسمعه الآن: (والله خير
حافظاً وهو أرحم الراحمين) ولا زلت (بفضل الله ثم بفضل دعائهما)
أحيا تحت سقف العافية في كل أمر أختاره لنفسي أو يقضيه علي.

٥- وبعد التخرج من دار التوحيد[١٣٧٢] انتقلت إلى كلية الشريعة في مكة المباركة
وهي أول كلية للشريعة أو ليفرقها في جزيرة العرب افتتحها الملك
سعود رحمه الله عام ١٣٦٩ في آخر عهد والده بعد أن عهد إليه بأكثر مهام
الحكم الإدارية، وأكثر طلابها من خريجي دار التوحيد بالطائف والمعهد
العلمي السعودي بمكة (بل كلهم).
وتوفي الملك عبدالعزيز رحمه الله وخلفه ولي عهده الملك سعود قبل بدء
الدراسة في سنتنا الأولى وتحولت مديرية المعارف بمكة إلى وزارة
وجاء الوزير الأمير فهد (رحمه الله) لزيارتنا وكانه أستاذ البلاغة محمد متولي
شعراوي رحمه الله قد أعد قصيدة لتناسبه (تصلح لأي مناسبة بعد
تغيير أو تقديم أو تبديل بيته أو بيتين) ألهم ما اهتمت به دعوة الشيوخ
للشيوعية الحضارية لا للشريعة عقيدة وعبادة، تجاوز الله عنه الجميع.
وكانه مبنى الكلية في القشاشية في شارع يقطع المسعى ويمر على
المسجد الحرام على يمينه والحميدية (قصر الحاكم) على يساره.
وفي سنتنا الأولى أو الثانية بدأ العمل على توسعة المسجد الحرام وكانه
لابد منه انتقال الكلية إلى منزل في الزاهر أهداه الملك سعود رحمه الله
لنا الغرض منه أغراض التعليم.

هـ - وفي سنتي الثانية بكلية الشريعة عام ١٣٧٤هـ ١٩٥٤م فوجئت بأخي يرصد على مرافقته (وأحد زملائه) في السفر إلى مصر وبلاد الشام واغتبطت الفرحة بالرحلة إذ لم يكن في الحسبان السفر بالطائرة إلى الخارج، وقد تهافتنا الصحف المصرية لرؤية عجائب مصر، وكان أكثر معالمنا في دار التوحيد وكلية الشريعة من مصر، أما بلاد الشام فوصفها الله في كتابه بالبركة والقداسة بضع مرات، ومنذ مدير المعهد العلمي السعودي بمكة ودار التوحيد بالطائف أول نشأتهما: الشيخ عبد الله بن حميد رحمه الله، ومنذ الشيخ كامل القصاب (رحمه الله) مدير المعارف بالمملكة المباركة في بداية ولاية الملك عبد العزيز ذهبنا إلى جدة وبتنا في مطعم المطار انتظاراً لموعد الإقلاع، وعند وصولنا القاهرة أوصلتنا سيارة الأجرة إلى فندق (كراند أوتيل) في أكبر المناطق التجارية، وبعد تسجيل أسمائنا في سجلات الفندق قادنا أحد الخدم إلى صندوق له باب من الأسياخ الحديدية فاحتجنا أحدنا ظناً منه أنها الغرفة المخصصة لإقامتنا وهي لا تكاد تتسع لوقوفنا ثم تبينا له أنها المصعد الكهربائي إلى غرف الإقامة، وانخلت المفاصل الأولى.

وكان المصعد مثار حرج مع صديق آخر، إذ كان المصعد في مكان إقامتنا (في مصر بعد طفرة بضع سنوات) قديماً ويستجيب للمستفتي على كل أحواله، ولما فتح صديقنا باب انفتح على غير مصعد (على غير العادة) فلم يكذب الخبر ودخل إلى الفراغ وسقط في بئر المصعد، وكأنما كان المصعد ينتظر سقوطه فنزل عليه، ولم نجده طلب إيقاف المصعد إذ ظنه البواب أنهم الأطفال يلعبون كالعادة، وأنقذه الله من الهلاك بالالتصاق بجدار البئر، ولم يكن حظنا مثل حظ صاحبنا فتلطخت بالزيت التراب وأعشاش الحشرات، وتولى الأهل مثل ذلك في انتظار عودتنا ولما تأخرت اكتفى منه الضيف بالإياب، وكم منه خير منه عرفنا ختم الله له بالجنة ورؤيته يوم القيامة.

وأغرب مصعد أيته (قريباً من قصر بكنكهام في لندن) يرفع ويخفضه بحبل في الحمام دون محرك كهربائي، ولعل المصاعد في بداية استعمالها كانت كذلك.

٤) قادنا صديقنا ودليلنا في هذه البلاد (عبد الله الوهيبي، رحمه الله وجزاه عنا خير الجزاء) إلى محل (شيكوريل) من المتاجر الكبرى التي أخذت الحكومة الثورة (حسب فكر سيد قطب) من أصحابها (تحت مظلة الحراسة) ولبسنا ما اشتريناه منها من الملابس الإفرنجية الجاهزة.

ولم يتم استعمال هذه الملابس في السنوات القادمة بحجة أنها (الموضة) قد تغيرت! من الذي غيرها؟ وهل هو أهل للاقتداء به؟ لا تسأل فلا أحد يعرف ولا يهتم بأنه يعرف يكفي الانقياد للموضة كالعبيد دون إرادة ولا اختيار.

٧) ثم دلنا إخواننا على تركيا أقل نفقة تملكه وتديره مجوز يونانية تتكفل بإعداد طعامنا. ولخوفنا من الضياع في القاهرة (أم الدنيا) تطوع أحدنا باختيار علامة تدلنا عليه علامة عند صابونة الشمس على عمود الكهرباء في شارع سليمان باشا، ولكنه ظهر لنا عند محاولة العودة إلى النزل أن الشارع بطوله مغروس بأعمدة الكهرباء وعلى كل منها

إعلاء عن صابونة الشمس.

٤) ولأنه الملابس الإفرنجية عند العرب لا تضمه غطاء الرأس فقد انكشف رأس أحمدنا (رحمه الله) عن عدد من آثار العلاج بالكي، وادعت العجوز اليونانية أنها قادرة على إزالة الترح فلم تفلح، ولم يبق عليه إلا الأسى ولعل السبب أنه أحدها كانه صليباً (غرفاة).

٥) وزارنا صاحب قرصة النطف والفضة (الذي سبق ذكره) فدلنا مشكوراً على فندق أقل نفقة فانتقلنا إليه، وبدأنا زياراتنا لأساتذتنا في الأزهر، ومعالم القاهرة القديمة والحديثة، ومعالم الإسكندرية وبدت لي منه أجمل ما رأيت باطلاً لترا نصف الدائرة على البحر الأبيض المتوسط. ولم ننس تجربة (سينما بيفولي) الصيفية، وقرينها منزل ملاك شهرزاد، وأذكر أنه أحد زملائنا من كبار طلاب العلم الشرعي رغب في إدخال برنامج (السياحي بزيارة لهذا الملاك الذي يضم بعض مقاصد (السائحين) لقربه من وسط القاهرة، ولكنه خشي من تأخير صلاة العشاء فسأل العجوز التي تبيع تذاكر الدخول (وهي أم صاحبة الملاك) عن أقرب مكان للصلاة فأعارته مصلاها ليجمع به الأولاد والصلاة، وكنا نلقب أحد رفقاء السفر (وهو رئيس محكمة شرعية) بمرح المراقبة بعد أن لاحظنا أنه لا تفوته شاردة ولا واردة تلبس فستاناً أو تنورة أو ما يوهما إلا أطال فيها النظرة الأولى، ولربما نافسه الآخرون لو ملكوا حدة لبصاره أو دقة لملاحظته ولكنه من العصمة (لا يقدر)، وثالث تميز بأنه من نوادر من درس في الأزهر ومن تجدد درس التوحيد في بلاد التوحيد والسنة قبل ستة سنة ومع طول إقامته في مصر لم يمل تكرار الجلوس في مقرن على شارع فؤاد (٦ بوليفار فيما بعد) ومراقبة المارات وكشف لنا عن مقياس اخترعه للحكم على طريد بصره: (يتحفظ، تتلمظ، تترخص) تجاوز الله عنه الجميع، وهذا لا يتجاوز زنى العين واللسان، وهو أيضاً، أما الفرج فنشهد معاً نعلم أنه يكذب، ولكنه السائح السعودي يأتي من بلاد مباركة ميزها الله بالحجاب على بلاد المسلمين (فضلاً عن غيرها) إلى بلاد سقطت في نزع الحجاب فلا يملك عينه ولا لسانه وقد ذهل أحدهم فرتف: صدق الله العظيم لو إهبطوا مصراً فإنه لكم ما سألتم.

وكانه متألماً (في محاولة الجمع بين الطاعة والمعصية) لمثل قاطع طريق (قبل تأمين السبيل بفضل الله في عهد دولة الدعوة) أوقف راكب حمار فسلبه حماره ومتاعه وثوبه، ثم تذكر صلاته فأعار صاحب الحمار ثوبه وقال: (سنجيه يا حضرتي) أنى صلى بناء فتعجب الحضري: (تسيرفه وتصلي؟) فأجاب قاطع الطريق: (ما أخبلك يعني أطيفه ربي من مديتي الشتيه؟).

٦) كانه أعجب عجائب مصر بعد بناء أهرام (الجيزة خاصة) وأعجب ما في أمرها: أنه بناء قبل بضعة آلاف سنة جمعوا بين القوة والذكاء والطرافة والضخامة والفخ، وبين الجرأة بما خلقوا له: عبادة الله وحده، ومثلهم كل أصحاب الحضارات المادية الذاهبة، كلام وتنويه وملحوظة بلا استثناء، فالله لا يطغى أحداً ولا يحتقر كل شيء.

٧) وكانه أسوأ ما في مصر: أوثانا بناها المسلمون بالوراثة تقربا إلى الله وسموها بأسماء ما أنزل الله بها من سلطان: (المقامات والمزارات والأضرحة) وأدل فيما نعلم ما سمي بالحسينية بناه زعيم شيعي فاطمي، وما سمي بالشافعي بناه زعيم سني (صلاح الدين الأيوبي) في القرن السادس (تاريخ الخلفاء للسيوطي)، ولقد رأيت عمائم الأزهريين تطوف على وثنه الشافعي بعد البناء عليه بنحو سبعة قرون. ويحج إلى وثنه السيدة زينب جموع لا يحصيها إلا الله ويسمونه ليلة (مولدها): (الليلة الكبيرة) ويستشفون به آثار قنديل يوقد عند الوثن يعرفون بقنديل أم هاشم، ومرة في المسجد الحرام ذكرت مصريا بنعمة الله عليه بالحج أو العمرة إلى بيته وليس إلى قنديل أم هاشم كما يفعل الجاهلون، فنسي أنه في بيت الله وتذكر الوثن فكاد يذوب رقة وهو يتضرع إلى من سمي الوثن باسمها: (نظيرة) يطلب منها أن تحميه بنظرة تشفيه، ويحج إلى البدوي في طنطا الملايين، ومع بعضهم (عجل السيد البدوي) الذي ينذر ويذبح للوثن، وتقول مجلة التوحيد (لجماعة أنصار السنة): إن النذور للبدوي مثلا تقسم أثلاثا: ثلث للوثن، وثلث للقائمين عليه وثلث لإدارة الأوقاف، ولا يحصى عدد أوثانا المسلمون لا الله.

٨) كانت دولة الثورة المصرية في بداية حكمها، وكانه الناس مستبشرين بما تعد به من إصلاح دنيوي ولم تعد بإصلاح ديني وكانه من أهم ما أخذته من الفكر الاشتراكي مبدأ في الغالب (أو موافقا على الأقل) لفكر سيد قطب في كتابه: (العدالة الاجتماعية) و(معركة الإسلام والرأسمالية) وكانه سيد قطب (حسب ادعائه في مرافعته التي طبعت المولود له بعنوان: لماذا أعدموني) يعمل مع الثوار في العام الأول لحكمهم. وعهد الثوار بعصر الإصلاحات: القضاء على بقاء إرث احتلال الإنكليز لمصر، تأميم قناة السويس، بناء السد العالي، وكانه من الإصلاحات الفاسدة: تشريع فكر سيد قطب الاشتراكي وأساسه: أخذ أموال الأغنياء وركازهم وأراضيهم ومزارعهم وإعطائها لعامة الناس من الفلاحين والإداريين (أو بلغة الثوار: نقل ملكية القطاع الخاص إلى القطاع العام)، والرأسمالية في هذا الأمر أقرب للشرع من فكر سيد قطب.

٩) وأخيرا ركبنا الفلك من الإسكندرية (مرورا بورسعيد وبور توفيق والإسماعيلية) إلى بيروت. وتوقفنا بقبرص (ليماسول) ونزلنا إلى السابسة ونزلنا أحد مساجد ليماسول وقضينا بعض الوقت مع إمام التركي، ولم تكن قبرص قد انقسمت سياسيا إلى قسم يوناني وقسم تركي (بل كانه أشقر مكاريوس يلقى التأييد من الثورة المصرية لنيل استقلال قبرص من الاحتلال الإنكليزي)، وإنما كانه الخلاف كالعادة على السلطة أو القومية أو الأرض كما حدث فيما بعد بين حركة التحرير الفلسطينية والأردن، أو بين الصرب والكروات أو بينهم وبين المسلمين، أو بين الأفغان أو بين الصوماليين، أو بين التوتسي والهوتو في رواندا، أو بين الدول الأوربية النصرانية، بل بين الشيعة والشيعة وبين النصارى والنصارى في لبنان، وبين فتح وحماس

١٠) نزلنا مه الفلك المشحونه في مرفأ بيروت وأقمنا في فندقه سموه (الرياضه) بما لا يزيد عه ليرتين للفرد الواحد، وكانت بيروت في بداية طفرتها السياحيّة والتجارية، فقد وفد إليها مه فلسطين بعد حرب ١٩٤٨، وكانت فلسطين أغنى بلاد العرب قبل الحرب وأتيح لها رزق رغداً مه كل مكان فأفسدها الإسراف وغيره مه المعاصي وأسوأ معاصيها ومعاصي غيرها: بناء المساجد على القبور وشدّ الرحال إليها ودعاء أصحاب القبور سمّيت بأسمائهم حقيقةً أو وهماً والنذر لها أو لهم والاستغاثة والاستعانة بهم تقرّباً أو استشفاعاً إلى الله مما اتّبعهم المنتمون إلى الإسلام مِنْ سنّة مَنْ كان قبلهم منذ قوم نوح. وملكت لبنان سبيل فلسطين فذاقت وبال أمرها بأيدي الفلسطينيّة واللبنانيّة عام ١٩٧٥ وبضعة عشر عاماً بعده، وشاركت لبنان فلسطين مساوئ الديمقراطيّة: حريّة التعبير، حريّة المرأة، حريّة الدين، الانتخاب، الأحزاب، ومختلف الشبهات والشهوات، فكان عاقبة الوارثة مثل عاقبة المورِّث ﴿ فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسراً ﴾؛ فزرعه بذور الشرّ ولا عجب أنه كان الحصاد شرّاً، لهدي الله الجميع والحمد لله رب العالمين.

وشاركت لبنان فلسطين فوائد الاحتلال الأوربي: الكهرباء، الماء، الطرقه (ولعله كانت الطرقه ذلك الوقت ضيّقة بمعيار اليوم) التعليم المصري، الطبّ، الإسعاف الخيري، الدفاع المدني، الإغاثة، ونحوها. وعلى سوء الاحتلال وظلمه واعتدائه فقد كان الاحتلال التركي (قبل الأوربي) وكان الاحتلال العراقي (للكويت بعده) لهو الأسوأ والأظلم والأكثر عدواناً على الدين والدنيا رغم أنّ الأخيرة ينتمي إلى الإسلام زوراً، قطع الله دابر المعتدين والمفسدين.

١١) وكان الإصطياف في (بحمدون) وغيره مه المرتفعات في بداية أمره ضعيفاً ضئيلاً كما يظهر للسائح الذي يقيس التقدّم بعدد ونوع المطاعم والمقاهي والمحلات (إضافة إلى جغرافية المكان وفنادقه المتميّز) وعدد السيّاح.

ولكنّنا بعد بضع عشرة سنة أقمنا في (عالية) أعلى منزل العمدة (وهو مبنى عمل طويلاً في المملكة المباركة وأغناه الله بها) فتنبّهنا إلى ما لا يكاد السائح يتنبّه له مه الحياة في المنطقة، فرحم الله صاحب المنزل ووظيفته كانه النساء يتعاملن برحمة لتخزين ما يصنعنه مه الأغذية استعداداً لأيام الشتاء غير المنتجة (مثل أنواع المربّيات والخضروات والمجبوبة الطماطم والفواكه والزيتونه وزيته)، وبعد بضع عشرة سنة أخرى اكتشفت ما لهو أبدر وأحبّ إلي: في يوم العيد لم يعجبني انفراد إخواني السلفيّة (وهم قلّة عه غيرهم بحجّ الصلاة في العراء (مما لا أرى مشروعيّة التفرقة لأجله)، فقرّرنا بدء السفر بطريقة سوريا على أنه نصلّي في أوّل مصلّى للعيد في طريقنا. وفي (عالية) أخطأت الطريق المعتاد (بفضل الله) فمررنا على مسجد

بناه أمير قطر (علي بن ثاني) رحمه الله واختاره إماماً سلفياً (الشيخ سعيد الطباع) رحمه الله، ولم أكن على معرفة به ولا يعرفه أحد منا ولم أكن لأختار عليه أحداً في لبنان ولا في بقية بلاد الشام، فعوّضنا الله بإمام وخطيب على المنهاج النبوي لا يخرج عن الوحي وثوابت الأحكام الشرعية في الاعتقاد والعبادات والمعاملات إلى الفكر وظنون أخبار الحوادث والطوارئ التي ابتلي بها أكثر خطباء اليوم.

و(علي بن ثاني) رحمه الله خير ولاة العصر في بلاد المسلمين (بعد آل سعود) التزاماً بالسنة ونشراً لها، أما آل سعود فلهم لواء التوحيد والسنة (فضلاً من الله ونعمة) لالتزامهم بتجديد الدين ونشره ومحاربة الشرك والبدعة في القرون الثلاثة الأخيرة وكانوا لهم السابقين في طبع وتوزيع كتب العلم الشرعي وعلى رأسها: جامع الأصول في الحديث والمغني والشرح الكبير في الفقه وتفسير ابن كثير وفتح المجيد ومجموعة التوحيد في عهد الملك عبد العزيز رحمه الله، ومجموع فتاوى ابن تيمية وإنشاء معاهد العلم الشرعي وكلياته وجامعاته في عهد الملك سعود ومن ولي الأمر منهم بعده، وتحكيم شرع الله في كل الاعتقاد والعبادات وجل المعاملات إلى اليوم (وإلى الأبد بإذن الله).

ووجدت أنه عامة أهل لبنان (مثل أهل مصر) متميزون بإدراك وشكر فضل الله بالسعودية على العرب، وكابة طلاب العلم الشرعي أولي بذلك ولكنهم (مثل كثير من نواب السعودية أنفسهم) اجتالتهم شياطين الجنية والحركية والسياسة الرخيصة غير الشرعية عن إدراك هذا الفضل وشكر الله عليه.

١٢) وانتقلنا إلى دمشق (في المرحلة الأخيرة من سفرنا الأول إلى الخارج) وهي من أقدم عواصم الحضارة التجارية والاجتماعية، وكابة أول من زرناه فيها من الناس: الشيخ محمد رجب البيطار ونعم شيخ السنة في بلاد الشام (ولما قدمت) أول رئيس لأول معهد شرعي في العهد السعودي (المعهد العلمي السعودي بمكة المباركة) وأول رئيس لثاني معهد (دار التوحيد بالطائف) ومن نوادر علماء الشريعة (المتيمية لا المتبدعة) بعد عصر ابن تيمية وتلاميذه.

وكابة أول من زرناه من البقاع: الجامي الأموي، وكابة كنيسة قبل أن يحولها المسلمون إلى مسجد، ولكنهم نسوه ببناء ضريح في مقدمته باسم يحيى بن زكريا (عليهما السلام) بعد أن سول لهم الشيطان أنه لهذا مدفنه.

ثم نسوه بإضافة رأس باسم الحسين بن علي (رضي الله عنهما) ونسوه باسم صلاح الدين الأيوبي (رحمه الله) رغم نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن اتخاذ القبور مساجد وتكراره النهي عن ذلك في أيام موته فيما رواه البخاري ومسلم (رحمهما الله)، ثم نسوه بإقامة أربعة محاريب بعدد المذاهب ليصلي إمام كل مذهب بأتباعه ولا زال اثنان منها للشافعية والحنفية نفر قانية المسلمين باسم السنة.

ومن العصر محاولة حضر الأوثان والبدع التي يتقرب بها المسلمون إلى الله إفكاً.

ومساجد دمشق ومدارسها الدينية كثيرة جداً تذكرني بمثيلاتها في القاهرة ولكنها لا تكاد تسلم من (مثالب) البدع في الاعتقاد فما دونه منذ عصر ابن تيمية رحمه الله الذي ضاقت بدعوته السلفية الشام ومصر ومات مسجوناً. وكانت تكلفة المعيشة في الشام (مثلها في مصر) قليلة جداً، أذكر أن السفير السعودي دعانا للعشاء في أرقى المطاعم وعددنا خمسة وعند الحساب قدم مائة ليرة سورية ليؤخذ منها ثمن العشاء فاحتج مدير المطعم لصعوبة صرف هذا المبلغ في كل مرة يحضر السفير مع ضيوفه. وكانه صرف الليرة السورية بالأسود تاً وربع الريال، والليرة اللبنانية بالليرة الأربع ريال والجنيه المصري اثني عشر ريال ونصف بالمثل الدينار الأردني والعراقي والجنيه الاسترليني) بل كانه سعر الدولار الأمريكي أربعة ريالات ونصف الريال فانخفضت جميعاً وارتفع الريال بفضل الله ومنته؛ وجاء الناس من بلاد الأرز والثمار في طلبه.

و - أوفدتني وزارة المعارف عام ١٣٧٧ (بعد تخرجي من كلية الشريعة وتعييني مدرساً، وطلبت أماكن التدريس لضعف شخصيتي عني) إلى مصر على منحة للدراسة في معهد التوجيه للملحوظين في جامعة الزيتونة بطرف القاهرة الغربي استجابة لطلبي السفر للدراسة العليا في معهد الدراسات العربية العليا حيث سبقني أخي، وتأخر توظيفي خمسة أشهر عن بقية زملائي لرغبتي عن العمل ورغبتي في السفر (لا أقول الدراسة) وكانه اختيار الله لي خيراً من اختياري لنفسي إذ جمع لي بين الوظيفة (ونصف الراتب) وبين الدراسة (كامل الراتب) ولكنت قد عجزت عن إقناع وزير المعارف رحمه الله بسفري فقبلت العمل ثم لقيت الأستاذ المتميز/ ناصر المنقور مدير عام الوزارة - صدفة مقدرة - فيسر الله به السفر، والتحقت بين الدراسة في معهد التوجيه نهاراً ومعهد الدراسات مساءً، وبعد عام سلمني حسين الشافعي نائب رئيس جمال عبد الناصر ديبلوم معهد الملحوظين ممسكاً بكفتي يدي ظناً منه أني أعمى، والحق أني كنت ضعيف البصر منذ الطفولة ولله الله حفظ لي منه ما يكفيني بعد ضمن وسبعين سنة من استعمالي كل لحظات اليقظة فيما يفيد وما لا يفيد فلست أقول مثل غيري: (حفظنا الله في الصغر فحفظ الله في الكبر)، وقد حفظ الله على بصري شر عباده، ففضله واسع يؤتيه من يشاء ممن يستحق ومن لا يستحق فضله: وكلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً، والعطاء الأعظم: التوبة إلى الدنيا.

واستأجرنا منزلاً قريباً من (معهد الدراسات في كاردنه سيتي) حتى لا نحتاج إلى الركوب إليه وأحضرنا الوالدة رحمها الله وتقصد الأهل للإقامة معنا بقية أيام الدراسة. وكان المنزل يطل على ثانية مجلس الوزراء، فكان يزلزلنا الرحاف والتصفيق لجمال عبد الناصر تجاوز الله عنه فقد كانت مصر تمر بأزمات وأحداث بعضها من صُنعه وبعضها مما فُرض عليه من قبل السياسة الخارجية، وكان من أبرز الأحداث التي زلزلنا الرحاف لها: الوحدة بين مصر وسوريا وإعلان قيام الجمهورية العربية المتحدة، وحلم الوحدة العربية (أو الإسلامية أخيراً) حلم طالما راود عقول العرب والمسلمين لظنهم أنه مجرد الوحدة محققه للخير والعدل والنصر، وتخيلتهم على الأساس الذي تقوم عليه الوحدة ليتحقق الخير أو الشر، فالوحدة مثل السعادة إما على البر والتقوى وإما على الإثم والعدوان، وانتقضت وحدة سوريا مع مصر بعد ثلاث سنوات، وانتقلت حمى البحث عن الوحدة إلى ليبيا مع مصر والسودان وتونس وغيرها، وبقيت مجرد حلم بلا أساس صحيح ثابت.

وخافت الوالدة رحمها الله أن يُكتشف بناء منزلنا تزاحم الناس تحتنا وضجيجهم وهتافهم وتصفيقهم، وبلغ بها القلق مبلغاً أننا معها غادرنا إلى المملكة المباركة وزرنا أحد إخواننا مرة ودخل بيته صفوف الرحاف والتصفيق وكان يلبس حلة بيضاء (شارك شكته) فما خرج من بينهم إلا بعد أن صارت حلته مخططة بسواد أصابعهم مثل جلد حمار الوحش.

وكان أقرب مسجد إلينا (مسجد محمد مكرم) في ميدان التحرير وكأنه مخصص لسرادقات العزاء، ولو ذهبت إليه لصلاة الفجر لوجدته مغلقاً فتتذكر المثل المصري: (بركة اللي جتش منك يا جامع).

وبعد حصولي على دبلوم المعهد في الأدب العربي (بتقدير قسم) لم يرد ولاة الأمر في وزارة المعارف استبقائي للحصول على درجة الماجستير (وهم لي ناصحون) فعدت للعمل الإداري في وزارة المعارف غير كاره.

ن) بعد عام من العمل الإداري في إدارة التعليم الابتدائي نُقلت للعمل مديراً للبعثات الخارجية (الإشراف على الابتعاث للدراسة في الخارج) فرأى ولاة الأمر في الوزارة ابتعاثي (حتى ملك الموت يموت وبعثتي) لتعلم الانكليزية في انكلترا عام (١٣٨١)، فسافرت إليها بالطائرة مروراً بجنيف حيث يوجد المكتب الثقافي السعودي للإشراف على الطلاب في أوروبا، وفتح لي المكتب حساباً في بنك سويسري لإيداع راتبي فيه ويمكنني الصرف منه حسب الحاجة مدة دراستي، وكان يخيل لي أنني أجد في حسابي أكثر مما كنت أتوقع لعارم البركة (زد الفوائد المضافة دومة لحاطم مني برا)، ولقد

جُبِلْتُ بفضل الله على القصد (في الفقر والغنى)، وعصمني الله من تبعيّة التقليد (المحاكاة) في الدّين والدّنيا السّبب الأوّل في الانحراف عن الفطرة، وفي الإسراف (المعصية التي يقع فيها ويصرّ عليها أكثر النّاس على اختلاف علمائهم وعوامّهم أغنيائهم وفقرائهم)، وفي الحاجة والتّعب والتّكلّف والله لا يحبّ المسرفين:

١) لم يكن الابتعاث إلى انكلترا مألوفا كما صار فيما بعد، وقليل ممّن أعرفهم سبقني إليه قبل (٤٧) سنة، فطلبت من (المجلس البريطاني) في لندن أن يختار لي مكان الدّراسة فدلّني على (المدرسة الأورنيّة الدّوليّة) في (بورمث - هامبشر) على السّاحل الجنوبي و(بورمث) مدينة صغيرة برواها المتقاعدون، ولهؤلاء هم الذين يقبلون (استضافة) من يحتاج إلى ضيافتهم من الطّلاب (وأبوائهم وأعدادهم) بأجرة أسبوعيّة يتّفق عليها، ويستفيد الطّالب من ذلك (إضافة إلى الإقامة والطّعام): المعاملة وبالتّالي المحادثة. والانكليز معروفون بالتّقشّف، وفي ذلك الوقت لم تكن الشّقق المركزيّة دخلت أكثر من ٥٪ من المنازل مع شدّة البرودة فكانوا يضعون في الغرفة مدفئة صغيرة على الغاز تضعف فيها حمّلة متدنيّة فتشتغل وقتا قصيرا لا يضفي من البرد إلّا قليلا.
وكانت مضيفتي الأولى عجوزا لا يقيم معها من أطفال الإثنا عشر كلّا بيت سلوفينيّة مادّيّة، ولما عرفت والدتي بذلك خشيت أن تكون مسحورة كما في (ألف ليلة وليلة) وأنّي سأكون رابعهم. وكانت مُضيفة (سوء) فكانت إذا استضافت والدتي أخذت منها الأجرة نفسها.
وكان الانكليز أيضا معروفون برداءة الطّعام (أو غنا الله شاكر نعمته) فكنّا نؤتى الطّعام الهندي بيد حبّة وآخر لنا أخذ جائزة من ضيافة الانكليز المدفوعة الثّمن سلفا.
٢) أكثر طلّاب المدرسة من أوروبّا: ألمانيا وسويسرا وفرنسا وإيطاليا والنّمسا بخاصّة، ولم يكن فيها سعودي واحد، ثمّ التحق بها إيراني وتونسي وكويتي، ثمّ التحق بها عدد من السّعوديين عرفوها بمعرفتهم بي، فأراد أحد معلّمينا الإنكليز أن يثقّفنا بما يعرفه عن البلاد العربيّة فأنشد ما ظنّه النّشيد الوطني التّونسي: (يا مصطفى يا مصطفى أنا بحبّك يا مصطفى)، وكانت المدرسة حبّيّة كما توقّعت (المجلس البريطاني) بإدارة عجوز صارمة ولكنّها لا تنسى أنّها امرأة فكانت تستأذننا أثناء الدّرس من أجل (أن تضع دروزا على أنفها) فلا نزيدنا ذلك منها إلّا رعبا.
٣) وفي طريق عودتي مرّة من زيارة إلى لندن بالقطار جمعتني المقصورة برجل وزوجته بدا عليهما اللّطف وحسن المعاملة، ولما علما بحكايتي قاما في بيت ضيافة العجوز مع كلّ بر وصوفر الآخرين، وضيّقي بضعف التّدفئة عرّضا باستضافتي في غرفة بمنزلهما تزيد عنه حاجتهما (مع ولد وبنت لهما) وقد تفوح غرفة الضّيافة الأولى دفئا لموقعها فوق فرن المطبخ الذي يوقد بالفحم، وبعد وصولي بورمث وزيارتي منزلهما رأيت قبول ضيافتهما رغم بُعد المنزل عن المدرسة لحداثة بنائه ولإطلالته على حديقة عامّة، ولأنّي

الصيف الوحيد في المنزل إضافة إلى وجود طفليه وهذا يزيد نصيبي من المعاملة والمحادثة والتصرف على الحياة المنزلية في انكلترا، وقد يكون ذلك أنفع لدارس اللغة من المدرسة والدراسة النظرية.

ولأن المنزل الجديد يقع في صف منفرد على طريق تحتل الحديقة صف الثاني لم يستطع أهل سفلتة الطريق وحدهم فبقي ترابياً لأن الأهالي لا الدولة مسئولون عن تمويل السفلتة.

وفي الحديقة العامة خمسة يسكن إحداها عائلة من الغجر وتريد البلدية طردهم منها كما كانه يحدث في شتاء إذا أطال الغجر الإقامة لأنهم متهمون في كل مكان بالإباحية وربما السرقة، وقرأت في الجريدة استفتاء وجهوها للملكة بأنهم دافعوا عن انكلترا في حروبها الأوروبية فلهم حق الإقامة في الحديقة.

وبعد أيام من إقامتي مع هذه العائلة أن الزوج يعمل في مصنع لخزائن المكاتب الحديدية يصدر بضاعته للخارج (ومنه المملكة العربية)، ويقضي وقته فراغ في خدمة كنيسة متطوعاً (ويلقبونه مثله بالأخ).

ولما تنبه إلى حاجتي للاستيقاظ عند الفجر صار يوقظني كل يوم بكأس من الشاي بالحليب والبسكوت، وقابلت إحسانه بالمشاركة أحياناً في غسل أواني الطعام بعد وجبة الغداء، وكانوا يقدرونني مسرفاً في استعمال الماء؛ فطريقتهم اقتصادية أكثر منها نظيفة: يملؤون حوض المطبخ (أو مغسلة أو حوض الحمام) مرة واحدة وينظفون بالصابون الأواني (أو الوجه أو اليدين) ثم لا يجددون الماء (للشطف)، ويمسحون السيارة مسحاً ولا تغسل غسلاً مع كثرة الأمطار والأوحال. وهم في ذلك أقرب إلى الشرع والعقل من قوم يتنافسون على ترف في مخزونهم المياه في صحرائهم، وتيسيرهم إدارة المياه على ذلك بمقياس محاسبتهم؛ فأكثر المدن والقرى بل كل (ما عدى المدن الكبيرة القليلة) تصرف بلا حساب ولا مطالبة بالثمن، وفي المدن الكبيرة يدفع المواطن ثمناً زهيداً لا يردعه عن الإسراف ولا يذكره بالاقتصاد، والنتيجة (إضافة إلى الهدر) أنه يدفع المواطن عشر ريالات لمتر الماء المكعب بينما يدفع آخر ما يصل إلى ثمانية ريالات للمتر، فكل إسرافي وراءه حق مضيع، وكتبت إلى كل مسئول عن المياه بفكرة استقرأ من أخي القائم على بعض مصادر المياه طيلة حياته الوظيفية المديدة: (إعطاء كل مواطن ما يكفيه من الماء لضروراته بلا ثمن ورفع ثمن الماء الإضافي في عشرات الأضعاف، وبذل المال والجهد الفائض لإيصال الماء إلى كل منزل بالثمن نفسه) وأمل أن يحقق الله ذلك ولو بالخصخصة. ويحكيه أنه يقال مثل ذلك أو قريباً منه عن الكهرباء التي كانه ثمنها وثمنها خمسين هللة قبل ثلاثين سنة فصار الآن خمس هللات بعد مضاعفة الرواتب وثبات الأسعار

٤) حلّ شهر رمضان واحتجت إلى معرفة وقتي الفجر والغروب بدقة أكبر، ولم تكن انتشرت خدمات ووسائل تحديد القبلة وأوقات الصلاة والصيام، أما جهة القبلة فأمرها واسع بفضل الله لقول النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم: «ما بين المشرق والمغرب قبلة» ولعل الالتزام بالبوصلة منه لزوم ما لا يلزم ومن التعمق الذي فصلت عنه اختلاف البوصلات نفسها واحتمال خطأ صانعها. وأمر الوقت واسع بفضل الله لما ثبت منه صحة الصلاة به أول وقتها وآخره في حديث جبريل عليه السلام، ولكنه سماء إنكلترا لا تظلم إلا قليلاً لموقعها الشمالي، ولكنه صاحب المنزل يستيقظ الفجر للعمل أو التطوع في الكنيسة خلافاً للمعهود منه تخصيص الأكثرية ليوم الأحد ضحى، ويحكيه الاستعانة بموزع الحليب الذي يقوم بعمله فجراً ولكنه يتسلل بعربته على البطارية لا يُسمع له صوت يوقظ النائمين. وكانه الحل في شرع الله: «أقدر وأله».

٥) وأقبل الصيف، وأجرى صاحب المنزل في إعانتي على البحث عن مسجد لصلاة العيد فاتصل بمكاتب الاستعلامات ولم يجد غير مسجد على بعد أربع ساعات بالقطار (وكانت المساجد وقتها نادرة)، وطاوعته نفسي (سري) وحسبت أنه للبر بنيته وهو أول مسجد بني في إنكلترا، واعتذر القائمون عليه عن قيام الصلاة ذلك اليوم لأنهم لم يستعدوا له فأخروا الصلاة إلى الغد، وهو المثل المصري (بركة اللي جت منك يا جامع)، وكانه الدافع الاجتماع بالمسلمين يوم العيد وحضور دعوتهم لأنه صلاة الفرض لا سبيل للبر بها في مسجد ولا في جماعة.

٦) وجاء الصيف فاخترت الانتقال إلى مدينة في لندن لأحقق رغبتي في شراء سيارة والسياحة بها في أوروبا، فسافرت إلى لندن واشتريت أول سيارة جديدة من وكالة فورد الإنكليزية بثمن زهيد (مقارنة بأسعارها الآن لا يزيد عن بضعة آلاف الريالات) وكانت زجاجتها الخلفية مائلة إلى الداخل (على غير المألوف)، فكانه أحد أول أساتذتي (وغيرهم وأكثرهم ذكاء وفطنة ومهارة) يسميها (الفاخرة) ومر بها يوماً بعد عودتي إلى الرياض فنزل لي عليها بيته أو ثلاثة من الشعر (وهو كأحدنا يتصرف في شعره من بحر بل بحور) ولكنه مجرد ملحة عابرة أولها: (صبحت خيراً صاحب الفاخرة) وآخرها: (هل عندكم لي بعثة شاغرة؟) معرضاً بأخ ملحاح.

٧) بوجود وسيلة الانتقال سكنت مع عائلة إيرلندية في ضاحية (لنت)، وتقع على نهر (٥) كيلاً من المدينة لأتخلص من زحام وصخب ودخان لندن. وكنت خائفاً من قيادة السيارة في لندن لضعف بصري وعنيفتي فطلبت من أحد الإخوة أن يقودها من مصنع شركة فورد إلى خارج لندن كما يفعل بعض الندو وعندما يشتري الدانسوبه أول مرة فيطلب من البائع: (وجّه إلى على المستحيل) ومع أنه الأمير لندنية المضيفة (كاثوليك) وهم أكثر تديناً وتعصباً من البروتستنت

إلّا أنّهم مثل الإيطاليّة في صخبهم ومرحهم وعنفوانهم أشبه بالعرب منه بقيّة الأوروبيّين، ولاحظت أنه الزوج لم يفرح بوجودي ضيفاً عليه، وبعد يومين أو ثلاثة تغيّر تماماً فصار حريصاً على مرافقتي في المنزل وخارجه حتى حاول متابعة سيارتي في الصباح على دراجته الآليّة حتى يفتوه طريقه مدرستي عن طريق عمله، وأخبرني فيما بعد بأنه السبب ملاحظة محبة الأطفال لي وفرحهم بوجودي، وهو يظنّ أنّ محبّة الأطفال دليل على محبّة الله لبراءتهم ونزاهة حكمهم، ولم أخبره بظنّي أنّ الأطفال يحبّون الأقرب إليهم عاطفة وعقلاً (بدليل أنهم إذا بلغوا مرحلة التمييز تحولت محبتهم إلى عدم المبالاة) وأنا كذلك.

٨) واغتنمت عطلة شهر بيه فصليه دراسيّة وطلبت من النادي الملكي للسيارات تخطيط رحلتي بالسيارة حول أوروبا متضمنة المطاعم والزمالة والأحداث ومناطق السياحة، ولما وصلتني الخطط والخرائط توكلت على الله وسافرت وحيداً مع أنّ البلاد والطرق تعجّ بالرّاغبين في النقل المجاني ولكنه (الوحدة خير من جليس السوء) ولذا لم يكن لدي مرافق ثالث فلا خير في (الشيطان الثاني).

٩) عبرت بسيارتي القناة الانكليزية على ظهر عبّارة من عند (صخور دوفر البيضاء) الانكليزية إلى (كاليه) في فرنسا، وبعد جولة على مدن وبلدات أقمت بضعة أيام في باريس أرافق الرحلات السياحيّة المنظمة إلى آثارها ومتاحفها ومعالمها البارزة ثم نزلت جنوباً إلى أسبانيا، أهم مدنها (مثل مدريد وبرشلونة وقرطبة واشبيلية) وبلدها وشواطئها ثم عدت إلى فرنسا لأنتقل منها إلى إيطاليا بطريق الشاطئ الفرنسي (الريفيرا) الفرنسية ثم الإيطاليّة (ولا يجذبني البلد أكثر من شهرتها) بل إني أضيق بالآثار المعماريّة من القلاع والحصون والملاعب ولكني جزء من برنامج السياحي يجد السائح من الغبن ترك زيارته بعد دفع ثمنها، وأوروبا تضيق في الصيف بالسائحين من كل مكان ومن كل جنس.

١٠) أنهي وصلت النمسا وقت الاحتفال بانطلاق موزارت (الذي يقولون أنه بدأ إنتاجه الفنّي في سنّ الخامسة ونضج في سنّ الثالثة عشر) كان من الصعب العثور على غرفة للإقامة. وظننت أني (بصدم الهتافي بالشكل والمحاكاة) وجدت غرفة في فندق كان القائم عليه يعرض على السائحين واحداً بعد واحد فيذهبون للبحث ثم يعودون منه غير راضين بما قلت: أنا آسف، ولكني وجدت حمّاماً وضع فوق حوضه فراشه فصار غرفة بحمّام) خاص، وقنعت بالنوم في السيارة حتى يأتي الله بالفرج مع الصباح.

١١) من النمسا إلى ألمانيا إلى سويسرا، وأجمل ما بقي على الفطرة: الجبال والسهول والأزهار وربما كانت النمسا تتفوق في هذا الأمر، واغتنمت زيارتي لسويسرا لخدمة السيارة بعد أن قطعت ألف كيلومتر حسب تعليمات المصنع لما اشتهر به السويسريون من الدقة في العمل وبعد أن تم فحصها فني (وكالة فورد) وصيانتها دفعت الثمن، وليس من عادتي التدقيق في الحساب

ولا التنبه للخطأ لو فعلت، ولكنه نظري وقع على عدد علب الزيت المطلوب دفعي ثمنها، فوجدت أن تزيد علبتين عما تحتاجه لهذه السيارة، ولم أصدق خطأ التسويسرية ولا أدري أهي خطأ لهم، ولكني عند دفع الفاتورة أشرت إلى مكامن الخطأ أحسن ظني لتأكد منه وفوجئت بتحقق ظني، وأعادوا السيارة ليخلعوا منها علبتي زيت ويخصموا أجرة الخدمة بقدرها.

(١٢) ما عدت بإيطاليا وإلى حد ما فرنسا وإسبانيا (الأقرب إلى العرب) لا تسمح مزمار سيارة يستعمل المارة أو السائقية الأخرى، ولا تسمح شتما بل ولا عتابا، وكنت أوقف سيارتي في مكان غير مناسب لجرحي بالمنطقة فإذا رجعت إليها وجدت ورقة من شرطة المرور تحيي السائح وتدعوه لبطيء الإقامة ومعها غاطة للمنطقة وأماكن الوقوف القريبة.

(١٣) في الدنمرك احتفال بلويس آرمسترونك (ملك الجاز) يغني في بوقه قليلا ويطلق صوته الرجيم كثيرا، ومثل أكثر أهل الفن أحواله الدعاية الإعلامية وبالتالي الشهرة، وقد ذكرت منه قبل أمثلة لذلك، وأزيدها اليوم حكاية عنه بولون سام أمريكي اضطر إلى رهن كل إنتاجه في الرسالة إذ لم يجد من يشتريه بأي ثمن، وقد بيع شيء من إنتاجه في هذا العصر بمائة وأربعين مليون دولار أمريكي، وطريقة رسم لا تشجع على قبوله فهو يغمس فرشة أشبه بالمكنسة في علبة الطلاء ثم يمرر بها فوق اللوحة لتتقاطع خطوطا متقاطعة لا يفهم منها شيء، ويترجم له بأنه كان (يسقط) لا (يرسم)، واشترت امرأة لوحة (يحتمل أنه (تقطع)) بخمسة دولارات وترفضه بيع بملايين دولار بل تطلب (٥٠) مليونا. وقبله حاكم الفرنسي (رافل) على مقطوعة الأوركسترا البيتهوفن (بوليرو) بأربع (٧) دقيقة من الصوت بالآلة، واليوم تعد من أرقى المقطوعات في العالم بعد عشرات السنين من رفضها. وعندما أعلنه أحد الرسامين المغمورين أنه هو الذي رسم لوحة وقمتها (أوكيف) سقطت قيمتها (فالقيمة للاسم لا للفن). ولبيكاسو لوحة (ماتيس) الفرنسي (ولكومه تأثر بما يسمى - زورا - الفن الإسلامي) شراها ونصف في متحف نيويورك للفن الحديث فلم يكتفوا واحد منه (١٥٠,٠٠٠) فنابه وطالب فنه أن يرد مقلوبه.

ولولا زيارتي لحرائه (تيفولي) في (كوبنهاكن) لما عرفت أنه آرمسترونك ملك ولي الجاز، والحمد لله الذي لم يجعلني من رعيته. وربما ورث اللقب من أسلافه الأفارقة؛ كتب أحدهم لصاحب السمو الملكي الأمير أحمد المانع (الماجد الشافعي السعودي بجدة) يطلب وظيفة فاعتذر بعدم الاختصاص، فالأمر لله ثم لرئيس لجنة التعاقد، فكتب الأفريقي لصاحب الجلالة الملك المعظم حمزة عابد تجاوز الله عنهم جميعا. وكتب أهل قرية أفريقية إلى صاحبة السمو هوبي (وفوبي) الممثلة الأمريكية يطلبون منها زيارة أرضهم أسلافها لتشجيع السياحة.

(١٤) وأتممت الرحلة من أقصى الجنوب في إسبانيا إلى أقصى الشمال في السويد والنرويج على غير سنة السائحين (أكثرهم) لا يستهوينني أكثر من مجرد الضرب في الأرض ومراقبة الأحياء، ولم ألوه عنتا أكثر من اختلاف نظام قيادة السيارة بين اليسار في انكلترا (والسويد في ذلك الوقت) واليمين في بقية أوروبا، ولولا

مصابيح السيارة بيه الأصفر أو البرتقالي في فرنسا والأبيض في بقية أوروبا.
ولا تكاد يوجد اهتمام بمراقبة جوازات السفر (في ذلك الوقت قبل الاتحاد الأوربي) غير مرة عند دخول الأجنبي إلى أي بلد أوروبي ومرة عند دخول أي بلد اسكندنافي حتى جاء العرب بجوازاتهم غير الشرعية في سبيل القومية والتراب الوطني فأهلوا قومهم وغيرهم ودينهم محل سوء الظنة والشر والخوف والفساد.

١٥) وبدأت رحلة العودة إلى انكلترا مروراً بهولندا التي تكاد تغطي مياه البحر ووفقاً لنصيحة نشرات السياحة قصدت مطعماً خارج (أمستردام) يوصل إليه طريق معبد وسط مياه البحر، تقدم أكلة أندونيسية لا تجد مثلها في (هاكرتا) طوبها تعرف وقته وإدارة الهولندية أثناء احتلال العسكري السابق. يستعمل هذه الأكلة إيستاغل بتوسط طبقة صغيرة من الرز الأبيض وحولها عشرات من الأطباق الصغيرة من مختلف اللحوم (الأنعام والأسماك والدجاج) ومن غرائبه: الموز المشوي ومطبوخ جوز الهند وعندما يطلب الطاعم تضاف منضدة إلى منضدته لتتسع لأطباقه، وأذكر أنه تمنى لم يتجاوز (٢٤) كراويه. وفي باريس (بخاصة) وبرليه مطاعم لإيرانية وفرنسية تقدم أكلة إيرانية لم أجد مثلها في طهران ولا في الخليج (ذوقاً) ولو كانت مكوناتها لا تزيد على الرز الحار (من حرارة الموقد لا الفلفل) والكباب والزبد بدليل حرارة الرز.
أما أكلة إيطالية الشعبية (المباسطها) وأكلة إسبانيا الشعبية (بايلا) فهي خير منها خارجاً.

١٦) وفي أوروبا عدد من الممالك (كالسويد والنرويج والدنمرك وهولندا وبلجيكا) وعدد من الإمارات الصغيرة جداً (مثل لختنشتاين ومساحته ١٥٧ كيلو مربعاً ويسكنه ثلاثون ألفاً، ومونالكو ومساحته ١٥٠ هكتار ويواطنوها ثلاثة آلاف) ولم يقصر ذلك من قدرها (كما هي الحال عند العرب منذ جمال عبد الناصر تجاوز الله عنه حتى ظنه بعضهم الخالد) ولهم الأكثرية أنه الحكومات إما جمهورية مستقرة أو ملكية مستقرة وصفت بالإمارات ودول الخليج بأنها مشيخات وإمارات وأنها ثائلة بجمال عبد الناصر ثم بالخميني ثم بصدام الذي فنصوا لهم ويقيت بفضل الله خيراً في دينها ودنياها) والملكية والإمارة أقرب إلى الشرع وصحيح اللغة.

١٧) ومن أغرب مناطقه أوروبا وأشهرها: (فينيسيا) الإيطالية إذ تشتمل في طرقها القوارب لا السيارات فهي مفطاة بمياه البحر ولكنها مأمونة بمياه الصنف من المباني كما يتبين من منظرها (أما الرائحة فأحمد الله على فقدانه حاسة الشم منذ الصغر).
وهي مبنية على (١١٨) جزيرة صغيرة من الرمل والتراب ومهددة دائماً بالفيضان.

١٨) وأجمل مناطق حسب تقديري: (كومو) شمال إيطاليا و(لوكانو) جنوبها إذ يجتمع في كل منهما المميزات الطبيعية: السهل والجبل والبحيرة والمناخ الذي يقصده الناس من أوروبا وخارجها في الصيف للاستجمام والاستشفاء، وفي زيارة ثانية بعد ربع قرن وجدت لوحة ترشد إلى مسجد أسس حديثاً نتيجة لكثرة زيارة الأثرياء العرب لهذه المنطقة لمعالجة أمراضه الترف مثل السمنة ونحوه أحوج للاعتقاد والاتباع من المباني،

١٩) وعدت إلى انكلترا هذه المرة عابراً القناة مع باسيكا إلى انكلترا، وعدت إلى (بورمث) في ضيافة مضيفي السابقة وعائلته وأكملت الاثني عشر شهراً التي بقيت لقضائها في دراسة الانكليزية واجتزت امتحانه كيمبرج الأدنى ولم أوفق في اجتياز امتحان (برو فشنسي) وأكبر عقبة لقيتها فيه: ترجمة مقال جميل المدوّر من لبنان لأني عجزت عن فهم بعض كلماته الغريبة.

٢٠) وعزمت على السفر بالسيارة إلى الرياض في أول الشتاء ١٩/١٢/١٩٦١ وطلبت من شركة فورد تركيب مروحة للسيارة فقال ممثلها: بكفاك قربة ماء حارّ، ولو قبلت نصيحته لهلكت والله أعلم لأن الثلوج كانت تتراكم على زجاج السيارة الأمامي فلا تكاد المساحات من الخارج والمدفئة من الداخل إزاحة الجزء الضروري منه لرؤية الطريق.

٢١) رغبت أحد الإخوة السعوديين في مرافقتي فرحّبت به ولكننا لم نكد نتجاوز ألمانيا حتى أبدى رغبته في تأجيل الرحلة بالطائرة إما لاختلاف في اهتماماتنا وإما لاستطالة الطريق، وكان من النادر صبر السعودي على رحلة غير مألوفة مثل هذه، ولكنه مضى على القيام برحلة زميل سعودي في مصر عبر قناة السويس.

وقد استعنت بالله ثم بتقارير وخرائط نادى السيارات الملكي ووطّنت نفسي لغم جهلي وضعفي، وقمنا وأجريت عدة عمليات غير متوقعة فقد كسر ترع مرتين: الثانية عام ١٣٩٣ والثالثة عام ١٣٩٨ هـ. وقد تعلمت قولاً وعملاً أن لذة الراحة إنما تكتمل بعد التعب كما أن لذة الطعام والأمن لا تكتمل إلا بعد الجوع والخوف.

٢٢) في النمسا قررت محاولة العبور إلى تركيا بطريق يوغوسلافيا وبلغاريا (مع أنهما شيوعيتان) ولكن الطريق أيسر من عبور البحر إلى اليونان) فاتجهت إلى طريق الحدود، ولم أتنبه إلى أن الطريق مغطى بالثلوج حتى عجزت السيارة عن صعوده فعدت بها إلى أسفله وأشعلت سلسلة توضع على عجلاتها من عجلات السيارة فلا يعوقها الثلج، (ومناخ أوربا مع وجود الثلج أرفأ من مناخ انكلترا بلا ثلوج أو هذا ما بدا لي).

٢٣) وفي يوغوسلافيا احتجت إلى تبديل عجلة فوقفت على جانب الطريق، ولم ألبث أن نزل من السيارة حتى توقفت خلفي سيارة نزل منها اثنان استغل أحدهما تبديل العجلة واشتغل الآخر بتفتيش

بأنّ القنصل الفرنسي في صربيا، وبأنّه سلك الطّريق نفسه إلى تركيا وحذّرني أنّه (١٥٠) كيلومتر الحدود البلغارية والبلكارية رديئة وهي غير مسفلتة، وتوجد أحيانا خشبة تمرّ على جسور بعضها السيّارات وأحيانا لا توجد، وكأنّه أنّس بالحديث بيننا وربّما أشفق علي منّا أنا مقيم عليه (على جوط بر) فأصرّ على دعوتي للعشاء في مطعم يعرفه ولا أعرفه (جزاه الله برّا).

واصلت السّفر فأدركني الليل بل أوقفني في قرية شعبية مع بداية الطّريق التّرابي اسمها (بيروسي) وقضيت الليل في ضيافة عائلة أقربها إلى البداوة. والسّبب في إهمال الطّريق إلى الحدود أنّه سوفيتي (تيتو) تمرّد خارجة عن الشّيوعيّة العالمية التي تلتزم برأي (بلكاريا)، والخروج عن الفكر البشري ليس كالخروج على الوحي.

وفي الصّباح ركبت الطّريق التّرابي ووجدت الخشبة على المجرى فأعانني الله برّا على عبوره.

وكانه الطّريق إلى صوفيا وزكريب البلكارية مقطّعة تماما بالثّلوج ودوريه محاولة لتمهيدها أو إزالة الثّلج (مثلما يفعل الأوربيون) ولكنّه الله أعانني عليها دوريه حول مني ولا قوة، ولم أكد أعرف حدود الطّريق لانّ بلوحات الإعلانات والمرور.

وفي (صوفيا وزكريب) أيت النّساء ينظّفن المباديه والطّريق الكبيرة من الثّلج ويوجّهن حركة المرور، وفي القرى القريبة منه الحدود التركية كانه بعضه الحارّة يحيّيني بالإشارة ويشير إلى نفسه بأنه مسلم لما تبيّنه من لوحة السيارة أني مسافر إلى الشرق المسلم.

ولمّا عبرت الحدود التّركيّة في (إدرنه) رأيت مآذنه وقبب المساجد، وكانت آثار الثّلج قد انقطعت إلّا قليلا، فأزلت السّلاسل عن العجلات حتى لا تعوّقني في السّير على الأسفلت، وفي انتظار إنهاء إجراءات الدّخول جلست في سيارة لميراني رافقني بعضه الطّريق ولمّا انطلقوا إلى داخل تركيا ظهر أني نسيت مفاتيح سيارتي على مقعد سيارته فأشرت أحدهم إلى فصل الأسلاك عن قفل التّشغيل والاستغناء عنه حتى يمكنه تبديله.

٥) وفي الطّريق اللزجة من أثر الثّلج والرّطوبة حاولت تجاوز سيارة عسكرية فاضطرت إلى زيادة السّرعة ولمّا عدت إلى يمين الطّريق فقدت السّيطرة على السيارة فانزلقت خارج الطّريق ولبثت بفضل الله تجاوزت محاولة بعيدة القرار ولمّا كانت المنطقة عسكرية خرج من السيارة العسكرية على إعادة سيارتي

إلى الطريق وشجعوني على متابعة سفري إلى (استانبول) على بُعد (٤٠) كيلاً،
فمشيت برهة على موجٍ هيّن وقفت على شركة فورد وتركتها على وعد باصطحاب
بعد يومين أو ثلاثة ولما جئت على الموعد أخبرني المسؤول عنها صباحاً أنه لا يوجد لدي
غيار لما اشتريته منذ فاكتفوا بتبديل حتى أتمكن من تبديله في السعودية، والأتراك من
خبرتهم جربت في العالم إصلاحاً لفساد السيارات فلم أحتج لتبديل الموجّ منذ أبداً.
وقد عثرت عليه بعد أكثر من خمس وثلاثين سنة في سوريا لم يتغير لونه ولا شكله،
فالسوريون أقرب الناس إلى جيرانهم الأتراك في الإصلاح والمحافظة على السيارات.
ولكنهم جميعاً متماثلون في حب الدين عاطفةً وحب الابتداع والبعد عن الاتباع، فالأكثرون
أشاعرة في الاعتقاد متعصبون في التقليد (وخاصة للمذهب الحنفي) صوفية الطريقة
(وخاصة النقشبندية). ويروون من كرامات بهاء الدين نقشبند أنه نذر أنه يقف في مواجهة
الكعبة أربعين يوماً على قدم واحدة، وفي اليوم التاسع والثلاثين من محاولته الوفاء بنذره
رأى كلباً أجرب يدخل المسجد الحرام ويسعى حيلته بالكعبة فيذهب جربه كما لم يكن،
فوضع الزاء قدم الثانية على الأرض وقال: يا رب وقفت تسعة وثلاثين يوماً فلم
تستجب لي وهذا الكلب استجبت له في لحظة واحدة، فنودي من فوقه: لو أكملت
نذرك أربعين يوماً لكنت تردّ القضاء، ولأن لم تكمل فستردّ البلاء وجهه.
وكان الدولار يصرف بضعة عشر ليرة تركية وبعد (٤٠) سنة صار يصرف بأكثر من مليون
ليرة بغم قوة الزراعة والصناعة وبغم العلمانية وبغم عضوية حلف الأطلنطي.
٢٦) دخلت سوريا من (باب الهوى) أعاذنا الله من الهوى، وفي دمشق مُنعت
من السفر على طريق يبلغ (٥٠) كيلاً دون تحديد ولا تصيد ودون خدمات على الطريق
متقاربة (بلا خرائط ولا تقارير ولا وصف للطريق فقد انقطعت بالوصول إلى سوريا)
فرافقني سعودي يزوره من مرافقة أصحاب السيارات بين دمشق والرياض.
والحمد لله على حفظه لعبده في السفر والإقامة.

إلى الطريق وشجعوني على متابعة سفري إلى (استانبول) على بعد (٤٠) كيل، فمشيت برا على الموج حتى وقفت على شركة (فورد) وتركته على وعد باصلاحه بعد يومين أو ثلاثة ولما جئت على الموعد أخبرني المسئول عنه اصلاحه أنه لا يوجد له غيار لما الموج منذ فاكتفوا بتبديل حتى أتمكن من تبديله في السعودية، والأتراك من خبرتهم جربت في العالم إصلاحا لفساد السيارات فلم أحتج لتبديل الموج منذ أبدا. وقد عشرت على بعد أكثر من خمس وثلاثين سنة في سوريا لم يتغير لونه ولا شكله، فالسوريون أقرب الناس إلى جيراننا الأتراك في الإصلاح والمحافظة على السيارات. ولكنهم جميعا متمائلون في حسن الديانة عاطفة وحسن الابتداع والبعد عن الاتباع، فالأكثرون أشاعرة في الاعتقاد متعصبون في التقليد (وبخاصة للمذهب الحنفي) صوفية الطريقة (وبخاصة النقشبندية). ويروون من كرامات بناء الديانة نقشبند أنه نذر أنه يقف في مواجهة الكعبة أربعين يوما على قدم واحدة، وفي اليوم التاسع والثلاثين من محاولة الوفاء بنذره رأى كلبا أجرب يدخل المسجد الحرام ويمسح جلده بالكعبة فيذهب جربه كأن لم يكن، فوضع البناء قدمه الثانية على الأرض وقال: يا رب وقفت تسعة وثلاثين يوما فلم تستجب لي وهذا الكلب استجبت له في لحظة واحدة، فنودي من فوقه: لو أكملت نذرك أربعين يوما لكنت ترد القضاء، ولو لم تكمل فستردد البلاء وحده.

وكان الدولار يصرف ببضعة عشر ليرة تركية وبعد (٤٠) سنة صار يصرف بأكثر من مليون ليرة نعم قوة التراخي والصناعة ونعم العلمانية ونعم عضوية حلف الأطلنطي.

٦) دخلت سوريا من (باب الهوى) أعاذنا الله من الهوى، وفي دمشق عدت من السفر على طريق يبلغ (١٥٠) كيل دون تمهيد ولا تعبيد ودون خدمات على الطريق متقاربة (بلا ضرائط ولا تقارير ولا وصف للطريق فقد انقطعت عنه بالوصول إلى سوريا) فرافقني سوري يزوره من مرافقة أصحاب السيارات بيته دمشق والرياض. والحمد لله على حفظه لعبده في السفر والإقامة.

حـ - وأوفدتني وزارة المعارف على منحة لمعهد الإدارة العامة بالرياض للاشتراك في دورة للإدارة العامة في جامعة بتسبرك (بنسلفينيا) / الولايات المتحدة الأمريكية في خريف ١٩٦٨، وتنافس علي معي أستاذي في الإنكليزية عبد الله أبو السعيد رحمه الله (قبل ١٠ سنين) وغلبت برا بفارق السنة، ولم يكن لي منافس غيره في وزارة المعارف الحميزة بالمنحة. ومع أني لم أطمع ولم أتمن الاشتراك في هذه الدورة بل ولم أتحمس من اشتراكي في الرأي أنه من لم يوفقه الله للإدارة خلقا وموهبة فلا يستفيد منها، وأنه من أقبل إذا فاته يحتاج البرا، وخيرة المتخرجين إداريا ممن عرفت (مثل د. عبد الله الوهيبي وناصر المنقور ومحمد الفريح ود. عبد الله العركي ود. عبد الله السريع) لم يدرسوا الإدارة العامة؛ مع ذلك فقد رغبت بالمنحة لمجرد السفر والتعرف على بلاد وأناس وثقافة وحضارة جديدة - منعزة - ومن

جهة أخرى للتخلص بضعة أشهر من معاناة البروتوكول الإداري الذي لم أخلق له.
واستعنت بالله وركبت الطائرة إلى نيويورك مروراً بأمستردام ثم إلى بتسبرك، ولم توجد في ذلك الوقت رحلات مباشرة دوبه توقف من البلاد العربية ولا رحلات للخطوط السعودية إلى نيويورك فضلاً عن المدن الأمريكية الأصغر.

١) منذ عرفت القاهرة ظننت أنها الأكبر طرقاً وبنايات ومتاجر ومتنزهات فلما أيت نيويورك استصغرت (أم الدنيا) وما عرفته من أصل الله بعدها، تصعد إلى أعلى بناية (امبير ستيت) أعلى بناء في العالم (ذلك الوقت) فترى الناس بل السيارات تحتك مثل النمل، وتصعد إلى أعلى تمثال الحرية فتتمنى أنك لم تصعد لضيق الدرج وعدده ولكنه لا سبيل للنزول حتى ينزجي مدى الصعود فتطل من فتحات التاج على رأس التمثال، وترى البحر وشبه الجزيرة التي رصت عليها المباني الشاهقة التي يسميها العرب: (ناطحات السحاب) ويسميها أهلها: (لامسات السماء) ولا تجد لها مثيلاً في العالم منذ بدأ التطاول في بنيانها في أول القرن العشرين بعد أن ابتكرت شركة (أوتس) المصعد الكهربائي حتى بدأت حواضر أوربا تتم آسيا الاقتداء بها في ربع القرن الأخير، وترى النهر وحديقة (سنترال بارك) والجسور تهيئ للنيويوركيين متنفساً ومتنزهاً لا تعوقه الغابة الاسمنتية الحديدية. وقد تتميز مناطق الأغنياء (مثل بارك أفنيو وفيفث أفنيو) من مناطق الفقراء (مثل هارلم) ومناطق الطبقة الأمريكية المتوسطة (مثل كوينز) من مناطق الأقليات (مثل برونكس) ومنطقة المسارح والسينمات (تايمز سكوير) في الوسط من منطقة الضنك البوهيمي (كرينتش فيلج) في الطرف.

٢) ومع شدة البرد في شتاء نيويورك فإنه حر صيفاً شديد، ولقد تحسن بالاختناء من الحر والرطوبة وارتفاع السيارات فلا تجد بداً من الهرب إلى الفندق أو المسرح أو السينما المكيفة صناعياً.

وأثناء وجودي مرة في طريقي إلى الهرب من الجو الطبيعي كنت قريباً من (مركز روكفلر) فوجدت لافتة إشارة إلى برنامج تلفزيوني مشهور (تونايت شو/جوني كارسون) فاشتريت تذكرة لدخوله والتمرد فيه والتسلية، وكانت الأولى والأخيرة لأني لا أهتم بالبحث عنه ويندر أن أعثر فيه كهذه المرة.

جاء مقدم البرنامج واستعرض عدداً من الرجال والنساء الذين كسبوا الشهرة في أمر من الأمور، ويقابل المتفرجين لوحات إرشادية تتبدل حسب الحاجة تأمرهم بالضحك فيضحكون أو بالتصفير فيصفقون، فهو على اسم (تمثيل) ولكنه مشاهد البرنامج في التلفزيون لا يرى الآلية الحية والمصنوعة، والأغرب من ذلك أن في هذا الوقت للدعاية التجارية التي تمول البرنامج يختفي فجأة الابتسام والتصفيق، ويلبس مقدم البرنامج ومعاونوه وضيوفه وجوهاً أخرى غير الأولى.

٢) وصلت شيكاغو في آخر أيام الصيف وأول أيام الخريف، ولكنة الثلوج لم تنتظر الشتاء فبدأ نزولها قبيل انتهاء الخريف. ولأني لم أتوقع نزول الثلج ولم أستعد له ولبست ألبس هذاء جلدياً لا يصلح له، فقد انزلقت عدة مرات وخشيت أنه أحدث ضمة بمشي على بطنه (أو وجهه أو ظهره) ووصيه في ذهني سؤال لم أجد له جواباً: كيف أستطيع الاستمرار في بعثتي؟ ولحت محل أحذية فوجهت على أمل ضعيف وللبني وجدتهم قد أعدوا المثل لهذه المحنة غلافاً مطاطياً خفيفاً يوضع فوق الحذاء (وأسفله) فلا ينزلق. وكان ذلك كل ما أحتاج إليه لأستطيع التنقل بين الجامعة والفندق القريب، وفي الجامعة التنقل بين صفوف الدراسة وبين مطعم الجامعة، وفي المطعم يأكل الإنجليزي مجاناً تشجيعاً لهم ليتقوا شراناً في الأجسام وشراناً في العقول، فهم مثل أبطال الرياضة لا يستعملون رءوسهم إلا للمناطحة، ومع ذلك يحصلون من المال والجاه أكثر مما يستحق عقلهم في الدنيا أو الدنيا أضعافاً مضاعفة. ويدفع الطالب مثلي دولاراً واحداً تذكرة دخول للمطعم فيأكل ويشرب ما يشاء من نعم الله.
وتيسرت لي الجامعة الإقامة في الفندق المجاور لها والمتعاون معها بثلاثة دولارات في اليوم (مقارنة بسعره العادي ٥ دولارات).
وواصلت تلقي التوجيهات الإدارية نصف سنة دراسية ولكني لاحظت أني رجعت منها بشيء، وقد تكون الإضافات الترفيهية أكثر فائدة لي:
٤) يضع كثير من الناس أسماءهم لدى الجامعة رغبة في استضافة طلابها الغرباء أيام الأعياد والإجازات العامة، وقبلت ضيافة عائلة أو اثنتين لئلا تصرف على حياة العائلة الأمريكية مباشرة فأقضي أيام الإجازات فيما يضيف إضافة إلى التسلية على حساب العائلة الراغبة في الإحسان. وكانت العائلة تستعد لذلك باستعارة كتاب أو أكثر من المكتبة العامة يتضمن معلومات وصوراً عن بلد الضيف قبل وصوله إليها ومشاركتها حيازتها، ويجعلون ذلك في غرفة لاستعمال الغرفة الأخرى لإقامة الضيف، أما الطعام فرهن بزيادة عن حاجة الضيف والمضيف.
٥) دعتني منظمة الشابات المسيحيات مع اثنتين أو ثلاثة من الزملاء إلى قضاء يوم وليلة للمشاركة في نشاطها الاجتماعي والترفيهي وأفضل الترفيه في وقت نزول الثلج: الانزلاق بالزحافات على الثلوج، وهذه المنظمة بقسميها المنفصلين للذكور والإناث (YMCA و YWCA) منتشرة في كل مكان ويستفيد منها بعض خدماتها (مثل النزل الرخيصة الأجرة) بصرف النظر عن الديانة (التزام أو الدعوة إليها) من يرغب الاستفادة منها.
٦) استضافت المشرفة على الدورة (OBERN) جميع المشتركين فيها إلى حفلة

سواء في منزله ليلاً فظهرت لنا ميزة أمريكية عامة على العرب والعجم (غير تسابقه الأمريكية على استضافة الأجانب، وغير توظيف قسم لشؤون الطلاب في الجامعة لإعانة الغريب على مواجهة مشكلات دراسته وإقامته في بلد الغربة) ألا وهي: تعاطف المشرف على التعليم أو التدريس (شخصياً) مع من يوكل إليه أمرهم، مع أن الجامعة تجارية فلم يكتفِ بحسن أداء وظيفته التعليمية بل أضاف من ماله ووقته وجهده وجزء من منزله حسنة أداء إنساني لمشاركة نعمة الله عليه مع غيره، وظهر البذخ الأمريكي في حجم موقد الشواء وأسياخه كالسيوف، وحجم وكثرة قطع اللحم البقري ليأخذ منه المشاركون على كثرتهم مل بطونهم.

وربما رغب في مكافأتي وزميلة برازيلية على تميزنا بالشكر لله ثم لعباده على ما أعطيناه فتنازل لنا عن تذكرتيه لحضور عرض السيرك الروسي الذي زار بتسبرك شتاء عام ٦٣-١٩٦٤، وإضافة خبرة جديدة لم نصرف من قبل.

٧) وفي منتصف زمن الدورة حدث في أمريكا ما لم يحدث فيما منذ (نشأتها) أي: قتل زعيم بارز، فقتل الرئيس الأمريكي (كينيدي) في السنة الثالثة من ولايته، ومن النادر أن يحصل رئيس أمريكي على مثل ما حصل عليه (كينيدي) من الشهرة والتقدير لنبوغه وعبقريته وثقافته من جهة، وللثروة في عائلته والجاه والشباب من جهة أخرى، ولا يزال كثير من الأمريكيين الذين تجاوزوا الخمسين سنة يتذاكرون الحدث واللحظة التي وقع فيها، ولا تزال الإشاعات والتأكيدات والتحليلات تحاك حول موته ويكتب عنه الكتب وتمثل الأفلام والسينمائية، ويعد الكثيرون حادث قتله من أعظم الحوادث في تاريخ أمريكا، وتابعنا جميعاً أخبار وصور الحدث وأشخاصه: حياة كينيدي وزوجته وأولاده وحياة المتهم بقتله وزوجته الروسية ثم حادث قتل المتهم بقتله، وكانت أياماً عصيبة من تاريخ أمريكا قدر الله لي أن أعيشها عن كثب وأتابع أحداثها من داخل أمريكا، وهي أحداث عسيرة على الأمريكيين، ولكن الله قد يسر لي بعد ذلك ببضع سنوات أن أشرحها شرحاً يسيراً عليهم كما شرح (كينيدي) من قبل ما عليه الإعداد له: (النزول الأمريكي على القمر والعودة إلى الأرض بسلام)، وأنا أعيشها أياماً بل بضع سنة مهمة جداً في تاريخ أمريكا: (حركة الشباب للتمرد والتذمر وخروجهم على التقاليد واحتجاجهم على حرب فيتنام وقسرهم السياسيين والعسكريين على الانسحاب المريب).

٨) وبعد أربعة أشهر ونصف من استعراضه الفكر والتنظيم الإداري الحديث ومعاناة الحياة الأمريكية آن لي أن أعود إلى المملكة المباركة واخترت أن أعود من طريق آخر لأتم الدورة حول الأرض، فركبت الطائرة من (بتسبرك) في ولاية (بنسلفينيا) إلى (شيكاغو) في ولاية (إلينوي) في جو عاصف وبعد بلغت الطائرة ارتفاعها المقرر بدأ المضيفون تقديم طعام العشاء، وفجأة

استولت على الطائرة رجفات عنيفة كالذي يتخبطه الشيطان من المس، تسمع صوت صرير الأبنية وكأنها تتمزق، فأضيئت إشارات ربط الأحزمة وعاد المضيفون على عجل إلى مقاعدهم وأحزمتهم. وإذ أذكركم مرة قرأت آية الكرسي والمعوذتين ودعوت الله أن يؤخر موتي حتى أزفه في أرض البركة والقداسة أرض الدعوة إلى التوحيد والسنة على منهاج النبوة. وبعد مرور وقت كأنه الدهر أسكتته الله الريح ووصلنا إلى مطار شيكاكو (وشهدنا معهم أزمة مدينة الرياض) وعند قائد الطائرة عمه (رحلة سيئة لم يمر عليه مثلها) ودعوت الله بالهداية وألا يمر عليه مثل هذه الرحلة وأنا معه. وعند باب الطائرة وقف مسئول شركة الطيران يعتذر ويقوص عن العشاء الذي حالت دونه العاصفة ببطاقة تتيح للراكب الأكل في مطعم المطار بما لا يزيد عنه (١٥) دولاراً، فقبل الجميع عذره وبطاقته وتسابقوا إلى المطعم ليأمنوا من جوع بعد أن آمنهم الله من خوف في هذه الليلة الليلاء.

(٨) وشيكاكو من أسوأ المدن الأمريكية مناخاً وأمناً وأكثرها تلوثاً واجراماً، ومنه أوكرا أشتهر بعصاباته كبار السن ثم بعصاباته صغار السود، وله أعمدة البرد الأمر مرور أو لسبب مجرم غير الاستمتاع بما (بلاها الله به).

(٩) وركبت الطائرة إلى (سانه فرانسسكو) في ولاية (كاليفورنيا) وهي خير مقاماً وأحسن نديّاً بموقعها الجغرافي الجميل على المحيط الهادي وباستضافتها لجامعة كاليفورنيا - بيركلي ومحيطها الثقافي، وبكيفي مثلي الركوب في عربة الترام (سكة الحديد المحلية) لتطوف به في شوارعها فلا ينزل منها حتى يلزمه النزول لدافع من نفسه أو دافع من الشركة، لمثل أحد الطلاب السعوديين في القاهرة قبل نصف قرن وصف المسئولون عنه الابتعاث ضمّ للبعثة فأجاز زملاؤه بشراء تذكرة تخوله الركوب في بعض الحافلات طرفي النهار وزلفاً من الليل، فكانت تسليته وسيلة سياحة ومكان مذاكرة ودروس، ومطعمه مما يقتضيه الساعة على الركاب من الطعام الخفيف، وإذا رأى أحد معارفه سوغ ذلك بضرورة: (نبي ناخذ خوه فلوسنا). (رواه د. الخويطر)

(١٠) ومن (سانه فرانسسكو) ركبت الطائرة إلى (هنولولو) في ولاية (هاواي) وهي الولاية المنعزلة عن بقية الولايات المتحدة الأمريكية يفصل بينها بضع مئات من الكيلومترات فوق المحيط الهادي؛ فأنستني الشتاء والثلوج والتلوث في (بتسبرك) و(شيكاكو) و(نيويورك). هنالك لا تكاد ترى إلا البحر والرياضيات البحرية والأشجار والنباتات الاستوائية والرقصات البولينيزية، وكأنما خصصت الولاية متنزهاً لبقية الولايات الأمريكية يستريح فيها الأمريكيون ويستشفون ويقضون ويشربون ماء جوز الهند. وكأنما اختصت بفصليه من فصول السنة: الربيع والصيف.

(١) ومن (هونولو) ركبت طائرة يابانية أوصلتني بعد أكثر من تسع ساعات إلى (طوكيو) عاصمة الإمبراطورية اليابانية، وكنت أسمع باليابان في طفولتي زمن الحرب العالمية الثانية كتميز منتجاتها بالرداءة في مقابل المنتجات الألمانية الجيدة فيقال: (عرقلي أصلي) و(جابانى كامتي أو تكليني)، وحالفت اليابان ألمانيا في حربها الخاسرة فجلبت كل منهما الدمار على بلادها وشعبها وسوء السمعة في معاملة البلاد التي احتلتها (والأخرى الذبح وقصوا في بيدها بخاصة).

واحتلت كل منهما بعد تدميرها، ولعل الخير في ذلك لهما ولغيرهما فقد انصرفتا عن الحرب والاحتيال إلى الإنتاج الصناعي التجاري فحققتا بالسلم ما لم تحققاه بالحرب. وقد يظن ظانٌّ أنه تفوق اليابان بعد الحرب في الصناعة التجارية واستمرار ألمانيا في تفوقها الصناعي التجاري مردّه إلى منهاج تعليمي أو تربوي أحدثت منه مناهج الأمم الأخرى، ولو ركب الظانون هذا مركب البحث الواقعي عوضاً عن الظن الخيالي لوجدوا أن المنهاج التعليمي والتربوي لم يتغير في أي منهما تغيراً يذكر، وثقافة اليابان (بخاصة) وتقاليدها وقيمها بالغة التعقيد لا يسرع الإنفلات منها، ولكن اليابانيين (مثل الألمان والسويسريين مثلاً) يميزهم الجد والمثابرة واحترام العمل إلى حد أن الياباني بعد تقاعده يفرش على المؤسسة أو مزرعها في فناء منزله ويأخذ على نفسه تحيته كل صباح، ويتطوع بالقيام بعمل عام يشغله ولو مدة أعمال النظافة في الشوارع. غارق بالعرق الذي يكفر ولا يشكر، مصدر خيره من الله. وللرجال في اليابان على النساء درجة (بل درجات)، لأن العمل في الخارج وأعلى العمل في المنزل وتهيئته لسكنى الزوج والأولاد. يعود الزوج بعد انتهاء عمله (وبعد تسليته الخارجية) فيدخل منزله وتستقبل زوجه تخلع عنه حذاءه الخروج وتلبسه حذاء المنزل، ويدخل الحمام الذي أعدته له، وتنصرف لإعداد الطعام ويخرج من الحمام) ويجلس إلى المائدة، فتستعمل فضلته من ماء الاستحمام ثم تأكل فضلته من الطعام، وإذا كان في المنزل أكثر من رجل وامرأة فإنه كالعادة الجنسية يغتسل عارياً مع جنسه بحجة أن الضرير لا يرى في الحمام، وقد حاول المحتلون الأمريكيون منع هذا التقليد في المسابح العامة فأصدروا قانوناً يحرم على الذكور والإناث السباحة عراة في مسبح واحد، ولكن اليابانيين جمعوا بين خلقهم الذي تعودوا عليه وبين العمل بالقانون الجديد فخصصوا بين الجنسين يتبدل.

وكأن ابن آدم مجبول على النقائض، وقد يستدل على تناقضه بقول الله تعالى: ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ والمقصود بغير الله، ابن آدم، كما يتضح من السياق، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: «كل ابن آدم خطاء»؛ فمع ما ظهر من عزم اليابانيين وتفانيهم وذكائهم ودأبهم على العمل ولنتائجهم قبل الحرب وبعدها فإنه أكثرهم وثنيون أو ملحدون؛ يدخل أحدهم منزل الضرير فيرى

إلى صنمه (تمثال طير أو غير ذلك) ويقف أمامه بخشوع ويصفق بيديه ليوقظه من سباته ثم يدعوه من دون الله (ناسياً ثقافته ولم يجازه وتفوقه الصناعي التجاري). وليس اليابانيون قروناً لم يروه أمراطورهم ولا يسمعون صوته ويعد وظيفة مرتبطة بالربوبية حتى أعلنه (هيروهيتو) عام ١٩٤٥ استسلام اليابان ونبذها بنفسه أشهر (في اليوم الأول من عام ١٩٤٦) أعلنه فك ارتباطه الربوبي، ثم زار التقارب مع عامة الناس فأذن بزواج ولي عهده منهم. ركبت سيارة أجرة من المطار إلى فندقه في طوكيو فرأيت ما لم أره في أوربا ولا أمريكا ولا غيرها: السائق يعامل الراكب باحترام بالغ ويلبس بزة نظيفة وقفازات بيضاء، وتكسى المقاعد غطاءً أبيضاء لنظافة فيها الدنس فتغير فوراً، ولا احتمال للغش في اختيار الطريق أو حساب المسافة والأجرة كما يتوقع من سائق سيارة الأجرة في أكثر بلاد العالم (العرب بخاصة) أما بندر مكة والطائف فلعله تستطيع حملهم على تغيير لون السيارة وأرقام لوحاتها وفعل النظام ما يشاء. وتهرل أضواء الإعلانات والمحلات التجارية وكثرة الناس وسرعة حركتهم (خصوصاً إلى وسائل النقل وخروجاً منها بخاصة).

وقد تختار غرفة في الفندق أعدت لتذكرك بأسلوب الحياة في المنزل الياباني الشعبي، وقد تختار تناول أكلة في مطعم شعبي يعود بك إلى الماضي أثاثاً وطعاماً. وتشترك في رحلة سياحية تمر بك على شيء من كل شيء، وتنتهي بضيافة (الكيشا) حيث ترى كيف تسخر المرأة لخدمة الرجل وتسليته بالطعام والشراب والسماع، وكيف تبالغ في احترامه إلى درجة تشبه العبادة، فإذا أردت تقديم خدمة له فهي تزحف أكثر مما تمشي، أما الإنحناء وغصة الصوت وتغطية الفم عند الضحك فحدث ولا حرج.

وكان صرف الدولار الأمريكي ذلك الوقت (٣٦٠ ين) ثم تناقص على مر السنين حتى نزل عنه (١٠٠ ين). ثم أصاب الاقتصاد الياباني ما أصاب غيره لأنه لكل شيء إذا ما تم نقصان، ولأن اليابانيين مالوا إلى الترف وباعوا ممتازاتهم وانجازاتهم وعملوا في التجارة إلى دول ناشئة الاقتصاد والصناعة والتجارة (مثل ماليزيا والصين) كما فعل بهم الأمريكيون من قبل، والترف آفة الفرد والأمة وسبب للخسارة. وأكثر طعام اليابانيين الرز (من إنتاجهم) يأكلونه فطوراً وغداءً وعشاء، ومعه (يشلونه) السمك، وربما صنعوا الأواني الحافظة لتيسير الحصول عليه وقت الحاجة (أي في كل وقت) فلم أرها في أي مكان قبل اليابان عام ١٩٦٤.

٢) ومن (طوكيو) سافرت إلى (بانكوك) عاصمة (تايلند) ولم أر فيها عربياً واحداً فلم يأسرني بأعجوبة (السياحة) العرب بعد، بل لا يكاد يعرفها من العرب (السعودية بخاصة) غير تجار الرز ونحوه من منتجاتها.

ومرت بمسجدها فلفت انتباهي وجود طبل كبير في زاوية من فنائه وعرفت أنه تستعان به في دعوة المسلمين إلى الصلاة (العيد بخاصة) والتاريخ يذكر لي (فيما أظن لي) سمعي صوت الطبل أكثر من غيره فتوقفت بمجرد الإشارة فيتوقف وتسأله عن شيء أو مكان فلا يكتفي بالإشارة أو لفظاً بل يأخذك حتى يوقفك عليه وكأنما خرج من منزله ليكون في خدمتك، وقد تدعوه إلى طعام أو شراب فيلبي دعوتك ثم لا يتركك حتى تتركه؛ يسرك في تعامله الارتباط به والانفكاك منه.

و(باتكول) في جنوب شرقي آسيا الخ) مثل (بيروت) في البلاد العربية صارت محطة ثابتة في كل سفر يمر قريباً منها تشكله البر انفسي بعد أن تضطرب من صخب الحياة في العواصم الأخرى لجمالها وهدوئها وأمنها.

(٢) ومرت بي رحلة العودة على (هونك كونك) وكانت تشرف عليها انكلترا ثم عادت إلى الأرض الأم (الصين) بعد زيارتي الأولى لها بأكثر من ثلاثين سنة واختارت الصين الموافقة على أن تبقى على نظام الاقتصادي الرأسمالي وأساسه: حرية التجارة التي جعلت منها قوة اقتصادية صناعية تجارية بامتياز.

رأيت في (هونك كونك) لأول مرة: النساء يعملن في البناء حاملات الطوب والحجارة في السلال الأم (الصين الشيوعية).

ورأيت في (هونك كونك) لأول مرة: التركشا، وهي كرسي تجلس فيه فيجره صاحبه بيديه إلى أحيي مكان تريده، ثم رأيتها في (سنغافورة) تجرها دراجة هوائية، وهي في الحالين أكثر هدوءاً وأقل كلفة منها في شبه القارة الهندية إذ تجرها دراجة آلية تزحم التراكتر والماشي بصوت الصاخب، ولما عدت مرة على تركشا تجرها الدراجة الهوائية في (الكنو) دعوت معالي الشيخ الأديب المؤرخ اللغوي محمد الصبوري لأتمتع برؤية المركوب وطيب حديث التراكب، ولم يرد طلبي (على غرابته) لعادة السماحة والأريحية والكرم بنفسه وماله.

(٤) وفي (دلهي) العاصمة الهندية لا يخفى على الزائر الغريب ولا المقيم ما يراه من آثار الحضارة الهندية، وهي من أبرز الحضارات وأقدمها وأكثرها تأثيراً على الحضارة اليونانية (وهي مثلها وثنية) بل على اليهود والنصارى والمنتمين إلى الإسلام فيما أدخل على السنة من بدع التصوف فيما يسمى السلوك بل في الاعتقاد (وأعظم ذلك: وحدة الوجود والاتحاد بالخالق والحلول وأدناه هو الجسم أو الرأس عند الذكر، وإحصاء الذكر بمسبحة الخرز).

ورأيت لأول مرة بمصر مظاهر التصوف الهندي التي اقتبسها متصوفة المسلمين مثل: (الضرب بالشيش) الذي اقتبسه متصوفوا الطريقة الرفاعية والنوم على المسامير ومختلف مظاهر الزهد والخرافات التي لم يشرعها الله في أي دين

ورأيت في (أكرا) أثراً بارزاً مشهوراً من صنع المنتمين للإسلام خلافاً للشرع الله: (تاج محل)، بناه الحاكم المغولي (شاه جهان) قبل (٢٧٠) سنة ضريحاً لزوجته (ممتاز محل) على نهر (جمنا) على هيئة مسجد بأربع مآذنه وقبة كبيرة وقبتان صغيرتان، وفيه معلم وقد ابتلي المسلمون منذ الفاطميين ببناء المساجد على القبور مخالفة لآخر وأكد وصايا النبي صلى الله عليه وسلم عند موته، ولم يغير هذا المنكر بدولة من دول المسلمين قبل (ولا بعد) السعودية في القرون الثلاثة الأخيرة، وابتلي المسلمون بمادون ذلك من متابعة العمارة الكنسية البيزنطية في القباب والأقواس وتعدد المآذن منذ الدولة الأموية حتى سماها الناس جهلاً: عمارة إسلامية، ولا يجوز أن ينسب إلى الإسلام ما لم ينزل به الوحي في الكتاب أو السنة بفهم سلف الأمة. أما مخالفة النبي صلى الله عليه وسلم بالبناء على القبور فهذا يكاد يسلم منها في بلاد المسلمين غير السعودية لالتزام الدولة بشرع الله شرح الله عليه. وبعد زيارة هذا الأثر الذي يعجب المسلم ويحير المسلم ويغيظه أكثر المسلمين لجهلهم بدين الإسلام، ركبت طائرة إلى بلاد التوحيد والسنة بطريقه بيروت متأكراً الله على فضله وتفضيله.

ط - في عام ١٣٨٥ أوفدتني وزارة المعارف في بعثة لاختبار مدرسي اللغة الإنكليزية في المدارس الثانوية مع عدد من زملائي في الوزارة. واستأجرت منزلاً في (كولدر كريك) من أفيز ضواحي (لندن) بمبلغ (١٤) جنيهاً في الأسبوع، وهي أول جملة تصحبني فيها زوجتي وابني الأول إذ كنت تزوجت قبل سنتين، ولما كنا في انتظار المولود الثاني تقرر (رسمياً) خفض سعر الحليب الذي كان يضعه موزع الحليب كل صباح على عتبة الباب، ولما ذكرت للمسئول الصحي أننا في غنى عن التخفيض بينت له أن التخفيض إلزامي للغني والفقير لمصلحة الأم والولد ولمصلحة العائلة والأمة عامة بعد ذلك.

وكنا نغبط إنكلترا وأمريكا على وفرة الحليب في الأسواق وهذه لا يتوفر في المملكة المباركة للأسف يملك ويصبر على اقتناء الغنم أو البقر وهم القلة من الناس ثم أعطانا الله مثلها (أو أكثر مما) أعطى غيرنا ولله الحمد والفضل والمنة.

وقضيت خمسة أشهر في هذه المرحلة، ولما كانت وقت العمل قصيراً يسر الله لي خدمة عدد من الناس: علماء وتجار وعامة في التعاون على البر والتقوى بالترجمة لدى الأطباء خاصة وغيرها عامة.

وقد اشتريت سيارة فورد انكليزية مستعملة تعينني على الخدمة العامة ولكنه

التنقل بالقطار تحت الأرض داخل لندن أيسر وأجدى، فكنت أترك السيارة عند آخر محطة يمكنه الوصول إليها بيسر، وأركب القطارات تحت الأرض في تنقلي داخل المدينة ثم أعود إليها بعد انتهاء أعمالي آخر النهار لتوصلني إلى المنزل وإلى السوق التجاري وإلى أي مكان آخر أحتاج إلى الذهاب إليه في الضواحي. ولم أر قبل قطارات لندن تحت الأرض ولا بعدها خيراً منها في يسر استعمال وضخامة مدى وامتداد خدمة (إلى مطار هيثرو، نقطة البداية والنهاية غالباً).

وعندما التقى الأمير فهد بن عبد العزيز آل سعود (خادم الحرمين فيما بعد) في المستشفى وكان يتألم من المرض ومن الإشاعات عن أسباب غيابه لتأخر عودته للعمل وزيراً للداخلية (رحمه الله)، وبعد أن شفاه الله دعتنا السفارة السعودية معه للغداء في مطعم شرقي وحضرها الشيخ عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ ومعه ابنه (الطفل يومها) صالح الذي أقر الله عيني بمعرفته بعد ذلك بنحو عشرين سنة عالماً من علماء التوحيد والسنة، وداعياً مثل دعاتها على منهاج النبوة، وباحثاً محققاً، ومناوئاً للشرك والبدعة ودعاتهما، وبقية من إرث تجديد الدين والدعوة الذي ميز الله به الإمامية المحمدية ونسلها الصالح ثم اصطفاه الله للعمل في شؤون الدين والدعوة نائباً للوزير ثم وزيراً في دولة الدعوة.

وكنت أحسن معاملة من يحسن معاملتي من الإنكليز وأسيء إلى المسيء، وتنبهت بعد ذلك إلى أنه خير أن من ذلك شرعاً وعقلاً: الإحسان للفريقين كما قال الله تعالى: ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن﴾ والأولى بالمسلم (بل بأي ذي عقل) أن يفرض على نفسه خلق الإسلام على نفسه وغيره بالإحسان، ولا يكون إمعة إن أحسن الناس أحسن وإن أساءوا أساء؛ فإنه فعل فيما يتخلق به مما يكره من سوء أخلاقهم.

وعندما قرب موعد العودة إلى الأرض المباركة بعت سيارتي على زميل كريم (رحمه الله) بمثل ما اشتريتها به إلا قليلاً بشرط أن توصلني إلى محطة السفر.

ي - وفي عام ١٣٨٥ (١٩٦٥) أيضاً سافرت مع صديق عزيز بسيارته من بيروت إلى فلسطين بطريق سوريا والأردن قبل احتلال القدس وبقية فلسطين بنحو عامين، وأقمنا في نزل جميل نظيف كأنما نقل من أوربا أو أمريكا اسمه: (المستعمرة الأمريكية)، وعرفت فيما بعد أنه القائم عليه تعده أثرياء أئمة تشرشل (رئيس وزراء بريطانيا وبطل الأول في الحرب العالمية الثانية) أقام فيه أثناء زيارته لفلسطين بعد الحرب وقبل انتهاء احتلال انكلترا للمنطقة.

وبحثت معي مدة المقاصد فكرة إلحاده من بريطانيا أثناء الدبلوماسية الصهيونية بأن يحصلوا على دراسة مستقرة بالعبرية لكثرة انتقال آبائهم وطوافهم. ومنه نزلنا في القدس ثم نابلس فلحم والخليل وبحيرة طبرية والبحر الميت.

وتذكرت تخوّف أخي سوداني منه أن ينزع الله القدس من أيدي العرب لما رآه وسمعه من سعي الربّ وسعي التديّة بيهالمنتمية للإسلام مما لا يجرؤ عليه يهودي ولا نصراني ولا وثني. وساءني من ذلك ما لم أتصوّره في بلاد التوحيد والسنّة (وتصوّره لهو في السودان في كلّ عهود ولاتها القريبة): انتشار وثنية المقامات والمزارات والأضرحة في مساجد المنتمية للإسلام والسنّة أكثر من انتشارها في معابد الضلال وأبرز مثل لذلك ما يسمى: (الحرم الابراهيمي الشريف) وليس بحرم ولا ابراهيمي ولا شريف، بل كان في الأصل منزفناً تملكه ظهّة اليهود: ابراهيم وسحوه وزوجتاهما ولم ينبه عليه غير السور حوله، ثم جاء الصليبيون فبنوا عليه كنيسة، ثم جاء المنتمون للإسلام في عهد صلاح الدين الأيوبي فبنوا داخل الكنيسة التي حوّلت مسجداً سبعة أوثان اثنان في المقدمة باسم إبراهيم وزوجته وأربعة في الفناء الأوسط باسم إبراهيم ويعقوب وزوجتيهما وسابع باسم يوسف (عليهم الصلاة والسلام والبركة) عند مصلى النساء ابتلاء لله بالنساء أسوأ مما ابتلي به في حياته.

وزرت مصدر الأوثان هذا الذي اجتمعت فيه أوثان المنتمية إلى الأديان الإلهية الثلاثة (وأسوأهم المنتمون إلى الإسلام) وتقربت إلى الله بعدم الصلاة فيه فهي محرمة شرعاً كما في حال مسجد الضرار الذي حرّم الله على نبيه وعلى متبعيه الصلاة فيه لأنه لم يبنه على التقوى من أول يوم. وقد كتبت عنه في مجموع مقالاتي الأول (الحكم بما أنزل الله فرضه عينه على كل مسلم) وأثبتّ في آخره مخططاً للمسجد وأوثانه وضعته ألمانية تحوّل إلى الإسلام (ص ٩١-٩٥) مشيراً لخطأ اليهود وغافلاً عن خطأ المسلمين.

ولا يزال المسلمون يدعون الله أن يردّ بيت المقدس وينصر المقاتلين لأجله وينسون الدعاء بالصلاة والردّ إلى دين الله ردّاً جميلاً ليزول الضلال بسبب الهزيمة. وتقوم حركات ومنظمات وأحزاب باسم الكفاح والجهاد فلا تسمع قولاً ولا ترى فعلاً يستحق أن يطلب به النصر من الله (وأهمّ: الدعوة إلى إفراد الله بالعبادة ونفي تسمية سوى الله محمد سمّيت باسم المقامات والمزارات والأضرحة والدعوة إلى التزام السنّة والتحذير من الابتداع في الدين).

ولم أعرف من قادة الكفاح والجهاد (بزعمهم) عالماً شرعياً ولا داعياً إلى الله على بصيرة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم يفهم فقه القرون المفضلة في الدين، ولم أعرف منهم واحداً منذ خمسة آباء وسيد قطب تجاوز الله عنهم إلى هذا اليوم جعل الحكم (بل شيئاً يذكر من حكمه ومنهاج عمله) مما دعا إليه جميع الرسل - قبل كل أمر أوحى به تصحيح الاعتقاد والعبادة

لك - وفي عام ١٣٨٦ كنت عضواً في وفد برأسه وزير المعارف إلى مؤتمر اليونسكو في طهران - إيران، وكانه بإيران - ولا يزال - تأثير ديني وسياسي بالغ أحبوا الله أن يكفي الإسلام والمسلمين شره.

١) تأسست بإيران الهند في افتراء ونشر أفكار التصوف، فمنشؤه الهند وحملته إلى إيران: الحلاج والبسطامي والغزالي، ثم منه نقل عنهم إلى الأرض فارس بطريقة العراق مرتباً بآداب الزهد ومعنى التزكية والإحسان، وفريضة علم الباطن بدلاً من علوم الظاهر والرسوم، والعلم اللدني بدلاً من الفقه في نصوص الوحي بفهم السلف.

٢) وتصدت إيران الهند وغيرها بالإرهاب والتقتيل عندما بعد التكفير والهجاجاة؛ ابتداء من نهاية القرن الثالث الهجري إلى منتصف القرن الرابع بما فعله القرامطة في الإسلام والمسلمين. ثم في القرن الخامس والسادس بما فعله حسن الصباح وعصابته (النزارية) ويقال: أنهم برزوا في الحروب الصليبية ثم صاروا يتقربون إلى الله بقتل المسلمين (الوزراء والصالحين خاصة) وكانوا فرادى عصابة التقتيل يسمون في مكانة جرائمهم لتقصيه عليهم ويقتلوا غيبة في العجاج إلى الجنة (أعلام الزركلي). ثم في بداية القرن الرابع عشر الهجري بما فعله ميرزا الكرماني منذ قتل الشاه ناصر الدين بأمر من شيخ جمال الدين الأفغاني، ثم في بداية القرن الخامس عشر إذا انقلب الشر على الساحر فقتل منه فقراء الشيعة عدداً يتجاوز عدد من اغتيل قبلهم بأمرهم، وقتلت جماعة (فدائيان إسلام) قبلهم عدداً من السياسيين بفتوى من أحد المجتهدين من أئمة الشيعة. ثم بعد قيام ما سمي بالجمهورية الإسلامية أنه للدولة أن تعترف وتعلن على الملأ قرار هذه الراية بإصدار طوابع بريدية تحمل صور إرهابيين مثل ميرزا الكرماني ومجتبى نواب صفوي (الشيعة والتشيع - د. موسى الموسوي). ولم تنس فضل العرب على فتنة الإرهاب والتقتيل والتكفير (وبما سبب كبار الصحابة فمنهم دونهم) فأصدرت طابعاً بريدياً يحمل صورة سيدنا قطب ورفقت اسمه على سبعة طوابع على الأقل، ورفقت اسم خالد الإسلامبولي على طوابع واحد على الأقل في إيران لاغتيال السادات تجاوز الله عنهم.

٣) وقادت إيران خطباء العرب وعمائهم وواعظيهم في خطب الجمعة والتراويح والتسجيلات الموصوفة - زوراً بالإسلامية - إلى نبذ سنة النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه وصحابته وتابعيهم رضي الله عنهم بتحويل الدعوة إلى الله من السياسة الشرعية (في أحكام الاعتقاد والعبادات والمعاملات المقننة) إلى السياسة الترخيصية الظنية المستقاة من وسائل الإعلام الضالة.

رأى الحركيون الشيعة العجم والحركيون السنة العرب إمامهم الخميني يزيل حكم

شاه إيران بلا سبب ظاهر غير شريط التسجيل ففعلوا عمد ذكر المسبب وهو
الله العلي الحكيم الذي يقول للشيء كن فيكون بسبب ظاهر أو خفي
قوي أو ضعيف أو بلا سبب؛ فرفضوا يستنّوه بسنة الخميني فتركبوه
شريط التسجيل بل تركبوه الشيرة والتفسير وتحفيظ القرآن وشعار الجراد
لتحقيق غرضه الخميني: منازعة الأمر أهله والاستيلاء على السلطة باسم
الإسلام دونه طاعة لله ولا إخلاص في عبادة ولا اتباع لسنة رسوله ولا دعوة
لإفراد الله بالعبادة ولا نهي عن الشرك بغيره فيما مضى وما دونه ذلك من الابتداع في الدين.
٤) كالعادة لم نستفد من المؤتمر ولم نفده ولسنا بدعا من الأمم في هذا الأمر
فقد لاحظت أنه جار على مثل ألمانيا الغربية - مما عرف عن ألمانيا من الجدية.
كانه لا يجلس في مقعده إلا دقائق لإثبات وجوده بمناقشة قصيرة لأمر
عام ثم يعود إلى برك السباحة المبردة بالثلج. ولذا كانه هذا هو حال
المؤتمرات الدولية. فقل ما شئت عن المؤتمرات العربية والإسلامية.
٥) وحضر بعضهم وفدنا (من لا ينام مبكرا مثلي) حفلة غنائية راقصة مترفة
مع الشاه وحاشيته إلى ما بعد منتصف الليل أقيمت احتفاء بالوفود،
وقد تكون هذه ومثلها أعلى ما يتوقع المؤتمرون تحقيقه من الفوائد.
٦) وفي الصباح حضرنا مع الشاه وزوجته وحاشيته عرضا عسكريا،
ولاحظت أنه بعض الضباط يفسر عليهم المشي من التعب. والترف
والإسراف مجاوزة لحدود الشرع والعقل والحاجة والفطرة، وسبب
لزوال النعم والدول والأمم، والأكثرون يقترفونه ويصرون عليه متى أتيح لهم.
قال الله تعالى: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول
فدمرناها تدميرا﴾ ولعل من ذلك نكبة فلسطين وفتنة العراق في الخليج، ولعل الله
أنقذ الخليج لندرة الشرك والبدع فيه ولكثرة في فلسطين والعراق ولبنان.

ل - وفي العام نفسه كنت عضوا في وفد لوزراء التعليم العرب في ليبيا، وأذكر
أنه منظمي المؤتمر اعتذروا بالاعتكاف الملك السنوسي بضعة أشهر عن عدم
افتتاح المؤتمر أو مقابلة الوفود (وتعرف السنوسية بطريقتها الصوفية).
ل) مع الاعتذار بالاعتكاف الملك عن استقبال ضيوفه؛ فقد وجدت أنه من اليسير
التشاغل بمطعم أو مقهى أو فندق حديث لا يقدم الخمور في طرابلس،
وذكرتني طرابلس بروما في طرازها المباني وتنظيمها وأسماء شوارعها وآثارها.
ن) زرتها بعد ذلك ببضع سنين لحضور اجتماع تعليمي - بعد الثورة - فوجدت
القذافي (جزاه الله بما يستحق) قد حرم بيع الخمور في أحب مكان عام، وزاد على
ذلك بمحاولة القضاء على التصوف ولكنه ضراوة معاداة حزب الإخوان

المسلمة له (سياسياً) ومنازعته الحكم بما حكمته على معادنه الصوفية
حتى لا يفتح على حكمه أكثر من جبهة. وألغى الحروف غير العربية
من الاستعمال في أسماء الشوارع والإعلانات التجارية ونحوها
وألزم غير العرب بترجمة المعلومات في جوازات سفرهم إلى اللغة
العربية في أكثر الأحوال تمشياً مع منهجه القومي العربي.

٢) وفي زيارتنا لهذه البلاد صعوبة تكيف الشباب الليبي البدوي
الأصل مع متطلبات الخدمة في الفنادق والمجمعات الأنيقة من خدمة
الفندق وبيئة الحاجة إلى أداء المرحلة والوظيفة إلى درجة أن رئيس
الوفد السعودي وزير المصارف طلب منه أحدهم شربة ماء فرد عليه
بجفاء: (قم واخدم نفسك)، وكان ذلك في بداية توطين الخدمة والوظيف.

٤) ومع احتلال إيطاليا لبلاده سنين طويلة ومحاولة تحديث إدارة وزراعة
وتنظيماً وتعليماً فقد بدا لي أن أهل الليبي لا يزال يحتفظ بحبه للحياة البدوية
في مأكله وملبسه ومعيشته في منزله وبين أهله وأصدقائه. ولقد
أهدى لي أحدهم قصعة من عصيد الشعير فوجدت بلذة (من جانب)
وحقيقة أن الشعير لا يزال يؤكل، ولم أسمع بذلك منذ عصر النبوة
مع أننا في (نجد) لم نبعد عن معيشة البدو كثيراً، ولا تزال تشتهر وي الأغلبية.

٥) ولاحظت أنهم يسمون آلة الرد وصابه الأشربة (مؤلمات) وما
ذلك إلا لفلسفة العاطفة الدينية على الأكثرية ولعله كان منهم من يتخذ
إلهه هواه أو هوى غيره، وأشد أمظاهرة تعظيم المقامات والمزارات والأضرحة.

٦) وحاول القذافي إلغاء ما بدأه قدوته جمال عبد الناصر تجاوز الله عنهما
من تحدي الغرب فألغاه قاعدة (ولسن) الأمريكية، وزاد عليه بحاربة اللغة
الإنكليزية، واستيراد شكل الإدارة في الصين الشيوعية (تسليم الإدارة
إلى اللجان الشعبية الشابة) ونتيجة لذلك وجد كثير من الشباب الليبي ذكوراً
وإناثاً أنفسهم محلة في مواقع المسئولية الإدارية في المدارس والمعامل ونحوها
مكان الأجانب (المصريين بخاصة). ونظنة كثير من العرب أن لفظ (الأجنبي)
لا يجوز أن يوصف به إلا الأعجمي الكافر، ومصدر هذا الظنة الجهل باللغة
والدين والفقه؛ فابن العم أجنبي (شرعاً ولغة) عن ابنة عمه حتى يتزوجها ولو كانا
يسكنان بيتاً واحداً كما كان حال الناس قبل غلبة الشح والأثرة وتقليد
الثقافة الغربية، وقال الله تعالى: (والجار الجنب) غير القريب (ابن جرير)
ولكن العامة في البلاد العربية المحتلة تعودوا وصف المحتل بالأجنبي
فظنوا أن هذا الوصف خاص به وبشركاته وثقافته، وقد وجدت الشيخ
عبد الله خياط رحمه الله تائهاً رحمهم خطأ أنكر وصف العربي المسلم بالأجنبي (المجلة في الماضي)

٧) وربما وجد وفدنا نفسه في حاجة إلى زيارة بلد أبعد عن الثقافة البدوية قبل العودة إلى المملكة المباركة فتقرر المرور بتونس المجاورة في زيارة خاصة ولكنه الوفد التونسي علم بذلك فضوجئنا في مطار تونس بسيارات رئاسة الجمهورية التونسية تنتظرنا ثم توصلنا إلى فندقه الرحلة في ضيافة الرئاسة. ونبهنا أنه يوم غد هو يوم ذكرى استقلال تونس وأننا مدعوون للاستماع إلى خطاب الرئيس (بورقيبة) تجاوز الله عنه، وفي المساء تناولنا طعام العشاء مع الرئيس على مائدة في أحد قصوره العديدة ولم يحضرها غيرنا فاستكملنا ذكريات الرئيس عن كفاحه في سبيل استقلال تونس، ومع ذلك: كانت مائدة الرئيس وطعامه ومجلسه تذكرني بمثلها في باريس فالثقافة الفرنسية عميقة الجذور في تونس أكثر منه غيرها في المغرب العربي.

٧) وربما وجد وفدنا نفسه في حاجة إلى زيارة بلد أبعد عن التقاليد البدوية قبل العودة إلى المملكة المباركة فتقرر المرور بتونس المجاورة في زيارة خاصة ولكن الوفد التونسي علم بذلك فتوجهنا في مطار تونس بسيارات رئاسة الجمهورية التونسية تنتظرنا ثم توصلنا إلى فندق الرحلة في ضيافة الرئاسة. وتبين أنه يوم غير يوم ذكرى استقلال تونس وأننا مدعوون للاستماع إلى خطاب الرئيس (بورقيبة) تجاوز الله عنه، وفي المساء تناولنا طعام العشاء مع الرئيس على مائدة في أحد قصوره الصيفية ولم يحضرها غيرنا، فاستكملنا ذكريات الرئيس عبد كفاحه في سبيل استقلال تونس، ومع ذلك: كانت مائدة الرئيس وطعامه ومجلسه تذكرني بمثلها في باريس، فالثقافة الفرنسية عميقة الجذور في تونس أكثر منها في المغرب العربي.

٨- وفي عام ١٣٨٦ كنت عضواً في وفد المملكة إلى الجزائر لبحث وجوه التعاون بين البلدين شملت في وزارات المعارف والزراعة والصحة والبترول والتجارة إضافة إلى القطاع الخاص واستضافتنا الحكومة الجزائرية في عهد (هواري بومدين) وهيأت لنا زيارة مؤسسات الدولة الإدارية والصناعية ونقلتنا لأهم مناطق البترول (حاسي مسعود) بطائرة خاصة، ولما حطت بنا في المطار وبدأنا النزول منها وجدنا في انتظارنا حرس الشرف بأفراده وموسيقاه، ولم يكن فينا من سبق له تفتيش الحرس أو عرف شيئاً عن روتينه، فتسابقنا إلى التلكؤ داخل الطائرة، ولما كان لابد لنا من مواجهة المأزق بدأنا التشاور ومحاولة إقناع زميل أو آخر بالتضحية فقبل أحسنهم خلقاً تحمل الإحراج عن بقية زملائه ومرت الأزمة بسلام (جزاه الله خير الجزاء).

ولما كانت الدولة الجزائرية الاشتراكية تنتج نوعاً من سيارات الجيش ومستلزماته فقد أقلتنا سيارات (جيب) الفرنسية المتميزة بالقدرة على رفع الهيكل (جسدها) عن الأرض عند الحاجة إلى صحراء مماثلة لبعض صحاري المملكة ترتفع فيها كثبان الرمال لتجربة سيارات نقل الجنود ومشاهدة قدرتها على مواجهة الرمال.

وبعد أيام استعرضنا مختلف منتجات الدولة الصناعية والزراعية بضعة أيام ختم برنامج زيارتنا بمفاجأة لم نعرف عنها شيئاً من قبل ولم نتوقعها: شجر الأرز يكسو المناطق الجبلية المعروفة به، وتذكرنا لبنان الذي لا يكاد يوجد به شجر الأرز غير الشجرة المرسومة على العلم اللبناني ومع ذلك يشتهر بالأرز ولا يعرف به الجزائر.

وتتميز الجزائر على شمال أفريقيا بميزة أعظم: قلة عدد أولياء وزوايا الصوفية بفضل الله ثم بعالم وعمل وتقوى (جمعية علماء المسلمين) وعلى رأسها البشير الإبراهيمي وابنه باديس ومبارك الميلي النبيه آثارهم الله على

من قبلهم من علماء التصوف والابتداع وآثرهم الله على من بعدهم من علماء الفكر والسياسة غير الشرعية، فطهّر الله بهم أكثر أرض الجزائر ومساجدها وقلوب وأعمال أهلها من الشرك والبدع والفتنة والمعاصي، وجدّد الله بهم دينه والعودة إليه بالعودة إلى ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، حتى صارت الجزائر شامخة بين بلاد المغرب العربي رغم ما بقي فيها وما أضيف إليها بعدهم من مضلات الفتنة والبدع، غفر الله للماضين وأصلح الباقين.

ن - وفي عام ١٣٨٧ انتدبتني وزارة المعارف إلى العراق مع د. محمد حياتي رحمه الله للتصرف على دراسة الطب الجامعية في العراق (الموصل بخاصة) لإيجاد خيار آخر لابتعاث الطلاب السعودية تحسباً لتأثير العلاقات العربية على البعثات السعودية لدراسة الطب، ود. حياتي طبيب سعودي تخرج بمدرسة الطب لجرلم بالجانب التجاري من هذه المهنة، وعمل سنين طويلة في مستوصف وزارة المعارف رئيساً للإدارة الصحية، ورزقه الله طفلاً سمّاه: (رفيق حياتي) ولكنه لم يرافقه طويلاً إذ أصيب بمرض نادر جداً يمنعه من التعرض لأشعة الشمس.

كانت العراق في بداية حكم (البعث) في عهد (البكر)، ومع التناقضات الشديدة بين حكم البعث وحكم الشريعة، فقد كان سفير المملكة محمد الشبيلي يغلب التناقض بكرمه الذي يبلغ حد المبالغة وحسن خلق عامة، وكان سفيراً للمملكة في باكستان والهند معاً رغم كثرة الخلافات بينهما، وعندما آنه نقلد طالب كلٌّ منهما ببقائه.

أصرّ السفير الشبيلي رحمه الله على أن يرافقنا إلى الموصل رجل تعوّد الإحسان إليه من وجوه كثيرة منذ مرافقة ضيوفه والنيابة عنه في النفقة على نفسه وعليهم، وكان أحياناً يطالبه بنفقة على ضيف لا يجيزها إلا مثل الشبيلي رحمه الله (ولا أعرف مثيلاً) مثل مطالبته بنفقة على ضيف أحمى يزوره مشاهدة السينما. وتخلصنا منه في الطريق.

وكنت أتمنى أن يزوره الله المملكة المباركة زهراً يلطف شدة الحرارة في أكثر مناطقها صيفاً، فلما رأيت بغداد بل كل المنطقة الممتدة من الحدود الكويتية إلى الحدود السورية شكرت الله على ما قدّر وقضى ورزق، فلم يؤثر نهر دجلة والفرات شيئاً في تلطيف الجو العراقي بل زاده حمّاً. وكانت تثور ثائرة الغبار الداكن (الطوز) ضحىً فيكاد يغطي نور الشمس. وتسمع المنادي ينادي على لشراء لبنة (أي ثلج) وقد وضعه في دلو معدني (سطل) لا يعرف معنى كلمة النظافة وأضاف إليه قطعة من الثلج سرعان ما تذوب فلا يبقى من اللبنة إلا ماءً وهادئاً: (هل رأيت الذئب قط)؟ وجربت (المشقوف) في الرياضة (وهو حذاء يشق على هيئة الكعاب ويصلى على نار السعف) وظننت أنه سيكون أطيب على ضفة دجلة موطن الأولى ولعني لم أفعل فقد أفسد على ذكرى طعم الرياضة للفرهيد سحل البحر والنهر، وأكرم من ذلك الفرهيد النظافة والصناية وبيه عدرحما، أو الفرهيد خدمات المدينة والقرى.

وقد أطلق الله العراق مع نهري دجلة والفرات أرض أمة النفط كفيلة (مع الأيدي العاملة والتربة المنبتة) بأن تجعله مميزاً على كل أرض الله (والمنطقة بخاصة) ولكنه لعل البركة نزعت بسبب التفرقة والشقاق والعنف وفوق ذلك كله بسبب مظاهر الشرك (المقامات والمزارات والمشاهد) وما دونه ذلك من البدع والمعاصي والظلم والعداوة المنتشرة في مختلف الفرق (المنتمين إلى السنة فما دونهم)، ردهم الله إلى دينه رداً جميلاً فيأمنوه ويطمئنوه.

كانت كلية الطب في الموصل جيدة تضاهي مثيلاتها في العالم العربي، ولكنه تسلط حزب البعث العربي الاشتراكي وفرضه فكره على العراق وشعبه، يؤكد ذلك لوحة على الجدران: (أنت بعثي ولو لم تسجل في الحزب) ضرقنا عن فكرة الابتعاث إليه داعية الله أن يصلح الصلاحات في مصر فلا نضطر إلى البحث عن غيرها في أم الدنيا العربية في التعليم ذلك الوقت.

وعند عزمنا على التوصيل عن الفندق للعودة إلى المملكة المباركة أبلغنا إدارته أنه السفارة تحملت نفقة إقامتنا فيه فرفضنا شاكرين ليقيننا أنه السفير (أو السفارة) سيتحمل النفقة كما هي عادته مع غيرنا، جزاه الله خير الجزاء.

س - وفي عام ١٣٨٨هـ تشرفني زميلي أحمد المنصور حمالله (مدير الإدارة المالية) على السفر إلى الولايات المتحدة الأمريكية للجمعية العمل ضابط اتصال في (كاليفورنيا) لمكتب الملحق الثقافي السعودي في نيويورك وبيرد الدراسة، ولم يكن من عادته التشجيع على مثل ذلك، ولكني استشرت معه وعدد من كبار موظفي الوزارة في تنبيه ولاة الأمر إلى تأثر العمل في الوزارة بسبب تدخل الوزير في تنفيذ الأنظمة فيما يتعلق بالابتعاث وانتداب الموظفين للعمل في الخارج لعجزه عن مقاومة الشافعيه والوسطاء على حساب العمل والنظام، وقلة ساعات عمله في الوزارة ونحو ذلك (بعد تقديم النصيحة له أكثر من مرة)، ولكنه هذا التنبيه شفهياً بالمطالعة أو الخروج عنه طريقة الإصلاح النظامي، فأحيل أكبر هؤلاء الموظفين مدير عام الوزارة إلى التقاعد، وتنقل ثاني أكبرهم إلى جامعة الملك سعود، وأنني توليت تنسخ هذا التنبيه فقد ظنه الأستاذ أحمد المنصور أنه الأولى ابتعادي عن الوزارة في ذلك الوقت، ودافعه هذا التشجيع لهوى في نفسي لرغبتي في السفر والحصول على خبرة نظرية وعملية في مكان آخر، فطلبت للمرة الأولى والأخيرة الحصول على هذا التميز وتشرفت الوزير عند توقيع القرار (بحضور زميلي الأستاذ خالد المسعود) إلى مصلحتي في هذا الأمر فوقع القرار قائلاً: (أرجو الله أن يجعل المصلحة العامة مع المصلحة الخاصة في هذا القرار) وهو حي كريم (ولو على حساب الدولة) ولا أظنه حاول الانتقام مني، ولعله كان موقف في طريقه تعييني في وظيفتيه لا زلت أدعو الله أن يجزيه عن ذلك خير الجزاء لعجزي عن القيام بأحدهما.

١) ولعدم حرص المكتب الثقافي السعودي على التخلي عن جزء من عمله، وعدم حرصي على التقيد بالشكل والروتين فقد التحقت بالدراسة العليا في جامعة (جنوبي كاليفورنيا) وحصلت على درجة الماجستير في فلسفة التربية خلال العامة الدراسية ٦٨-١٩٦٩ و ٦٩-١٩٧٠، وقدمت عدداً من التقارير عن التعليم الجامعي في المنطقة وعلاقته بطلابنا ومثلت المكتب في المرات القليلة التي طلب فيه مني تمثيله.

٢) خيرتني وزارة المعارف بين البقاء لمحاولة الحصول على الدكتوراه وبين العودة للعمل في الوزارة، وزارني عميد كلية التربية (CARPENTER) يحضني على البقاء، ولما عرف رغبتي لدراسة ما يسمى (علم النفس) بحرصه إسقاطه عني ملتفياً بدراسة في كلية الشريعة بمكة، ولكني لم أتوقع الحصول على فائدة تعادل عناء الدراسة فشكرت العميد واعتذرت منه، وطلبت من الوزارة البقاء عاماً ثانياً في دراسة حرة وحصلت على موافقته، وكانت من أهم الميزات التي حصلت عليها أنه قيود التعليم على أي مستوى تيسر مرحلة الإدارية ولكن تقوده عملية التعلم الفطرية فلم يفطر ابن آدم على التعلم بالتجزئة أو التقسيط أو التقنين المفتعل سواء في تحديد عدد السنوات أو عدد دقائق الدرس أو عدد الصفحات في الموضوع الواحد أو توحيد عدد موضوعات الدراسة لكل طالب في زمن محدد ومكان محدد، وهو ما سعيت لتقديم بقدر وكنت أبحث في برامج الجامعة وفي جدول ما تقدم في جميع الأوقات ثم اختار الدرس والمدرس، ولو وجدت في برامج التلفزيون التعليمية ما أحتاج إلى معرفته اخترته على برامج الجامعة.

٣) وكانت السنوات التي اختارها الله لي قضاءها في أمريكا أهم سنوات أختارها النفسي: كانت الثقافة الأمريكية تتقمصه لتغيير بالغ، وربما كانت حرب فيتنام التي يتحمل نتائجها الشباب الأمريكي من أهم دوافع المطالبة بالتغيير وبلغت هذه المطالبة ذروتها بالهيجان. ولم يتوقف التغيير بالانسحاب المريع من فيتنام بل امتد إلى القيم والتقاليد والعادات وأساليب الحياة: ظهور ثقافة (الهيبز) بتحللها من قيود الدين والأخلاق وتعاطيهم المخدرات والفواحش، ولما أصل يسمى (الروبوت) الذي يختار ترك عمله ومنزله وأهله مهما كان مستواه العلمي والاجتماعي والوظيفي ويهيم في الأرض وينام في الحدائق العامة.

٤) ودخلت أمريكا في ذلك الوقت سباقة الفضاء وفازت بالنزول على القمر، وقتل (كينيدي) الذي أعلنه دخول أمريكا هذا السباق وفازت في مواجهة مع روسيا بسبب تفجير الصواريخ في كوبا، ثم أذن الله ببدء ما يسمى بالصحوة أو اليقظة الدينية في الوثنيين (الهندوس ثم البوذيين) ثم في النصارى بما يسمى (الولادة من جديد) ثم بعد ذلك في المسلمين (السود أتباع إليجا محمد) ثم في (جمعيات الطلاب العرب) التي تغير اسمها إلى (جمعيات الطلاب المسلمين)، ومن أمريكا انتقل ما يسمى (الصحوة الإسلامية) إلى جميع أنحاء العالم وظهر تأثيرها في التدين العاطفي الركيك وراء كل شيء يوصف بالإسلام من شريط وكتاب وموعظة وفضائية ومن جماعة وجماعة

وحزب بل ومستشفى حتى صارت كلمة (إسلامي) علامة تجارية. وزاد عدد المصلين وعدد المساجد وعدد الجمعيات دون شرط النبي صلى الله عليه وسلم: «ما أنا عليه وأصحابي» فلم يكن بينه محرك للصحوة عالم شرعي يذكرهم بذلك ولم ينقص عدد الأوثان والبدع والزوايا الصوفية، بل لم تدع الصحوة إلى تركها.

٥) وكان انتشار ظاهرة (الحسبنز) مؤذنا بظهور فتنة كبيرة لم تنتشر في أمريكا قبل: خطف الطائرات المدنية وسرقة المصارف وترويع وقتل الآمنين؛ فظهرت تجارة الحراسة الأمنية والأبواب والأقفال المتينة وأجرة الإنذار، وكانت المنازل قبل سنوات لا تكاد تغلق (فيما عدا المدن الكبيرة مثل نيويورك وشيكاغو والمؤسسات بالحراسة تذكير. ولم يعجبني من أمرهم غير قولهم (تسويغا لترك الأصل والمال وراءهم): (بقدر قلة مالك ومتاعك يقل خوفك على فقده).

واقتدى بهم العرب كالعادة في بعض سيئاتهم فخطفوا بضع طائرات مدنية (أوروبية وأمريكية) وفجروها جميعا في صحراء الأردن إضافة إلى تفجير عدد من السفارات والمؤسسات الإسرائيلية والعربية وقتل الآمنين، وترجيح العامة على الولاة.

٦) وأثناء إقامتي في لوس أنجلس - كاليفورنيا نزل الأمريكي آمستر وذلك على سطح القمر، ونزلت لوس أنجلس فمرنا أثر الزلزال على الناس والجماد، وحكم القذافي ليبيا، وصاح جمال عبد الناصر فانخفض المعلوم على نشرة أخبار (C.B.S) إلى سقر أيد حياة وحركة بقوله: (كان رجلا أحبه كثير من الناس وكان رجلا كرهه كثير من الناس، ولكنه كان رجلا)، ولا شك أنه قاد العرب إلى الخير أو إلى الشر.

٧) ونفع الله بحركة (إلياجا محمد) ولما لم تكن شرعية فتحول إلى اسم الإسلام عدد كبير من الزنوج يقدر بمائتي ألف وأحسن عدد من المعابد يقدر بمائة وخمسين، وبعد موته اتجه ابنه وارث الدين بالحركة وجرة السنة التي علق أكثر المنتمين إلى السنة خارج أمريكا، وبقي (فرقان) وأتباعه على نهج (إلياجا محمد)، وكثرة الأتباع وتحقق النتائج الطيبة لا يعني صحة منهج الدعوة، والقلة والإخفاق لا يعني فساد منهج الدعوة فأكثر الرسل لم يتبعهم إلا القليل أو لم يتبعهم أحد. وقد يؤيد الله الدين بالرجل الفاجر.

ولكن الله نفع بحركة (إلياجا محمد) زنوج أمريكا من جانب دنيوي أيضا فتعلموا احترام أنفسهم والاهتمام بإصلاح أحوالهم من حيث الآداب والمعيشة والمعاملة بينهم.

٨) وتأثرت جماعتنا بهذه الحركات (الفكرية والسياسية والاجتماعية خاصة) كما تأثرت كل المؤسسات والأفراد في أمريكا؛ فوجدت دروس ومدرسة واجتماعات وفنون غريبة لم يكن أحد يعلم بوجودها من قبل لمفارقة العلم والخلوة والواقع المألوف.

٩) وفي (لوس انجلس) إضافة إلى اعتدال مناخها بعض أبرز مظاهر الحضارة الأمريكية التي لم تسبق إليها، وأشهرها: (هوليوود) بمعنى: الغابة المقدسة وهي أبعد ما تكون عن القداسة، ومن المفاصل الدراسية في جامعتنا نزع الجبل المسمى بهذا الاسم كما تعلمنه الحروف

البيضاء الكبيرة، ويجب عنا دخامة السيارات غالباً، وتحته وحوله (كاليفورنيا) المعروفة بأفلامها ومسارحها وقصورها ومحلاتها الفاخرة ومجتمعها الذي بلغ درجة عالية من الثراء والترف والبضائع والفرائب لم يبلغ غيره في أي مكان وزمان معروف، مع أنه لوس أنجلس تعني الملائكة.

ومن أهم مظاهر الحضارة الأمريكية في (كاليفورنيا) غير بعيد من لوس انجلس (ديزني لاند) التي تجمع بين الترفيه بمختلف أشكاله على نحو مبتكر وبين الإطلالة على الحياة في الماضي والإطلالة على الحياة في المستقبل، وقل عن الفخامة والضخامة والفن ما شئت.

وفي (لاندين) غير بعيد من لوس أنجلس (أيضاً) غرست (كريمة) خمسة آلاف نخلة استوردت بثلاثة آلاف من العراق مع عمالها وأسماء تمورها، وكعادة الفرنسيين طوروا طرقه غرسها وسقيها والعناية بها وجنيها واخترعوا الآلات المناسبة لذلك، وكنا نزورها أيام الاحتفال السنوي بجني التمور، ونجالس بعض المهندسين العرب طمعاً في إعفائهم من ثمن تذاكر الدخول، ثم ساهمت كريمة في التنقيب عن نفط وإنتاجه.

وفي (لوس انجلس) رأينا للمرة الأولى: الطرق السريعة الممتدة (٦٠٠) كيلو في ساحل أمريكا الشرقي مرصوفة بالاسمنت والحديد غالباً، ومحلات السوبر ماركيت، ومطاعم الوجبات السريعة والسينما، تأكل من المطاعم وتشاهد السينما دون الترجل من السيارة ولم تكن هذه كلها انتشرت في غيرها.

١٠) وبعد أن وصلت عائلتي بعدي ببضعة أشهر اشتريت سيارة مستعملة بثمانمائة دولار، استعملتها طيلة سنوات إقامتي، وسافرت بها بين الساحل الغربي والشرقي ثلاث مرات، إضافة إلى الأسفار الأقل مسافة، وكان من زملائي من يشتري الجديدة بنحو ثلاثة آلاف دولار للمسافات القصيرة ثم يبيعها عند سفره بنصف قيمتها.

وقبل انتهاء فترة إقامتي بنحو أربعة أشهر طلبت من نادي السيارات تخطيط رحلتي الأخيرة في أمريكا بحيث أزور أكثر الولايات والمناطق المتميزة بطبيعتها أو بما ابتكرته يد الإنسان أو بثقافة أهلها، مثل الهنود الحمر في مناطقهم التي خصصت لهم ومثل (الأمش) الذين يعيشون في هذه القرية كما كانوا يعيشون قبل قرنين، أما (الإسكيمو) فلم يخطر ببالي زيارتهم للبعد والبرد في ولاية (ألاسكا) المنفصلة عن الولايات الأخرى بجزء من (كندا)، و(ألاسكا) أكبر الولايات مساحة وأقلها سكاناً وقد اشترتها أمريكا من (روسيا) في القرن التاسع عشر بسبعة ملايين ومائتي ألف دولار (بالذهب).

وقد اشترت أمريكا قبل (هاواي) في أول القرن (١٩) ومعها جزء كبير من الأرض الأمريكية بخمسة عشر مليون دولار من فرنسا، ويزال جزء من (أورليان) يحمل الاسم والرسم الفرنسي.

١١) وقبل أن أختم دراستي في الجامعة وفقني الله إلى تدبر قول الله تعالى: ﴿حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾ في طريق من الفصل إلى المنزل، فذكرتني أني لست بعيداً عن الأربعين (ثم بدأ العد التنازلي) وزادت

تحزمي على السعد عن التقليد الديني والدنيوي شاكراً الله على ما حباني عليه من ذلك.

٩) وقبل مغادرتي (لوس أنجلس) حضرت أول عمل لجمعية الطلاب المسلمة، وكما هي الحال منه قبل ومنه بعد، لم يكن درساً في العلم الشرعي ولم يكن أمراً بمعروف ولا نهياً عن منكر، ولا دعوة إلى (أو على) منهاج النبوة في الدين والدعوة ولا فقه في الدين، بل كان رحلة ترفيهية تجمع أعضاءها على غير عقيدة ولا سنة صحيحة ولا علم.

١٠) وكانت (لوس أنجلس) مثل غيرها من المدن الكبيرة في النصف الغربي من أمريكا والمدن الكبيرة والصغيرة في النصف الشرقي من أمريكا لا يوجد بها غير مسجد واحد يسمى المركز الإسلامي تموله (رابطة العالم الإسلامي) ولم يكن يفتح غير يوم الأحد (ضحىً) تلقى فيه موعظة غير شرعية (عن مثل: سعة الإسلام بالنسبة للغرب بالفرشة والمعجون)، ويعقد فيه زواج من يرغب الزواج، وفي الغالب: لا يركع فيه لله ركعة واحدة. وأول من بنى المساجد شرقي أمريكا: المهاجرون من لبنان لغرضهم الوحيد أن يكون للمسلمين مسجد لا يفتح إلا يوم الأحد والأعياد كما للنصارى وغيرهم معابد.

ع - ولوجود طفلين معي يضيعون بها المكان المفتوح ويضيقان به، وللرغبة في قضاء فترة سفر العودة الطويل بأقل تصعيد ممكن (وبالتالي بأقل نفقة ممكنة)، اشتريت خيمة صغيرة بأعمدة ألمنيوم يسهل تركيبها وطيها وحملها، وموقداً بالكاز (رافور) وأضفت إليها ما تحتاجه من أدوات وأواني المطبخ وألبسة النوم.

١) اخترت أقرب الطرق إلى الساحل الجنوبي بين الساحل الغربي والشرقي لأني سبق أن سافرت بالسيارة نفسها على طريق الوسط وطريق أقرب إلى الشمال بين الساحلين، يبلغ طول كل منها نحواً من (٦٠٠٠ كيل) لتتحقق لي زيارة أكثر الولايات الأمريكية، واخترت الطرق المتعرجة البطيئة على الطرق السريعة لتتحقق لي زيارة أكثر المدن والقرى والأنهار والمواقع الطبيعية والتفريعية وأظنني أني تعمدت نحو (٣٤٠٠٠ كيل) في العامين الماضيين و(٦٠٠٠ كيل) في هذا السفر الأخير الذي امتد ثلاثة أشهر وثلاثة عشر يوماً رأيت من أمريكا ما لم يره ٩٠٪ من الأمريكيين وعرفت من أرضها الله وخلقه ما لا يعرف في الفصل الدراسي.

٢) والولايات المتحدة الأمريكية أكبر بلد في العالم (بعد روسيا وكندا والصين) وأكثر سكاناً (بعد الصين والهند)، وأكثر بلاد العالم تأثيراً على بقية العالم من حيث الثقافة الحديثة ومن حيث مجموع اقتصادها وصناعتها وعلومها وقوتها العسكرية، وهي (٥٠) ولاية أصغرها (رود آيلند) وأكبرها (ألاسكا) إضافة إلى منطقة كولومبيا الفدرالية وغير العاصمة (واشنطن)، وإضافة إلى عدد من الجزر مرتبطة بأمريكا وليست من ولاياتها مثل (ساموا الأمريكية) و(غوام) و(فرجين الأمريكية) و(بورتو ريكو)، ولها من الساحل ما يبلغ طوله نحواً من عشرين ألف كيل، ومن الجبال والغابات والمحميات

(الحدائق الوطنية)، وفيه من أنواع البشر والحيوان والطير ما لا يجتمع لغيرها، وأطول أنهارها (المسيسبي) ويجري من (منيسوتا) في أقصى شمال الى (لويزيانا) في أقصى جنوب بطول (٢٧٨٠ كيل)، وتمتد سلسلة جبال (روكي) نحو (٤٨٠٠ كيل) من (ألاسكا) في أقصى شمال الى (نيو مكسيكو) في أقصى جنوب، وتغطي البحيرات العذبة نحو ما من (٢٤٨,٠٠٠ كم) من أرض الولايات المتحدة الأمريكية، وفيها من العجائب الطبيعية مثل: شلالات (نياگرا الأمريكية) وعرضه (٣٢٠ متراً) وارتفاع (٥١ متراً)، ومثل (كراند كانيون) وهو مجرى حفره نهر (كلورادو) بعمق (١٦٠٠ متر) وطول (٣٤٩ كيل)، ومثل ينبوع (أولد فيثفل) في محمية (يوسيمتي) الوطنية الذي ينفث ماءً في درجة الغليان كل (٦٨ دقيقة) بارتفاع (٤٨ متراً)، لهذا منه خلوه الله قبل أن يعرف الأدميون شيئاً عن هذه الأرض ويستعمرهم فيها فيملؤه (منه خلوه الله) عجائب لا يحصيها إلا الله؛ قليل منها للذكرى (ثم الدخل السياحي) مثل: (تمثال الحرية) يستقبل سفن القادمين من أوروبا وما خلفها، هدية من الفرنسيين الى الأمريكيين تذكاراً لتحالف بين فرنسا وأمريكا عام ١٧٧٨م. ومثل: (منحوتات جبل رشمور في جنوب داكوتا) لوجوه أربعة رؤساء أمريكيين (واشنطن، جفرسن، لنكلن، وروزفلت) تراى - لضخامتها - على بعد نحو (١٠٠ كيل)، ومثل: نحت لأحمر رؤساء الهنود الحمر (كرزي هورس) لم يتمه بعد على جبل (كندر هكن) في ولاية (جنوب داكوتا) أيضاً، وبدأ نحته قبل خمسين سنة، وقتح موقعه للسياحة قبل مرور ربع عام ١٩٧٠، وانتهى نحت الرأس بعد ذلك بربع قرن تقريباً، ويدل على ضخامته أن طول يده سيبلغ مائة متر والريشة على رأسه أكثر من عشرين متراً، ومثل: قوس (سينت لويس - ميزوري) الذي يرتفع (٩٢) متراً في الفضاء باسم (قوس البوابة) تذكاراً لما كانت عليه مدينة (سينت لويس) بوابة للغرب الأمريكي في القرن (١٩).

وأكثر منشآت الحضارة الأمريكية (تعليمية وطبية وصناعية وزراعية وترفيهية) من ابتكار وتنفيذ الأمريكيين (لا الدولة الأمريكية) مما دفعهم إلى ذلك: منفعة خاصة من مال أو متعة أو هما معاً، أو منفعة عامة للوطن والكل. ويعينهم على تحقيق: الصبر والمثابرة والعزم والإصرار، والتعاون بالمال أو العمل. ويبين ذلك بعض التفاصيل عن أحد الأمثلة السابقة؛ نحت تمثال نصفي للزعيم الهندي الأمريكي (كرزي هورس) على فرس: فقد عمل النحات (٤٣) سنة وجيداً على تحويل الموقع الجبلي إلى تحقيق لفكرته حتى أقعده المرض عن العمل فأوصى زوجته وبنيه باتمام المشروع، وبعد (٥٠) سنة من بداية العمل احتفل باتمام المرحلة الأولى من المشروع (رأس الزعيم) بعد أن أزيلت ثمانية ملايين طن من الحجارة والتراب، وصرفت عشرة ملايين دولار من التبرعات ورسوم الزيارة، وقصفت أعماد كبيرة من المرتديين والمتفرجين والضيوف والعمال أسماءها على قائمة الانتظار الطويلة للتطوع بإزاحة وحرقها وقفل مسالكها في تحقيق رمز وطني باسم للأمكنة الأصلية: الرؤوس الحمر.

٢) وتركّز (كاليفورنيا) المتفاوتة بنيه منطقة الفلز الجبلية في (ساره فرانسيسكو)، وبيه منطقة الفضة والثروة المعدنية في لوس أنجلس وما جاورها وبيه منطقة (وادي الموت) شديدة الحرارة (تصل إلى ٧٥ درجة) قليلة الأمطار غريبة النبات والحيوان.
ومرّت بولاية (أريزونا) الصحراوية القاحلة التي يظنّ البعض أنه عملية النزول على القمر لما كانت خدعة مصوّرة على صحراء (أريزونا)، كما أنه من العرب والأمريكيين من يظنّ أنه احتلال العراق للكويت. وتدمير (برجي مركز التجارة العالمي) والقضاء على طيار الباه والسعي العراقي مجرد تمثيلية مبيّتة بهدف التدمير والاحتلال. وذرتني (أريزونا) مع عقدة المؤامرة بصحرائها من حيث الحرارة والحشرات ليلاً ونهاراً.
وزرت (كراند كانيون) أبرز مناطق السياحة، وشكرت الله أنه لم يجعل الكرسي في أي يوم من المخاطرة بمتابعة مجراه في قاع مظاهي تتقاذفه المياه الجارفة. ولم أحرص على إعطائه وقت السفر أكثر مما يعطي الحاج وادي محسّر، وقبل سنة زرت صديقاً عزيزاً في منطقة سياحية مرتفعة (فلاغ ستاف) في هذه الولاية بالسيارة نفسها وحدث في الطريق أن تسرّب الزيت بسبب تلاعب عامل ميكانيكي عهدت إليه بإعدادها للسفر، ولم ننتبه للخطأ إلا بعد ارتفاع صوت (الموتور) بعد نفاد الزيت، ولكنه مع ذلك أمكن الاستفادة من السيارة على أي حال فلم أصلح الخطأ بأكثر من تعويض الزيت المفقود. ومع أنه (أريزونا) معروفة بصحاريها ورمالها وحرارتها فإنه أكثر من نصف مساحتها يعدّ أرضاً زراعية، وما ينقص من طبيعة الأرض يكمله العمل بالوسائل الحديثة.
٤) وفوق (أريزونا) ولايتا: (نيفادا) المشهورة بمدينة القمار واللهو (لاس فيغاس).
و(يوتاه) المشهورة بأكثرية سكانها من (المورمون) وهي طائفة أسسها (جوزف سميث) عام ١٨٣٠ بدعوى أنه ملكاً دلّ على الألواح الذهبية التي تضمنت كتاب المورمون، وهذا الدين يختلف عن النصرانية السائدة في أمريكا بتقرير أنه الربّ وعيسى كائنين منفصلين، ومن أبرز ما اشتهروا به تحريم الخمر والدخان والشاي والقهوة، وإباحة تعدد الزوجات، ولا تزال فرقة من المورمون تمارس التعدد وتتحايل على القانون الأمريكي الذي يحرّم بوصفي الزوجات (فوق الواحدة) بالأخوات لأن القانون لا يحرّم المسافحة والمخادنة، وهم أيضاً يفرضون الحجاب على البنات منذ الطفولة.
٥) وتشتهر ولاية (نيومكسكو) بكثرة تنوع أرضها (الصحراء، البحيرات، الأنهار، الجبال البركانية) وقد مرّت بي خطة سفري على أعلى جبالها (٤٠٠٠ متر)، أهلها من أصل هندي ولهجاتي وأوروبي، وتتميز بحمية (الرمال البيضاء) لناضح اللامع، وبأنها كانت موقع أول تجربة نووية عام ١٩٤٥ ومساحتها (٥٨٥ ألف كم) ويكاد يشطرها سكة شمالاً إلى جنوب أكبر أنهارها (ريو كراند).

وكنت في سفري هذا - حتى الآن - أنصب خيمتي في أحد الأماكن المخصصة للتخييم (سواء كانه عاماً أو خاصاً بأجرة) عندما يحل المساء حتى نقضي ليلتنا تلك المنطقة، وليكن رؤية النهر أغرتني باستئجار منزل على ضفته بضعة أيام للراحة فيه وعناء السفر في هذه المنطقة الجميلة، وليوا استقبلت فيه أمري ما استدرت لم أقيد نفسي بالبقاء وجدانه وأثاثه بعد أن تعودت أياماً على التحرر من قيود الحضارة.

٦) ودخلنا ولاية (تكساس) الفسيحة أرض النفط، وكانت تستقبل بضائعنا للدراسة وأول وأبرز معالم تعلم هندسة البترول والجيولوجيا في (أوستن) عاصمة الطريق صاحب الله ولقربها من (المكسيك) وكثرة المهاجرين من المكسيكيين البيض كانه يوصف بالمكسيكي النحيف، وربما زاده ذلك بُعْضاً لأمريكا وأهلها مع أنه أم ولده صخر أمريكية، ولكنه باتجاهه القومي العربي كانه حرياً ببغضه أمريكا بحقه أو بدونه حقه رغم أنه الله جعلها وسيلة لتعلمه ثم عمله - طيلة حياته - في شؤون البترول وزيراً في دولة الدعوة ثم مستشاراً لخمس دول بترولية، ولعل بغضه لأمريكا ومن روح الشركات البترولية الأمريكية وسوء ظنه بها قد نفعه الله به الدول المنتجة للنفط (أوبك) أو لأعضاء ثم بالتشاور مع تلك الشركات الأمريكية بالأسعار ولم يغامر على تصحيح مسارك وختم الله حياته المتميزة (وظيفياً) بخير فتذلل منه بصدقة مستمرة دنيا وحمله من السابقين إلى المسجد.

وأذكر - للمقارنة - أنه جاء لوبه البترولية كانه يباع في (تكساس) بستة وعشرين سنتاً، أما اليوم فلا يخصه عن ثلاثة دولارات بفضل الله ثم بفضل ذكاء عبد الله الطريقي وجهده.

وأذكر - للمقارنة - أنه أحد من استبلينا به بعده كانه يعد غبنة تضحي أمريكا والشركات الأمريكية على حساب البلد الذي ابتلي به وأنه كانه وحده ضد مقاطعة أمريكا عام ١٩٧٣ ولما فرج الله منه لم يجد أحد مجالاً للاستفادة منه إلا وسائل الإعلام التهريجية منه تهريجه، وكانه الكلب خيراً منه لأنه لا يعض اليد التي أطعمته دوبه استحقاره على أعلى وخلقي.

وهذه الولاية (تكساس) هي أول الولايات ولذلك يحمل علم نجماً واحداً إذ كانت وحدها جمهورية مستقلة قبل اتحاد الولايات الأمريكية، وهي أكبر الولايات المتصلة مساحة وفيها الغابات والجبال والصحاري والبحيرات والأنهار لضافة إلى ساحل طويل شبه استوائي على خليج المكسيك، وأكثر انتاج الذرة من القطن، ومن المعادن النفط، ومن الأنعام: البقر، ومن الصناعة: الكيماويات. وتشتهر (هيوستن) أكبر مدن بمراكزها الطبية والفضائية والعلمية والنفطية وصناعة السفن ... الخ.

٧) وتنفرد ولاية (لويزيانا) بمميزات كثيرة على أكثر الولايات؛ فهي تنفرد بمجرى نهر المسيسبي في نزلته بينما تقاسمه معظم ولايات أخرى قبل ذلك، وبلغ نسبة الملونين (السود بخاصة) عدد الأنجلية، ولا يزال بعضه سكانها من أصل فرنسي يتكلمون الفرنسية، ولا يزال بعضه مبانيها القديمة تحتفظ بهندسة المعمارية الفرنسية (في نيو أورليانز بخاصة)، وكانه الرئيس الأمريكي جفرسن

قد أرسل ممثليه لشراء (نيو أورليز) من حكام فرنسا في أول القرن (١٩) بمليوني دولار، فوجئ المفاوضون بعرضهم عليهما شراء جميع ممتلكات فرنسا (تضمنت ثلاث عشرة ولاية تقريبا) بمبلغ (١٥) مليون دولار، فوقع المفاوضان العقد رغم عدم تفويضهما خوفا من رجوع فرنسا عن عرضها، وسجل التاريخ الأمريكي هذا العقد باسم (صفقة شراء لويزيانا) وتم بذلك مضاعفة مساحة الولايات المتحدة في ذلك الوقت.

و(لويزيانا) وما بعدها من أجمل المناطق الطبيعية في أمريكا لكثرة الأنهار والبحيرات وخصوبة الأرض واستغلالها في الزراعة والرعي.

وتتميز (نيو أورليز) بمناخ الضفة على كل مستوى (فنادق) تذكرني بالمناطق البوهيمية في باريس، وبسكازر، وبمحارة، ونهر المسيسبي يجري في وسطها، وبمنائرها الذي لا ينافس غير مثيله في نيويورك.

وقضينا يوماً أو بعضه يوم على ضفة (المسيسبي) الغربية، وكان أحد أولادي يسلي نفسه برمي الحجارة الصغيرة وكنت أحذره من الاندفاع مع الحجر إلى النهر الذي يبدو راكداً من ثقل ما يحمله من الطمي منذ منبعه في (منسوتا) على بعد آلاف الكيلومترات، ولكنه الطفل لا يتعلم من نصائح أهله كما يتعلم من أخطائه - كما يقول (هرمه يعش) في (سدارتا)، وفجأة فقدناه فتطلعنا إلى ضفة النهر وجدناه يغوص في النهر الطيني شيئاً فشيئاً وأعاننا الله على إخراجه بفضله.

وأثناء إقامتنا في (لويزيانا) جربنا مواجهة الإعصار وطبعاً كان لا يقاس (بكاترينا) فجلسنا جميعاً في جانب الخيمة المواجه للإعصار (وهي من النوع المغلق من الجهات الأربع ومن السقف والأرض حماية من الرياح والحشرات، وناقشنا الإعصار (الخيمة حتى ظننت أنه سيطير بنا وبها، ولكنه الله سلم.

٨) وبعد أن عبرنا نهر (المسيسبي) إلى ولاية (المسيسبي) وقفنا (عصراً) على ضفة النهر الشرقية نرقب بعض الزوار وهم تجري بأهلها فيه، فتوقف أحد الزوار وهو يحمل عائلته من ثلاثة (أيدهم كلبهم) وطلبوا منه ولديّ مرافقتهم في جولة على النهر، وتذكرت قول الله تعالى: ﴿وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة﴾ فلم أر مثل هذه الرأفة في بلد عربي ولا مسلم، وقد يكون السبب نمط الثقافة.

وولاية (المسيسبي) مثل (لويزيانا) قبلها و(ألباما) بعدها من المناطق الزراعية المتميزة (زراعة القطن بخاصة) ولذلك تميزت بكثرة السود، وبعدها ومنع تحرير الرقيق إلى درجة خروج من اتحاد الولايات الأمريكية ودخول الحرب ضد سياسة تحرير الرقيق منذ أعلنه الرئيس (لنكلن)، وقد شهدت في أعوام الستينيات بعض مظاهر التمييز العنصري العلني في (ألباما) وما حاولها إلى درجة اغتيال (مارتن لوثر كنج) مضاد التمييز ومحاولة اغتيال (جيسي جاكسون) مناصر التمييز، وأصابته بالشلل.

٩) ومن (أسبامي) انتقلنا إلى ولاية (فلوريدا)، فأوقفنا - مثل غيرنا - فتاة تعرض علينا أولاً: شرب عصير البرتقال الذي تشتهر به الولاية، وثانياً: استضافتنا الليلة على العشاء والإقامة (٢٤ ساعة) بلا مقابل، وثالثاً: الاشتراك في جولة بالسيارة والقارب لتفقد منطقة الشاطئ لعلنا نشتري أرضاً منرخصة لبناء منزل في المستقبل، ولم يثنها عن عرضها السخي تأكيدنا أننا لا نرغب في شراء أرض ولا بناء منزل في أمريكا وأننا في طريقنا لمغادرتها، فهي موظفة في شركة لا يهمها إلا اصطياد المسافرين لمجرد المحاولة ومن يدري فقد يجد الزائر ما يغريه بالشراء (كما يقول بعض الفقراء تسويغاً لإباحة الزواج بنية الطلاق)، وقبلنا الدعوة فشربنا عصير (فلوريدا)، وأخذنا المكان المخصص للعشاء (أو ما يرمز إليه حتى لا يهرب الزائر بعد العشاء قبل تفقد الأرض في الصباح)، وبتنا تلك الليلة في ضيافة الشركة، وفي الصباح بعد طعام الفطور وجدنا سيارة ثم قارباً في انتظارنا مع عدد من الزوار، وبعد الجولة ساعة على المنطقة قدمت لنا (هدية) سيارة (كاديلاك) أقل من المقابلة بمثل شركة البيع (وهي غير شركة اصطياد المشترين) فأبدينا له شكرنا على الضيافة وإعجابنا بالأرض المعروضة للبيع واعتذارنا جازمين عن الشراء، فاختفت سيارة (الكاديلاك) وظهرت مكانها سيارة أجرة قديمة أعادتنا إلى سيارتنا، ودعونا لهم وأنفسنا بالهداية.

وأكثر ما تشتهر به (فلوريدا): شاطئ (ميامي) ولم تكسه (دزني ورلد) قد أنجزت في ذلك الوقت، وبما كنت أنظر بعين السخط فلم أر ما يميزه عن غيره عدا مئات من الذباب الصغير الجائع إلى تفطية ثوب الشاي وأعضائنا وأنوفنا وأفواهنا، فأشرت إلى السيارة والهرب من الشاطئ المشهور وترك نصيبنا من الذباب.

وأجمل منه وأعجب: مستشفى (إفرجليدز) الذي يغطي (١٠٠٠٠ فدان) من أرض الولاية وتجوب قوارب السياحة بين النباتات والشجيرات التي تنمو في المستنقعات وفيه كثير من الأحياء التي لا تجتمع في غيره، ولكنه لا بد للزائر من دفع ما ظهر من جسمه بمضاد للبعوض الذي يملأ المنطقة.

واتجهنا إلى (كي ويست) أقصى نقطة في جنوب الولايات المتصلة وتبعد (٤٠ كيلاً) عن (ميامي)، وتقرب (٤٥ كيلاً) إلى الجزر الكوبية غير مضافة فلوريدا (١٠) وبداية قطعنا المسافة من أقصى نقطة في الجنوب الغربي إلى أقصى نقطة في الجنوب الشرقي (نحو ٦٠٠ كيل) بدأنا الصعود إلى ولاية (مين) أقصى نقطة في الشمال الشرقي (نحو ٤٥٠٠ كيل) مروراً بعشر ولايات إضافة إلى منطقة (كولومبيا) المقتطعة من ولاية (فرجينيا وميريلاند) لتقام عليها (واشنطون) العاصمة على نهر (البتمال) بمساحة قدرها (١٧٤ كم).

وسميت باسم الرئيس الأول قائد أمريكا إلى الاستقلال من الاحتلال الأوربي

(الانكليزي بخاصة) وقائد الشعب الأمريكي إلى الاتحاد في القرية الثامنة عشر.
والأرض الأمريكية - عموماً - زاهية متعددة الألوان غنية بطبيعتها وثقافتها
وحضارتها الدنيوية، وتتكرر فيها مظاهر الثقافة: (المكتبات العامة والمتاحف
ومراكز البحث) ومظاهر التسلية: (الملاعب الضخمة والمسارح ودور السينما
وحدائق الحيوان والمجمعات - من كل شكل ونوع ولون - والعروض البشرية والحيوانية)
والمظاهر الفنية: (النصب والتماثيل والمجسمات الهندسية بكل وسائل البناء)
فلا حاجة ولا قدرة على ذكرها بالتفصيل.

أما (نيويورك) فهي عالم قائم بذاته، ويلقب أهلها (التفاحة الكبيرة) وهي في
رأي أهل ريه تلقب (الرمانة الكبيرة) لحمرتها ومساحتها (فهي مبنية على
جزيرة ويضم جزء أصغر محاط بالبحر منه كل الحي عدا الجهة الجنوبية الشرقية،
وأنها يسكنها الثلث من ثمانية ملايين (في المركز) وألثلث تسعة عشر مليوناً (في مجموعها).
وفيها أكبر ميناء أمريكي وأكثرها حركة، وهي أكبر مركز للثقافة والترفيه في أمريكا،
وتعد عاصمة المال والأعمال في العالم.

وصلنا ولاية (مين) أحد الغابات والبحيرات والشلالات والأنهار (ألثلث) (٥٠)
وعندما نزلنا في إحدى الاستراحات للغداء أكلنا البطوطة قبل أن نأكل
طعامنا، فانتقلنا إلى مكان آخر نستطيع فيه بناء الخيمة وشراء البطوطة.
ولم يطل مقامنا في هذه الولاية الباردة إذ اخترنا الانتقال إلى منطقة متميزة
(كيبك) في دولة (كندا)، وولاية (كيبك) أكبر الولايات الكندية مساحة،
وأكثرها سكاناً (بعد ولاية أونتاريو) ومساحة ألثلث مليون ونصف مليون
(ك م)، وطولها من الشرق إلى الغرب: (٥٧٠٠ كيلو) ومن الشمال إلى الجنوب:
(٩٠٠ كيلو)، وأكبر أنهارها: (سانت لورنس) الذي يخترق المنطقة بطول (٢٤٠٠
كيلو). وتلك أهم ما يميزها أن ٨٠٪ من سكانها فرنسيو الأصل، وطالبت كثيراً
بالاستقلال عن (كندا)، وزارها (ديكول) الرئيس الفرنسي في آخر ولايته
فأظهر التعاطف مع محاولة الاستقلال بقدمه في العالم الكندي على سفينته
في المياه الكندية (كما يقضي العرف الدولي) وألقى ذلك خطاباً في حفل
استقباله الرسمي: (عاشت كيبك حرة) فأمرت (كندا) بقطع زيارة
وبالرغم من اختلاف سكانها (كيبك) في الأصل والدين واللغة اختلف تعليمهم بين
الكاثوليكية والبروتستانتية وبين الفرنسية والانكليزية.

وتابعنا نهر (سانت لورنس) وما أحيا الله به من نبات وطير وحيوان وتوقفنا
وقتاً أطول في مدينتي (كيبك حتى) و(مونتريال).

وأنهينا زيارتنا (كندا) بالإقامة أياماً عند مصب شلال (نياگرا) الكندي ويلقب: (الحوض ذو الشق) تشبيهاً له بحذوة الفرس في انحناءته، وغير بعيد منه شلال (نياگرا) الأمريكي (غير المنحني) ومع أنه أعلى من الشلال الكندي ويتكونان كلاهما من مصب واحد في منطقة البحيرات الكبرى بين البلدين إلا أن أمة الشلال الكندي بدا لنا أعظم وأروع وأجمل منه من حيث طبيعة التي أوجده الله عليها ومن حيث تنظيمه وتزيينه وكثرة خدماته.

وعند مصب الشلال يجد السائح من الفرائب والخدمات ما يقربه بصرف نقوده من ركوب طائرة هليكوبتر لمراقبة الشلالات من السماء (سبعة دولارات للفرد) إلى شراء نسخة من جريدة وهمية باسم الشلال تروي قصة خيالية بأسلوب وصور تلك في الصفحة الأولى عن نزول ملك الشلال وسط برميل يصارع قوة اندفاع المياه ويهوي من علو نحو خمسين متراً إلى البحيرة تحته.

ولك أن تكتفي بالاستمتاع بجمال المنظر حول المصب بخضرة وأزهارها وسط هدير الشلال ورذاذه. ولو أكابد للختام السنوي أن يكون مشكاً، فهذا أقرب شيء إليه، فلم أر ولم أتخيل في الوجود شيئاً ولا مكاناً يضارعه روعة وهيبة وجمالاً.

وقاومنا الرغبة في الإقامة أياماً أخرى، وقاومنا الحاحي رجل كندي وعده أيضاً المقام معنا منذ البداية. وعدنا إلى ولاية (نيويورك) وأخيراً إلى مدينة (نيويورك)، ولما كان يوم وصولنا يوم الأحد وهو اليوم الوحيد الذي نستطيع فيه إيقاف سيارتنا دون خوف من تحريرها وتغريم أصحابها، أوقفنا السيارة ومشينا على الأقدام إلى مطعم غير بعيد، ولم أنس تحذير الأصل بأني سمعت في المذياع قبل قليل إحصائية تؤكد أنه تسرق سيارة كل دقيقة في (نيويورك) واحتطنا للأمر بتغطية ثلاث حقائب (سمسونايت) كبيرة تضم كل ما لدينا، ولما عدنا بعد ساعة وجدنا السيارة مفتوحة والحقائب مفقودة، وأعمى الله الأصوص عن فتح درج السيارة وفيه تذاكر السفر بالطائرة من (نيويورك) إلى (الرياض)، والشيكات السياحية وبعض الحلي ونحوها، ومرت سيارة الشرطة فأوقفناها وأخبرناه الخبر، والشرطي كهنان (سوفه وساقي وشعبة) كما يقول المثل الشعبي فهو يتحول حسب الحاجة - إلى شرطي مرور، أو دفاع مدني، أو مكافح للمجرمين أو مفرقه للتجمع المخالف للنظام ... الخ، وبدأ يحصي المسروقات فسألته هل يوجد احتمال لردها؟ فقال: لا، فطلبت منه أن يريح نفسه ويريحنا، وحمدنا الله على التخفف عنا من حمل الحقائب والمحافظة علينا كما يقول الرسميون كلما قل متاعك قل خوفك من فقده) وصرنا (مثل ليس معنا من الملابس إلا ما يغطي أجسادنا).

وأقمنا في مخيّم غير بعيد منه وسط (نيويورك) زهيّئ للسّفر، وكانت خطّته الأولى تمرّ بنا على عدة دول في جنوب أمريكا ثم نعبر المحيط إلى جنوب أفريقيا ثم إلى عدة دول في أفريقيا آخرها مصر ثم الرّياضة، وبدأنا نأنس السّفر على هذه الخطة سيكون مرهقاً، فالسّفر بالطائرة يحتاج إلى حجز وتأكيد حجز واحتمال التأخير وسفر متنه وإلى المطار، وليس مثل السّيارة تستعدّ على مهل ثم تدير مفتاح التّشغيل وتنطلق ما طاب لك الانطلاق وتتوقف ما طاب لك التّوقف، فرأينا تجربة طريقة وخطة أخرى للسّفر: الباخرة ذكّرنا بها مرورنا بمكتب للسّفر بالبواخر ووجدنا خمس بواخر هي أكبرها وأكثرها فاخرة: (الملكة اليزابث الثانية) لانكلترا، و(فرانس) لفرنسا و(أمريكا) للولايات المتحدة الأمريكية و(ليوناردو دافنشي) و(مايكل أنجلو) لإيطاليا، ولأنّ الإيطالية أقرب إلى الشّرق جغرافياً وثقافةً (وفوضى وصياحاً) طلبنا الحجز لنا في إحدى الإيطالية مقابل تذاكر الطائرة وصاحة دولار فوقرّ (من نيويورك) إلى (نابلي) أسفل نقطة في جنوب إيطاليا على البحر الأبيض المتوسّط، وذهبنا إلى مكتب الطيران لتعديل التذاكر: من (نيويورك) إلى (نابلي) إلى (بيروت) إلى الرّياض، ورحّب كاتب التذاكر المجوز بتعديل بعد أن تقيّد عليه من قبل ومن بعد كما قال، لمعرفته بما سيلقانا من تعب لو نفّذنا الخطة الأولى، فشكرناه ودعونا له ولأهله بالهداية.

ورجعنا إلى مخيّمنا في انتظار موعد السّفر بالباخرة الفاخرة عبر المحيط الأطلنطي واشترينا بطاقة توضع على زجاج السّيارة الخلفي إعلاناً عن رغبتنا في بيعها، وقبل الإعلان عن البيع استوقفنا رجل أخبرنا أنه من (ألبانيا) في الأصل ويرغب في شراء السّيارة فأخبرته أننا اشترينا قبل عامين بثمانمائة دولار ومن عادتنا بيعها بنصف ثمن شرائها (٤٠٠ دولار) وأننا سنسافر بعد عشرة أيام ولن نتخلى عن السّيارة إلا لحظة ركوبنا الباخرة، فنقدنا (١٠٠ دولار) وتيقنا ليعرف مكان المخيّم فيوافينا ببقية الثمن ويصحبنا إلى الباخرة ويأخذ سيارته وهكذا كان، وأهدينا له كل ما يقي معنا عندنا، ولم نأخذ معنا إلا ثلاثة أكياس نايلون تحمل ما نضطر إليه خلال في السّفر أسبوعاً في البحر وأسبوعاً بين السّماء والأرض.

٢) خشيت من أن تمل العين في الفلك أسبوعاً بين السّماء والماء ولم يخفّ عن الريف مصير الباخرة الفاخرة (تايتنيك) التي أغلقت غرف القاعة عليها بأزرار غير قابلة للفرقعة ففرقعت في أعماق المحيط الأطلنطي في أول رحلاتها وغرق معها أكثر كبار النبيه أدرك حظهم وحالهم وعالم الحجز على رحلتها الأولى.

ولكنه (مايكل أنجلو) مدينة عائمة غير محطمة تلفاز (لم توجد الفضائيات ذلك الوقت) ومحطة كهرباء تكفي مدينة متوسطة، وفيها: عشرة طوابق وبضعة عشر مصعداً،

وفيها أكثر من روضة أطفال، وبلاج يزدان للسباحة، وملاعب ومطاعم مختلفة، وفيها دار للسينما تفتح ثلاثة مرات في اليوم، ويقدم فطور أو غداء وعشاء وراقصة خفيفة بينهما، وأخصصت وقت تناول الطعام في اليوم فوجدته ست ساعات تقريباً، وحتى لا يوجد فراغ تصدر السفينة جريدة يومية، كل ذلك مجاناً. وخصصت لنا غرفة نظيفة بحمام خاص، وسريرية متراصفة للكبار ومثلها للولدين. وبدأت حياتنا في السفينة بالتدريب على الغرق (فصفرت سلامات) بل النجاة منه، وما حيلة العبد الضعيف والحال أنه لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم.

ولم أجد وقتاً للقراءة إلا شيئاً من كتاب الله اعتدت عليه كل صباح منذ أن ألفني عليه زميل في سفر سابق معي أنه لا يفتقد من أهل البيت، ومضت الأيام السبعة وكأننا لم نلبث في السفينة إلا عشية أو ضحاها، والحمد لله أنه لم يجعل سبع ليال وثمانية أيام حسوما.

ونزلنا في (نابلي) مثل الفجر شبابنا القليلة ومتاعنا القليل في الأكياس الثلاثة. والعجب منه أكثر الناس مرحاً وأقلهم هماً (قل متاعهم فقل همهم عليه في وجوده أو فقده) وليس لهم حدود دنيوية تعوقهم عن التمتع بالحياة (ولدينة للأسف لأنهم لا يدعون للدين الحق، ولكني عرفت منهم من هداه الله إلى الدين والدعوة إلى الله على بصيرة). وأصولهم في أغلب الظن غير عربية (تضعهم عيونهم) وهم لا يقاتلون ولا يقاتلون وحياتهم تقوم على المسالمة والتعايش مع من حولهم وتبادل المصالح، وكانوا في الماضي (في جزيرة العرب) يختصون بالمرن التي كانه العرب بأنفسهم منها (واليوم يطالبون بمنافسة الغرب عليها)، وأظن أن الله لم يؤهلهم لها، بل لما هو خير منها: الدين والدعوة على منهج النبوة، فبعث الله خاتم رسله منهم، وأنزل كتابه بلسانهم، وقبل ذلك بنى بيته الأكثر بركة وقداسة على أرضهم ثم أضاف إليه بيتاً مسجد نبوته بليه في البركة والقداسة. مسجد النبي صلى الله عليه وسلم، ولكنه أكثرهم لا يعقلون.

ويقال: بأنه ربطة العنق (كرافات) في اللباس الغربي نشأت منه فرضاً عليهم تمييزاً لهم حذراً مما يتحوطون به من السرقة وغيرها، وأختار الناس منه جنس المرض الغربي وهوسه فاقتدوا بهم شيئاً فشيئاً، ولا علاقة لها بالصليب قطعاً.

ويظن بعض العرب أنهم جاءوا من نسل أوربي صليبي وربما تولد هذا الظن من تسميتهم (صلب)، ولكن الغربيين يظنون أنهم انحدروا من أصل آسيوي، وقد يكون هذا الظن أقرب إلى الصواب فأشكالهم أشبه بأهل شبه القارة الهندية، وفي الباكستان طائفة وثنية يدعون أنهم من بقايا جيش الإسكندر المقدوني.

وكلمة نجري (GYPSY) مرادفة للفظ: مرح في قاموس (أكسفورد) أو: جذاب أو لعاب.

ف - بعد عودتي من الدراسة باشم العمل أو العمل باسم الدراسة عرضت علي العمل في عدة وظائف واختار الله لي بفضله ثم باهتمام الأمير خالد من سعود (وكيل وزارة المعارف) إدارة الإدارة العامة للتعليم الثانوي بالمملكة المباركة ابتداء من عام ١٣٩٤. وانصرفت أول الأمر عن أسفار الخارج إلى أسفار الداخل فجبت الأرض المباركة طولاً وعرضاً أزور المدارس الثانوية وإدارات التعليم أعرضه فكري في الإصلاح على الطالب والمعلم والإداري وكانه الإداري أضيق بهم صدراً بذلك؛ فلم يتعود الأمر بأمر فيطاع ويؤمر فيطيع ضمن الحدود المألوفة والظروف المحفوفة وفي الخروج عنها خطر الضياع.

وكانه سفري دائماً بالسيارة على طرق غير معبدة في الأرض متشابهة فلنكتف بذكر مثال واحد لها: السفر من الرياض إلى عسير وجيزان (مروراً بالمدارس الثانوية على الطريق) وقد قطعت هذا الطريق مرتين قبل سفلتته، وكانه المسافر لابد يخطئ سوقاً من سواه عسير بثقافته وعاداته وأشكاله وألوانه المتميزة، وكنت أحرص على الاستزادة من معرفة حال أهلي وبلادي كما كنت أحرص على الاستزادة من معرفة حال الآخرين وبلادهم من قبل أو أكثر.

وأثناء وجودي في أبها زعانا وكيل أميرها حمد الله الفداء في السودة) مع اثنين من كبار العلماء في المنطقة، وفي الطريق بصحبة مدير التعليم رحم الله استوقفنا مدرس من الأردن والذي علمنا أنه ينزل منزلاً في القرية التي يعمل فيها فدعوناه بإجابة دعوته في طريق عودتنا من (السودة) وجاءنا وكيل الأمير كعادته بذبح عظيم أثابه الله لم يأكل منه الضيف إلا القليل، ولكنه أكثر العرب لا يعرفون من الكرم إلا ما يطبخ في القدر ويوضع على المائدة للأكل أو للزينة والتكاثر ولهوان الأهم.

وعدنا إلى المدرس الأردني الحريص على دخول مدير التعليم منزله ونبهناه إلى أننا أخذنا حاجتنا من الطعام والشراب ولا حاجة لنا إلا الجلوس معه والاستفادة من معلوماته عن الحياة في القرية المنعزلة التي يبدو أنها لم تتغير منذ آلاف السنين ولا ينتظر أن تتغير إلا بوجود الكهرباء وطريق السفلت وهما قادمان لا محالة، فلنغتنم هذه السانحة قبل أن يأتي جيل جديد لا يعرف شيئاً عن الماضي ولا يشكر أحداً على الحاضر (لا الخالق ولا المخلوق)، وقابل مضيفنا الطلب بحبة وقادنا إلى مزرعة صغيرة مجاورة يزرعها رجل وامرأة تحمل طفلاً على ظهرها وطلب منا الانتظار خارج المزرعة حتى يبلغ أهلها خبرنا (قال: هذه عادة الناس هنا وربما يكلم الرجل قليلاً فيضع أداة الزراعة على الأرض، ويومئ إلى امرأته فتترك الزراعة وتذهب إلى المنزل، وتمر على صخرة مستطيلة فيمد يده تحتها ويستخرج شيئاً من العسل فاتحي اللون ويقول: (هذا من العسل الجديد) ثم يمد يده أبعد فيستخرج عسلاً داكن اللون ويقول: (هذا من عسل العام الفائت) وتبعناه إلى

منزل المتواضع، ولم نكد نستقر في المجلس حتى أحضر الفسل بلونيه ومعهما الخبز الشعبي من القمح يكاد يلتهب من الحرارة مما يوحي بأنه التنور والعجين مهيأ للخبز دائماً وأكلت كأني لم أجلس على مائدة وليل الإمارة وذبح العظيم قبل نصف ساعة والتفي زميلي بالمراقبة لأنهم أكلوا الفطور قبل الغداء ويقترفونه الأكل بعده على العشاء أما أنا فتكفيني أكلة واحدة لما كانه الناس يفعلونه منذ القرية الأولى إلى ما بعد منتصف القرية الرابع عشر يوم وصلت موضة الأكل الحديث المتفنن بأنواعه وأسمائه وأوقاته فاتبعناها «سكر أبشر وذراعاً بذراع» هذه القنده بالقنده وهذه النعل بالنعل، وليت الإقتداء قصر على أمر الدنيا بل طغى على الدين. واستشارني مدير التعليم رحمه الله في أمر مدرسة ابتدائية على بعد ٩ كيلاً من أبواب الأبناء بدومه بني ثعلبة في قرية (الحيمة) لم يعرفوا الكهرباء ولا استعمالاته ولا الإسفلت ولا الجرائد (الزفت) ولا كرة القدم، ويأتي بعضهم يمشي مسيرة أكيال يومياً، ومدرسوهم من خريجي المعاهد الأزهرية الثانوية وللتعليم جميعاً ثانوية برأسه مقرراتهم فلان شهريه بينما يجأ أمثالهم في المدينة من طول المقررات وكثرة وثقل حملها، أما زميلي فلم يهتم بالأمر لأنه مسئول عن التعليم المتوسط فقلت: (أنا لكما) لأني أرى أنه الإصلاح واجب على المسلم مطلقاً حسب استطاعته بصرف النظر عن حدود مسئوليته الروتينية، وعاد زميلي إلى الرياض وأقمت بضعة أيام في المدرسة بين معلمي المدرسة وطلابها وأهل القرية لأتثبت من الأمر وأتبينه حدود المشكلة ثم أتعاون مع الجميع على اقتراح عدة حلول تختار الوزارة أحدها. وحصلت على أكثر مما أستحقه من حفاوة وطيبة الجميع، أكلت من خبز المعلمة بأيديهم لأنه لا يوجد مخبز ولا بقالة في المنطقة، وأكلت (الدغابيس) مع الأهالي، ولم أستسغ أمراً واحداً العلق بصحة البادية تعلموه من الحمام: إطراح المودة متبادلة القبل من الفم إلى الفم (ومنه الحب ما قتل) أو لعله تطور لعادة أخرى من القبل من الأنف للأنف (وهي أطيبة بشرط ضخامة الأنف مثل اليهودي والفلسطيني والإيراني)، ولم ير النبي صلى الله عليه وسلم التقبيل لأمته ولم يفعله إلا نادراً. ورأيت أنه أيسر حل للمشكلة: ترك المخلوق لفطرة خالقه بإزالة الحواجز المصطنعة المستوردة عن التعليم والمتعلم والمعلم كما كانت الحال في عصر النبوة والصحبة والاتباع حتى منتصف القرية الرابع عشر عندما وصلت موضة التعليم المقنن لبشر غير فريسته للتقنين، فاتبعناها بغير شرع ولا عقل. ووافقه وزير المعارف على إزالة الحواجز التعليمية لأطفال هذه المدرسة سنة دراسية واحدة فشكرته على ذلك فلم أتوقع منه ذلك ولو لسنة واحدة. ثم أسست مدرسة في الرياض للتعليم الابتدائي والمتوسط تزال منها الحواجز التعليمية بحيث تتسع للغرفة بيه طالب وبيه طالب آخر بل بيه الطالب

نفسه في مادة دراسيّة وبيئة في مادّة أخرى، ووافقت الوزارة بفضل الله ثم بفضل الأمير خالد بن فريدة خالد آل سعود وكيل الوزارة وحُرّاته وثقته ولا تزال حيّة بعد نحو ثلاثين سنة وإنه كانت أشبه بحياة المريض تحت خيمة الأكسجين. وكنت أسافر مرة أو مرتين إلى جيزان بطريق (عقبة ضلع) قبل تعبيدها، وأعرف منه قصة حياته من أهل التعليم أثناء سفره بطريق، فهي عقبة وعرة أم العقبات، إلا أن أوعر الطريق المناسب للحمر وعابر منه النساء أكثر من الرجال، وللقرود قبل أن يتعلموا التسوّل والكسل منه شباب الفراغ والجدة، أو يكتشفوا حياة الزبالة. ثم ننحدر في وادٍ طويل بين جبلين، وتمر بين حين وآخر (بالقفل) يذكرنا بمجنون ليلى ورواة شعره مع الشعار على (القفل بالليل) كما يختال رجل شوقي بجواد الأدغم. وفي سفر سابق سلكت طريقاً أقرب إلى أن يكون من مرابع ليلى ومجنون: من (ليلى) في (الأفلاج) إلى (وادي الدواسر) مروراً بـ (القفل) ومعالم كثيرة كأنه شوقي قد زارها قبل أن يكتب روايته الشعرية الجميلة (مجنون ليلى). ولكنه محاولة العودة من (جيزان) إلى (عقلة الميارك) بطريق الساحل قبل تعبيده تجربة مريرة تنسيك الشعر والشعراء وتفقدك متعة السفر.

ولعل أكثر الظروف أوّل الأمر غير مساعدة كنت أستعير من وزارة المعارف جيب (تويوتا) يعين على تخطي العقبات (الرمال بخاصة)، ومرة كنت أعبر بحار وجبال الرمال بين (ضرما) و(القويعية) على (جمل) رغم قوة السيارة وملئها بالمتاع والطعام ومعي صديق أكبر مني سناً يعوزه السفر في الصحراء على ظهور الجمال وسيارات النقل، وفي بقعة خالية من البشر والحيوان رأينا بدوياً شاباً يسير وحده بلا زاد ولا متاع غير ثوبه وعترة وشنشبه فعرضنا عليه الركوب معنا حتى يفترق طريقانا لنأنس به ونعرف خبره، فظهر لنا أنه لم يكن يبلغ الحلم، وأنه في طريق عودته بعد أن أوصل ثروة العائلة من الإبل إلى المرعى الجديد ليوصل ثروة العائلة من الغنم إلى أهله: سعودي يعيش على الفطرة حرّره الله من الخوف بثقته في نفسه وثقة أهله به، وبالعمل لمصلحة نفسه وأهله خاصة وأمته عامة، وفي هذه السنة بدأ (هواة) سعودي آخر دراسته المرحلة الثانوية والأخيرة من مراحل التعليم العام، أيهما تزكى وتعلم ليحقق فطرته وذاته ويستعمل ذكاءه وقدرته على الإفادة والاستفادة بالتدرب على العمل فور قدرته على التدرب والعمل؟ وأيهما سيؤجل الإفادة والاستفادة وخدمة نفسه وأهله وأمته بحجة الاستعداد لذلك ويقضي عدد سنيه في قليل من الدراسة النظرية وكثير من العبث المنظم وغير المنظم عالة على الأهل والأمة، وسيحرص غالباً على اختيار وظيفة حكومية ترجئ له البطالة باسم العمل؟

ص - وفي عام ١٩٦٢ سافرت إلى اليمن عضواً في وفد المملكة المباركة إلى احتفال وزارة التربية والتعليم العربي في صنعاء، ولأول مرة في ذلك الوقت لم تفرقنا الحضارة الغربية والشرقية بمبانيها الحديثة، بل لم يكد فيرد غير طريقه واحد فسلكت إلى تعز، وعدن للتسجيل أنشأتهما الصبغة الشيوعية، فقد تم إيواء أعضاء الوفود في القصر الجمهوري (الملكي سابقاً) وهو مبني من خمسة طوابق بالطريقة اليمنية القديمة المتميزة:

١) ليست جميع العائلة اليمنية في المؤتمر اللباس الافرنجي، وتطفق في ملكة الاستقبال في المؤتمر فتاتان يمتطيان ماشوقتا الوجه (دليلاً على التقدم والتطور) مع أنه جميع العاملات في مصنع النسيج محجبات أو منقبات. وللمحافظة على شكل الحياة في الشرق والغرب كانت ضيافة المؤتمر لنا ملتزمة بالنمط الافرنجي. فطلبت منه مضيفنا مقابلة الطباخ في القصر لشكره، وقد تعلمت من والدي سنة النبي صلى الله عليه وسلم في الاهتمام بخادمه، وكان والدي رحمه الله يرفض الأكل إلا بمشاركة الخادم والعامل، فأخذت من عادة دعوة الخادم أو النادل إلى مشاركتنا الأكل في أي منزل أو مطعم مع علمي بأنه في الغالب لن يقبل التزاماً بالتقاليد الحديثة المستوردة، ولكني تعلمت أيضاً من وظيفة الدعوة إلى الله وهي الأهم والأعظم أنه على العبد المحاولة وعلى الخالق وحده النتيجة. شكرت الطباخ (أو رئيس الطباخين) وطلبت منه مشاركتنا فيما صنعت يداه مما استطاع، وطلبت منه (وهذا مهم كذلك) أنه لا يحرمنا الأكلات اليمنية فرحب بذلك وأحضر لنا من الأكلات الافرنجية التي سنلزم بها في بلادها، وفوجئ بالشكر وفوجئ بطلب الأكل اليمني فلم يتعود أن يقدم أكلاً يمنياً لنا قط. وفي اليوم التالي توسطت المائدة قصعة الحلبة الخضراء جزاهم الله برهاه وتوفيقه، وأعاذهم من ذل التقليد بلا حاجة.

٢) زرنا سوقاً قديماً في صنعاء لاتكاد تركب فيه إلا خنجراً أو عمده يصنع ويباع، ولمحت طفلاً في السابعة من عمره تقريباً عائداً من المدرسة يحمل حقيبة الدراسة يمشي بتزايد وهدوء غير معتادين في الأطفال مثله، جاء إلى متجر أبيه فوضع حقيبته وأخذ يحمل ثياباً ليحمل فيه يوم سابوه بكل استفزاز وطاقة زملائي لهذا المنظر الفريد قدمت له أحدهم ريالاً فأخذه ووضعه في جيبه وعاد إلى استفزازه في عمله مما يوحي أنه مجرد العمل والانجاز أهم له من اللعب.

٣) وطلب مني رئيس الوفد الأمير خالد بن فرحان آل سعود وفقه الله أن أعد خطاب الوفد للمؤتمر فاشترطت الآتي وهو تبنياً تقليدياً فقبل الشرط بل أبدى فجعلت موضوع الخطاب: الطفل اليمني وصناعة الخناجر والأعمدة كما شهدناها، ثم ختمت الخطاب بسؤال عن تأثير التعليم العصري على هذا النشء الجميل المفيد وعلاقة الطفل بـ، هل سينميه ويطوره أو يقضي عليه بما في ذلك علاقة الابن بالأب؟

وشكر رئيس المؤتمر رئيس الوفد السعودي على تميز خطابه بالتركيز على قضية تربوية من الواقع اليمني، تعلم الولد احترام نفسه واحترام مهنة والده وإعانته بقدر استطاعته، وحاكاه لهذا الطفل اليمني ليكسب هذا الخير كله مضافاً إليه ثقته بنفسه ومظهره المتميز الرجولي لو انصرف إلى اللعب (حتى لا تشرده من الطفولة لما يردد البقاء الصحي أو العمل أو الكفاح أو الإداري دون أناة من علم إلا التقليد الجاهل).

وكاد الأطفال في جزيرة العرب يتعلمون الطاعة والتعاون بالعمل مع أهلهم بداية من سن البهم في الخامسة أو السادسة، ثم صاروا اليوم على الأقل والأمة، وربما سافروا في الفراغ وفقد الاحترام والعمل والفاتحة إلى الفساد والإفساد في الداخل أو في الخارج أو فيهما معاً كما أشرنا في المقدم الأخير.

٤) وعند صياغة توصيات المؤتمر اقترح رئيس الوفد السعودي الأمير خالد ابن فريد خالد آل سعود (وهو من خير من تولى قيادة المؤسسة التعليمية السعودية للبنين) تنقية مناهج التعليم في البلاد العربية من الأفكار الأعجمية المستوردة مثل الاشتراكية فرد عليه رئيس الوفد السوري: لماذا الاتزيلوه فكرة الرأسمالية من مناهجكم؟ فرد عليه الأمير خالد رداً مفحماً: إذا وجدت كلمة الرأسمالية في مناهجنا فأنت مفوض بإزالة القرح.

وطالب رئيس الوفد السعودي بأن تكون التوصية الأولى خاصة بتركيز المناهج المدرسية العربية على نشر دين الإسلام وفهمه بنصوص الوحي وفقه الأئمة الأولى في الدين، فتشبث رئيس الوفد السوري بالمخالفة مطالباً بتقديم العروبة على الإسلام، وضاقه رئيس المؤتمر بالاختلاف لأنه أهم مطلب هو الاتفاق (مثل الوحدة والتعاون) والعلمي غير تقوى. ومع تأييدي لموقف الأمير خالد وشكري لله ثم له لم أر إحراج المضيف لأنه توصيات المؤتمرات بقيت حبراً على الورق وهو الذي أرسل منذ انتخاء المؤتمر (وكل مؤتمر لا يخدم مصلحة خاصة فردية أو حزبية) إلى خزائنه المحفوظات، أما إذا كان يخدم مصلحة فردية أو حزبية فما أسرع التنفيذ، ومنه نشأت (الندوة العالمية للشباب الإسلامي) و(هيئة الإعجاز العلمي للقرآن) و(رسالة المسجد) وكلها يستفاد منها حزب الإخوان المسلمين ولا يخدم فيها الإسلام ولا المسلمين، ومثلها كثير. هذا ما ظهر لي من كل المؤتمرات التي حضرتها بلا استثناء إلا أنه قد تنفذ توصية بمتابعة بعض التقاليد في الدول الضاحية كما حدث بعد سنين عديدة من إنشاء منظمة الثقافة والتربية والعلوم الدولية فقلدت في إنشاء الدول العربية فأنشأت منظمة عربية، ثم الدول الإسلامية فأنشأت منظمة وسمتها بالإسلامية، وكاد الاكتفاء بالمنظمة الدولية أقرب إلى الواقع والمنطق.

٥ - وفي عام ١٣٩٣ سافرت إلى اليابان عضواً في وفد المملكة المشارك في مؤتمر اليونسكو، وقد انعقد المؤتمر في فندق (طوكيو بريس) وفيه نزل أعضاء الوفود، ومع أنه من فنادق الدرجة الأولى فقد تميز عن كثير من الفنادق الغربية بميزتين:

١) أنه لا يقدم فيه أية مخدات على النمط الياباني القديم المعروف أنه الذي يتعرف على الثقافة المحلية ومنح الطريقة اليابانية الفريدة للحياة المعيشية.

٢) أنه عدا من دورات المياه العامة في الفندق زودت بمقاعد مرفوعة ومستعملة الإنكليز (فرنسية)، واليابانيون يعتادون على استعمالها في بيوتهم منذ القدم بل وفي قطاراتهم، والغربيون بدأوا يستعملونها في الأماكن العامة منذ ظهور وباء الأيدز خوفاً من العدوى.

٣) وكنت قبل سفري من الرياض اتفقت مع أمريكي من أصل ياباني على تيسير إقامتي بصفته زوجة المؤتمر في منطقة نائية عن المدن الكبيرة وعن الحضارة الوافدة، وهذا الرجل يقوم على تعليم طلاب البعثات السعودية في أمريكا اللغة الإنكليزية تحضيراً لدخولهم الجامعات (إذ أنه درس اللغة الإنكليزية في المرحلتين المتوسطة والثانوية لاقيمة لها، وأعجب من رغبة القائمين على التعليم تعليم الإنكليزية في المرحلة الابتدائية مجرد تقليد شكلي مكلف).

٤) وقد شاركنا في المؤتمر (شكلياً) وكالعادة لم أر فيه جديداً غير أنه القائمين على المؤتمر من اليابان رأوا من باب الاحتفاء بالمؤتمر وضيوفه أن يزودهم ملكة جمال اليابان الجديدة بقطرات الكثير من مواد التجميل بحيث لو أصابت المطر لنقص ونزل ولربما ظهرت صورتها الطبيعية فكانت أخمسة في صورتكم فأخمسة صورتكم.

٥) وقفاً لترتيب أعدته الإدارة المحلية لولاية (سيكا) اليابانية ركبت القطار السريع إلى منطقة تبعد (٦٠٠ كيلو) فلم يتجاوز وقت السفر إليها ثلاث ساعات إذ أنه هذا القطار من أولى أسرع القطارات في العالم.

٦) استقبلني في المحطة ممثل للإدارة المحلية وصحبني بالسيارة إلى قرية صغيرة وإلى منزل فيها صغير يتميز ببنائه وتأثيثه بما يقرب من نمط الحياة اليابانية الأولى. فالغرفة فيه يمكنه أن توصف بالوصف الحديث (متعددة الأغراض) فهي مجلس نوم فيه بعض الوسائد (لا الكراسي) ويقدم فيه الطعام في حينه، فإذا أقبل الليل أخرجت فرشة النوم من خزانة في الحائط بكل يسر وبلا شيء من التكلف.

٧) وزارني مدرس اللغة الإنكليزية في المدرسة الثانوية القريبة بيته لي ما يخص عليّ من عادات القوم وأدواتهم وأكلهم، وبيته لهم ما يخفى عليهم من حاجاتي وأحوالي: الأرضية مفروشة بنوع من الحصير المصنوع من نبات الرز تشبه ملاكمه يضعف في الأحساء إلا أنه هذه أدق صنعة بل هما حصيرة

(أو مدينتان) بينهما طبقة من الأسفنج تبلغ (٣ سم) لتقي من برد الشتاء القارس.
ودورة المياه كبيرة نسبياً، وأكبرها قسم الاغتسال وينقسم إلى مكانه للتنظيف
بالماء والصابون من صنابير في الجدار، وإلى حوضه في الزاوية مملوء بماء حار
جداً لا يجعل مختلطاً إلا العادة، وهذا الحوض ليس للنظافة بل يجلس حوله الرجال
ثم النساء (بعدهم) لتبادل الأحاديث قبل تناول طعام الغداء، ويقال إنه
ولادة أثرياء العرب في العصر الأموي والعباسي كانوا يعقدون جلسات المذاكرة
(الأدبية بخاصة) في حماماتهم، وبعد انتهاء النساء من إعداد الطعام يخرج الرجال
اليابانيون من الحمام إلى مائدة الطعام ويستعمل النساء فضلاتهم من الماء ثم
من الطعام بعدهن، فالرجل الياباني يسبق المرأة إلى كل حق وللمرأة بعده
ما يبقى. على أن اليابانية الحديثة (بعد الحرب العالمية الثانية بخاصة) مع كل تطورها
وتقدمها التجاري والتقني مرهونة ثقافياً واجتماعياً كما هزمت عسكرياً فالثقافة
الغربية هي الغالبة في اللباس والعادات والتقاليد واللهو رغم عراقة اليابان
وحداثة الغرب.

٨) كان معمل الإدارة المحلية يزورني بين يوم وآخر ويشاركنا الطعام ويحاول
ألا يفوتني شيء من أنماط الحياة اليابانية الخاصة المنقرضة منها والباقية
من عاداتهم للطبيعة والأسلاف وفقاً لديانة (الشنتو) الوثنية القديمة أو
عاداتهم للأصنام البوذية التي وصلت اليابان منذ (١٥ قرناً)، إلى طرق معيشتهم
في اللباس والزواج والبناء والزراعة، ولم ينس أن يريني مقبرة خشبية
ضخمة ظنها أنني لم أرها من قبل (وصدق لهذه المرة) يستخرج منها فضلات
دورات المياه لسماد حقول الأرز، وحمدت الله أنا لا نأكل الرز الياباني.
واليابان واقعة على أربع جزر كبيرة ونحو (٢٠٠٠) جزيرة صغيرة تمتد على شكل
هلال طوله (٢٥٠٠ كيلو)، مساحتها: نحو (٣٧٠٠٠٠ كم٢) قريباً من السعودية.
أكبر مدنها ومدينة العالم: (طوكيو) يقيم في مركزها (٩ ملايين) وفي حدودها الأوسع
نحو (٢٥ مليوناً) من البشر، وفي اليابان كلها نحو (١٢٠ مليون نسمة).

٩) أشهر منطقة في طوكيو (كينزا) يقصدها السياح للتسوق والترفيه، وفيها أكبر
محطة قطار في العالم يوصل إليها (٤٨ باباً)، وتضيق بالمسافرين والقادمين
(عند بدء العمل وفي نهايته بخاصة) حتى تتذكر يوم الحشر فتطلب من الله الرحمة والثبات.
وعلى أبواب اليابانيين (الشباب بخاصة) يميلون إلى محاكاة الغربيين في اللباس
والعادات، في الجد واللهو، فاليابان متميزة بأجسام أطول وبمقدمات أكثر
جاء من بلاد مجاورة: الصين، وكوريا، وسيبيريا وربما الفلبين، وجاءتهم الوثنية
من الصين وأخذوا الفنون من الصين أيضاً. ويتميز السياح بعض عادات
القديمة مثل إعداد الشاي (الثقيل) وتقديمه، ومثل خدمات (الكيشا).

١٠) بعد زيارة قصيرة لأوساكا وهيروشيما وكيوتو مدن أكبر وأشهر مدن اليابان بعد طوكيو، (وخاصة هيروشيما التي كانت أولى مدينة تضرب بالقنبلة الذرية ولا تزال منطقة منها سُميت حديقة السلام تذكّر بالدمار الذي أصيبت به ٩٠٪ منها وإصابة (٣٠٠,٠٠٠) من سكانها عام ١٩٤٥ ولم تتعافَ بعمار أو قرية منها غير الكاز الى بعدها بثلاثة أيام)؛ ركبت الطائرة إلى (تايبي) عاصمة (تايوان) أو (فرموزا) كما سمّاها مستعمروها الأوائل البرتغاليون، وهي جزيرة صغيرة (٢٦,٠٠٠ كم٢) يفصلها عن البر الصيني (٦٠ كيلو) ويسكنها نحو (٢٠ مليونا). وقد لجأ إليها حكومة الصين الوطنية بزعامة (كاي شك) بعد تغلب الشيوعيين عليهم وطردهم وكل شيء فيها للبيع بما في ذلك الفواحش، بينما يحرم الشيوعيون مجرد التفكير وقد غزت منتجاتهم الصناعية الخفيفة كل مكان حتى محميات الزنوج الحمر في أمريكا التي يفترض أن تحتذب السياح بمهاراتهم وتقاليدهم وصناعتهم القديم.

١١) اتصلت بالسفارة السعودية (التي بقيت بعد أن انتقلت الصين الشعبية مقعدها في الأمم المتحدة، بل زارها الملك فيصل رحمه الله ثانيا على العهد) ولم أكن حريصا على زيارة العاملية في أي سفارة لأني لا أوفق عادة في الحصول منهم على نتيجة طيبة أو أنهم لا يوفقون إلى تحقيقها، ولكنه جواز سفري صادر منه وزارة الخارجية بصفتي موظفا حكوميا منتدبا وله أحصل على تأشيرة دخول أي بلد في العالم إلا بطريق سفارة بلادي، وأجابني القائم بالأعمال وكان حديث عهد بيلوي أصابته حمى الموت رحمه الله وأنتم في حادث تحطم طائرة ركبتها إلى (هونك كونك)، فأخبرني أنه ليس بتمكنه (هذه المرة أيضا) من قضاء حاجتي ولكني سأحتاج إليه في أمر آخر: الإعصار متجه إلى الجزيرة وكالعادة ستنقطع أسلاك الكهرباء والهاتف وأنابيب الماء وليس بكوبه الفندق آمنا، فقبلت شاكرا دعوته للإقامة معه في منزل السفير حتى ينجلي الإعصار ولم يك يشاركه منزل السفير غير خادم وخادمه. وجاء الإعصار وتوقفت الخدمات كافة في تايوان التي تغيثه العالم ببيع الصناعات الخفيفة بأقل الأسعار (باب النجار مخلع)، وعرفني ببعض اللبنانيين العاملين في طيران (TMA) الشحنة كانت طائراتهم تأتيهم بزوجهم وغدا منه لبنان: الطرقوقة (القرصان) وجبنة حلوم ولبنة (عصملية) من مروش. و (TMA) أول شركة طيران للشحن حول العالم أنشأها رجل كان يعمل في شركة (أرامكو) قبل أن تصير سعودية ١٠٠٪، وكان مسئولا عن توريد الخضروات والفواكه للشركة من لبنان، ومن ثم الاستمرار في استئجار طائرة على حساب الشركة للتنقل من لبنان إلى الظهران عرض على الشركة أن يتعهد بتوريدها جاهزة على حسابه، فوافقت - كعادتها إفادة الراغبين والقادرين على الاستفادة - على عرضه فاستأجر طائرة على حسابه،

ثم تنبه إلى كثرة عملاء الحدود العربية العربية والعربية الأعجمية (بسبب الخلافات السياسية) والحاجة إلى النقل الجوي فاستأجر طائرة أخرى ثم أخرى ثم أسس شركته التي لم يلبث أن نافس بها بعد حين شركات النقل الجوي حول العالم.

وركبت الطائرة من (تايبي) التي تشبه (هونك كونك) من الكثير من وجه إلى (هاكارتا) وطلبت النزول في نزل ذي طابع إندونيسي فأقلني سيارة أجرة إلى نزل صيني ومؤنث بالخير إياه (غالباً)، ولكني ضقت بهِ وضاقه بي مع أنه من عادتي تحمل العيش في أي مكان، كانت المجاري المكشوفة تؤذي النظر ولا بد أن تؤذي الشم لمن ابتلاه الله بهما (بغيري)، وبحثت عن مكان للتسلية فلم أجد غير (كازينو للقمار) وقد يسلّيني أي شيء بغيره بفضل الله، والإندونيسيون (مع تهذيبهم ونظافتهم وحسن معاملتهم) يأكلون الطعام حاراً جداً مما يضيفون إليه من الفلفل ويشربون الشاي فاتراً، وهم مشغولون بلوثات التصوف، وبجاههم بتجار حضرموت ولهم كان أصل من ثمانية الهند غالباً. ولا يكاد المسجد في هذه البلاد يخلو من الطبل يدق لإيذان بدخول الوقت إضافة إلى الأذان.

وإندونيسيا رابع أكبر بلد في العالم من حيث عدد السكان (بعد الصين والهند والولايات المتحدة الأمريكية) وتقع على أكثر من (٢,٠٠٠) جزيرة تمتد على خط الاستواء، وعلى هذا يكثر فيها المطر، وحرها استوائي، ومساحتها واسعة، وتربتها خصبة، وفي جانب إنتاجها الضخم من النفط تنتج المطاط والقهوة والرز وغيرها، ومع ذلك فهي خاضعة غالباً لتأثير أو حكم خارجي؛ فمنذ (١٤) قرناً تأثرت بالحضارة الهندية الوثنية إلى أن سيطرت عليها الممالك البوذية والهندوسية الوثنية، وقبل (٥) قرون وصل إليها الإسلام، ولكنه (للأسف) وصل مع التجار العرب (ولهذا ما يفخرون به الإندونيسيون الحركيون لجهلهم بالدين) ولم يصلهم مع العلماء أو الدعاة إلى الله على منهاج النبوة (وهم حملة الدين الحق) ولذلك يجمعون بين الطبل والأذان وبين الرقص والوحي وبين البدعة والسنة وبين الشرك والتوحيد وبين الضلال والهدى. وهذا هو (الإسلام اليوم) الذي يدعو إليه قادة الفكر الإسلامي الضال (وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً) يدعون إلى التعددية والصفاء النفسي وقبول الرأي والرأي الآخر، وإفساح المجال واتساع الصدر في الجماعة الواحدة للجماعات، وفي الحزب الواحد للأحزاب، وفي المنهج الواحد للمناهج، بلا ضابط من نصوص الوحي ولا من فقه أئمة الدين في القرون المفضلة ولا اتباع لما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ولا طاعة لولاة الأمر مثلاً (علماء وأمراء).

ثم استعمرت الممالك الأوروبية أكثر من (٤) قرون: البرتغالية والهولندية والبريطانية ثم الهولندية مرة أخرى حتى عام ١٩٤٥م. رد الله الجميع إلى دينه الحق.

١٢) وركبت الطائرة إلى (سنغافورة) وفي ظني أنها ستكون (لسنابة: جنوب شرقي آسيا)، والواقع أنها ليست بعيدة الشبه بها في صغر المساحة وكثرة السكان، وفي المركز التجاري الكبير، وفي تعدد الأديان والطوائف، وفي غلبة الدنيا على التدين، ولكنها تشبه الفنزال بالجمبية: (فمينال عمرانها وجيدك جيدها)، ولكنها تظلم الساقة مثل (فيه) لسنابة أكبر (١٥) مرة من سنغافورة، وسكانها أكثر مرتين إذا لم نضف لليوم المرحجرة ولسنابة بين اليابسة وقبة البحر، وسنغافورة على جزيرة كبيرة و(٦٠) جزيرة صغيرة، ولسنابة بين النصارى قبة المنتمية إلى الإسلام، وسنغافورة بين البوذية والهندوس الوثنية وبين المنتمية إلى الإسلام والنصرانية، ولسنابة تجارة زراعية، وسنغافورة تجارة صناعية. ولسنابة أكثر ارتباطاً بفرنسا، وسنغافورة أكثر ارتباطاً بانكلترا، ولسنابة عربية وللأخرى أعجمية.

١٤) ومن سنغافورة إلى (كلكتا)، وهي المرة الأولى التي أزورها ولعلها تكون الأخيرة؛ فهي ثاني أكبر مدينة في الهند على طرف الشرقي بعد (بومبي) على طرف الغربي، وفيها أهم ميناء في الهند، وهي المركز الصناعي لشرقه الهند. وسكانها خليط عجيب من الناس قد لا يجتمعون في غيرها ويتكلمون نحو أمة (٦٠) لغة. وهي مثل (بل أكثر منه) بقية الهند تشكو من الفقر وشدة الزحام وكثرة العاطلين عن العمل. وقد أنشأت فيها شركة الهند الشرقية البريطانية في نهاية القرن (١٧) الاريكوري. وتجلى برجالي عند منظر رجل نحيف أعمى العينين ثائر الشعر رث الملبس داكن اللون، أينما توجهت وسط الزحام الشديد وجدته أمامي تحدقه في النظر. لم أر السحر ولا الشيطان ولكني لا أستبعد أنه يكون أحدهما أو كليهما.

١٥) وختمت هذا السفر بالمشلك: فزرت أخي الأستاذ/ أحمد القاضي في بومبي، وهو سعودي مقيم في الهند منذ عشرات السنين يعمل بالتجارة ومعه أهله وبنته ولدا وعاشا وتعلما في الهند وتكلما الانكليزية والهندية فإنهما لا يتكلمان في المنزل إلا العربية العامية بلهجة أهل عنيزة كأنهما عاشا فيها. وذكر لي الأستاذ/ أحمد (حفظه الله وخلفه في أهله بصلاح دينهم ودنياهم) أن أخاه (إبراهيم) صار عميداً للمسرح الهندي (الهندي الجنسية).

وبقدر ما ضاقت بي كراتشي وكلكتا وضاقتا بي تتسع صدري لمقامي في بومبي (رغم ازدحامها ورغم مظاهر الفقر والمرض فيها) بصحبة الأستاذ أحمد وطيب أخلاقهم وكرم ضيافتهم (أسكنه الله فسيح جناته) على غير تكلف ولا تظالم.

والهند بلد عظيم في مساحته (أكثر من (٣) ملايين ونصف مليون كيلو متر مربع) وعدد سكانه (نحو ألف مليون)، وطول سواحله (٥٦٣٠ كيلو متر) وزراعته وصناعته، وسبقه الأمم وعلماء الوثنية والفلسفة والثقافة، ثم سبقها فصار في المقاومة السلمية، وطمع محمد علي جناح في الرئاسة باسم الإسلام (وليس له بأهل) وحصل عليها بعد موت نحو مليون من الفئتين وانفصلت (باكستان) وبقي نصف المنتمية للإسلام في الهند، فهم (١٠٪) من سكانه، تجاوز الله عما مات موحداً.

ر - وفي عام ١٣٩٤ تذاكرت مع شقيقتي الحاجة إلى وجود بيت متنقل يحل مشكلة الإقامة في السفر داخل المملكة المباركة (رأينا بفضل الله شركاء في القليل والكثير من متاع الحياة الدنيا لما كانا أهلنا وغيرهم قبل أن يحل الشتى - وما يسمى بلغة العصر: الأنانية - محل التسامح والتعاون)، فاشترى أخي أثناء دراسته في أمريكا بيتاً بسرير كبير فوقه مقعد القيادة، ومجلس يحله تحويل إلى مكانه لنوم اثنين أو ثلاثة، ومطبخ بثلاجة، ودورة مياه كاملة، وخزان للماء ينفتح بفتح الحنفيات أو الدش، وخزانة للملابس، وثلاجة وخزان ماء عملي للغاز، وخزان للمياه المستعملة. ويحمل هذا البيت عند الحاجة إليه على (ونيت خمس)، وعند عدم الحاجة إليه يرفع على رافعات مثبتة على جانبيه ويخرج الونيت من تحته لاستعماله منفرداً، ولما كانت موانئ المملكة المباركة في بداية (الطفرة) التي تحققت بفضل الله بعد زيادة إنتاج النفط وزيادة ثمنه، لما كانت الموانئ مزدحمة بحيث لا يتيسر تفريغ السفينة إلا بعد انتظار أيام وأسابيع وأحياناً أشهر، إضافة إلى التعقيد الروتيني في إجراءات الجمرك والتسليم، طلبت من أخي حمله البيت (مع ونيته) إلى أي ميناء أوروبي فتم شحنه إلى ميناء (لوهافر) الفرنسي على القناة الانكليزية، وسافرت معه أربعة من الأهل والأولاد إلى فرنسا لم نحمل منه وثائق الشحنة غير اسم الشركة ورقم (بوليصة) الشحنة تقدم بالله ثم بمشرر الإجراءات الإدارية الأوروبية (قبل أن يقلدها ويعقدها غيرهم فيما يسمى بالعالم الثالث):

١) في (لوهافر) تركت الأهل على الرصيف ودخلت إلى مكتب شركة الشحنة، وخلال عشر دقائق وقعت الاستلام وخرجت بالبيت المتنقل وفوجئ الأهل بسرعة عودتي إليهم، فشراء الخبز أو الحليب من البقالة يأخذ وقتاً أطول، فقلت: أشكروا الله على الأصل واشتكوا إليه التقليد؛ فالعرب لا يتجاوز نصيبهم من الحضارة التقليد ولكنهم لا يحسنونه التقليد، وهم لا يبتكرون ولا يحسنون استعمال إنتاج غيرهم، هداهم الله لأقرب من هذا رشداً. ولو كنت في شك من ذلك فتذكر ملايين الصوت والمراوح والمكيفات والمصابيح والثريات الكهربائية في المساجد (وهي قدوة) كيف تستعمل؟ وتذكر الإدارة في المؤسسات الشرعية (قبل غيرها) كيف تنفذ؟ وتذكر الجوال والإنترنت ومختلف الخدمات (الماء والكهرباء بخاصة) مقرونة بالإسراف الذي لا يحله الله. ومع أننا نستورد ولا ننتج فإننا نحب المستوردات إلى المواطنة بالإعلانات التجارية، حتى نرغب فيما لا نرغب ونشتري ما لا يحتاج منذ الطفولة حتى أرذل العمر، وكان حقاً على المسلم شرعاً وعقلاً أن يتجنب الإعلانة التجارية (وهو المستهلك لا المنتج).

٣) واتجهنا جنوباً إلى الحدود الفرنسية الإسبانية لا نسأل عن فندق ولا مطعم بل نطبخ وناكل وننام، ونتوضأ ونصلي - عند الحاجة - داخل المنزل المتنقل، لا يكلفنا السفر الكثير سوى ثمن الوقود وقليل من الضرائب الإدارية والسياحية. ونحمد بفضل الله نحرص على القصد (الذي كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم في الفقر والغنى) ولو أننا بفضل الله متعاقدون على عدم الإدخار ولو طعاماً مرصوداً تحسباً لنية أو حاجة، فقد أغنانا الله بروائع الدولة المباركة عن التجارة والادخار.

٢) وعند الحدود الفرنسية الإسبانية بلغت كثرة السيارات (الراغبة في العبور جداً لم يجد موظفو الحدود حلاً له غير فتح الحدود على مصراعيها دون نظر إلى جوازات السفر ولا أوراق السيارات، وحل هذا مشكلة خاصة بنا فسيارتنا تحمل لوحة واحدة أمريكية خلف السيارة حسب نظام الولاية التي اشتريناها منها المنزل المتنقل بينما النظام الأوروبي يطلب لوحة أمامية كذلك، ولكننا استشرنا موظفاً في الحدود - احتياطاً - فدلنا على مخرج أثبت: كتابة رقم السيارة على الحاجز الأمامي بخط واضح، وهنا نظهر الفرق بين مجرد التنفيذ الحرفي للروتين النظامي وبين تحقيق المصالح.

٤) في (برشلونة) وجدنا خلقاً كثيراً في أحد الملاعب الرياضية، ولم يلبثوا هناك لمتابعة أجمل لاعبي كرة القدم ولا مصارعة الثيران، ولحسن الحظ تجمعاً دينياً لطائفة (شهود يهوه) فقد أيقظت (الصحوة) المعاصرة العاطفة الدينية في كل مكان ولكل طائفة وتتجه إلى ما ألوف دينهم (المبتدع غالباً) وليس إلى ما رضيه الله لهم من النية الحق، فصار البروتستانت والنصارى إلى ما حرّف أسلافهم، وصار المتصوفة والمبتدعة عموماً، والمتحزبون، والمغرر بهم من المنتمية إلى الإسلام (وهم الأكثرية الأقلوية) إلى مناهج قادتهم النية شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله (كل حزب بما لديهم فرحون).

٥) ولما رأينا بعض السيارات موثقة بالسلاسل والأقفال في مدريد وغيرها من المدن الإسبانية الكبيرة ضعفت رغبتنا في الإقامة أكثر من أيام قليلة، (ولو أننا نقيم في سيارتنا ونصبح إلى الشرطي والجبل والبحر) خشية سرقة في الأوقات القليلة التي نفارق للتزود بحاجتنا من الطعام أو الشراب، أو مشاهدة عرض سياحي أو نحو ذلك.

ومررنا بعدة مدن تذكرنا أسماؤها الأعجمية العربية بالحكم العربي: (مجريط وقرطبة وإشبيلية والجزيرة وبلنسية) ورأينا شيئاً من آثارهم المعمارية التي تسمى خطأ - إسلامية، فالإسلام الأصيل إنما نزل به الوحي وفقه منه أهله، ولم يتضمنه الوحي ولا الفقه في الدين هندسة معمارية (ولا فنا ولا فلسفة ولا فكراً مجرداً ولا نشيداً)، وغالب هذه البناء الأندلسي ومنفذوه

منه خارج جزيرة العرب (ومقتبس منه ثقافة أخرى) ولذلك لا تجده داخلا.
والله تعالى لا ينظر إلى الصور والأشكال بل إلى القلوب والأعمال؛ فلا
فخر للإسلام ولا المسلمين حقا في مخلفاتهم المعمارية بل يكفي طرافة لا يحبه الله.
٦) وعبرنا الحدود الإسبانية البرتغالية لنلقي نظرة على هذه الدولة الصغيرة (٩٠
× ٨٠ كم) على ساحل المحيط الأطلنطي، وصارت قوة بحرية في القرون (٦) وفي
القرن (٢٠) كانت تملك من المستعمرات (في آسيا وأفريقيا خاصة) نحو أمة (٢٢) ضعفا
زيادة على مساحة الأوروبية. ومع أنه اللغة البرتغالية هي لغة (١٠) ملايين برتغالي
فهي لغة (١٢٠) مليونا في البرازيل و(١٠) ملايين تقريبا في غيرها. وفيها بعض الكلمات
من أصل عربي أثر من حكم المسلمين والعرب شبه جزيرة (آيبريا) حيث انشغلوا
بالترف عن نشر التوحيد والسنة (تجاوز الله عنا وعنهم) فضيعوا الدنيا والدين.
وفي سوق (لشبونة) كنا نبحث عن لحم الضأن فوجدنا بيه الذبائح المعلقة غزلانا.
٧) وتشرفنا الساحل الإسباني على البحر الأبيض المتوسط إلى الحدود الفرنسية
وفي (كانه) من الريفيرا الفرنسية تذكرنا أبيه خزانة (المياه المستعملة في المنزل المتنقل
يحتاج إلى تفريغ فلم نجد خيرا من تلك الخضر في طرف الشاطئ الجميل يفتقر
إلى السماد العضوي فأفرغناه فوقه لينحدر إلى البحر بعيدا عنه الله عليه ولا يؤذيهم.
وفي (مونت كارلو) خشينا الاختناق من زحمة السيارات في طرقاتها
الضيقة، وذاقت مرة ما ألفنا شرطيا هل يمكننا الرجوع إلى الوراء
لنجد طريقا أوسع فأشار إلى الأمام بأنه السبيل الوحيد، وسمع بعض
المتسوقين والجالسين في سوق ومقهى صغير طرفا من الحوار الذي انتهى
بإشارة الشرطي إلى الأمام فركضوا إلى سياراتهم يريدون بأعينهم خطف
السائحين من بين جزيرة العرب، وسلم الجميع بفضل الله وحده.
٨) وعبرنا الحدود الفرنسية الإيطالية متجهين بقمة (الريفيرا) في الجانب الإيطالي
ولكن تبدأ قبل (سان ترومبز) الفرنسية مرورا (بمونت كارلو) حتى (مونا كو) إلى (سبيزيا) الإيطالية
بطول (٢٧٠ كيلا) تقريبا من الشواطئ الرائعة الجميلة والخدمات السياحية، أما
إنتاج الزراعي (الزيتون والورود بخاصة) فقليل من يقرفه أو يهتم به.
ومن (لا سبيزيا) صعدنا شمالا لأبشر من إلى الحدود اليوغسلافية لعلنا نوفق إلى
عبورها وبعدها إلى (بلغاريا) ثم (تركيا) بطريق البر، فلم نحصل على تأشيرة دخول
إلى (يوغسلافيا) كما حصلت عليها في المرة الأولى قبل (١٣) سنة. فانحدرنا إلى جنوب
إيطاليا مرورا بروما، ومن أقصى جنوب إيطاليا ركبنا (مع منزلنا المتحرك) العبارة
إلى اليونانية وقطعناها بطولها لا نتوقف إلا قليلا في بعض مدن، ولا نخطئ عابر
اليونانية ثلاثا: كثرة المقامات والمزارات الوثنية على الطرق (من أجل هو أكبر منع).
وكثرة العجائز يعمرن ويسرحن الشيب. وكثرة بيع المسابح للذكر، وقد اقتبسوها

النصارى (مثل مبتدعة المسلمين) من وثنيي الهند (الهندوس) كما أخذها منهم (البوذيون). وأخذ أكثرهم من الهندوس: الرقص عند الذكر (اليهود عند قراءة التوراة ومبتدعة المسلمين عند قراءة القرآن والبوذيون عند ذكر صفات بوذا) وأكثر البدع. والطريق إلى تركيا جبلي طويل متشابه لا يفرق المار بالتربيت فضلاً عن الإقامة.

٩) وعبرنا الحدود التركية، وطريقها إلى الحدود السورية أطول من الطريق اليوناني ولكنه الناس أكثر وألطف، والمقاهي والمطاعم كثيرة على الطريق تخفف من الرتابة، ولصاحب تركيا الخيار في متابعة السواحل التركية حيث المناظر أجمل والخدمات متوفرة ورخيصة أيضاً.

ولم نجد لهذه المرة حاجة لعبور البوسفور على ظهر سفينة عبارة كما حدث عام ١٩٦١/١٣٨١ عندما مررنا به في المرة الأولى، فقد بني جسر على البوسفور يغني عن العبارة.

وفي سوريا التي دخلناها من منفذ (كسب) تابعنا الطريق الجبلي المطل على البحر الأبيض المتوسط مروراً ببانياس واللاذقية وطرطوس ثم انحدرنا جنوباً إلى (حمص)، ثم انقلنا إلى دمشق. ونحن معتادون على التخييم سنوياً في مخيم على أول طريق حلب من دمشق يملكه بعض المعلمين، وعادتنا الإقامة في خيمة صغيرة، أما لهذه المرة فسنعنا منزلنا السيار الذي لم يجوجنا إلى الضاد ولا المطاعم منذ استلمناه في (لوهافر) حتى وصلنا إلى الرياض في سفر قارب (١٠٠٠٠ كيل)، والحمد لله على نعمه بالدين والدنيا في الحل والترحال.

وقد وجدنا أن المنزل المتنقل يمكنه أن يحقق لنا مآرب أخرى لأنه منفصل عن سيارة نقله فكنا نضعه أحياناً في مكان بعيد عن المنزل مئات الأكيال، ثم نتردد عليه أسابيع أو أشهر يقيم فيه أحدنا أو من لنا علاقة به حسب الحاجة إلى ذلك.

وفي أوروبا وأمريكا توجد مخيمات تعين على الاستفادة من ربط بخدمات الكهرباء والماء وأنابيب الصرف الصحي.

وأقرب ما عرفت في البلاد العربية إلى ذلك هذا المخيم السياحي في غوطة دمشق أول طريق حلب الشرقي، وهو بستان متوسط المساحة، فيه أماكن للتخييم ووقوف للمنازل السيارة، وفيه بقالة صغيرة ودورات مياه شعبية كافية. اختلفت عليه الأيدي خلال تردد علي نحو عشر سنوات، ثم تملكه صديقي العامل المصري فيه من افتتاح مخيم جديد في أرضه مجاورة تعاوناً معي والدي وجيه السورية، بارك الله لصديقي (رزقه) في أهله وماله وعمله وعلمه.

وبعد تلك التجربة عندنا وجدت أن الإقامة في مثل هذه المخيمات خير مقاماً وأحسن نزلاً، ولكنه التقليد والتباهي والتكلف في الدنيا تضطر به آدم إلى مخالفة عقله وقلبه، وفي التوبة إلى مخالفة شرع الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

ش - واشتركت عام ١٣٩٥ في مؤتمر لليونسكو بجنيف مرة ويسرا وغبت هذه المرة أنه يكويه لي أثر (ولو غير مرغوب) في بحوثه ومناقشاته فاقترحت أنه أطلعني أعضاءه على وجهة نظري في إصلاح هيكل التعليم الثانوي فرفضه رئيس الوفد (د. أحمد بن محمد علي وكيل وزارة المعارف للشؤون الفنية) وكان رفضه مؤدبا كعادته وبلباقته غير (ما أملكه)، وما كنت أتوقع منه غير ذلك فقد رفضه الفكرة عندما عرضت عليه في الوزارة مرة أو مرتين، ولا يهمني به الخبرة النظرية التربوية ولا العملية، بل ولا يهمني بر النظرة إلى الإدارة ولا طريقة التنفيذ، فهو مثال الرجل النظامي التقليدي (ومنه خيرة منه عرفت نزاهة وجدا ومواظبة ومحافظة على العمل) وليس من شأنه مثله الخروج عن المألوف.

وعلى العكس فإني لا أنوه في النظريات الإدارية (والتربوية والاجتماعية والنفسية) فهي مجرد نظرية تعود الناس عليه فقبلوه، وأنا لا أحترم المألوف حتى أختبره فيثبت لي أنه الأصلح (فهو عندي متهم حتى تثبت براءته مثل المسلم تصدا انحراف أكثر المسلمين عن الإسلام عند مؤسسات الأمة)، وأنا لا أحترم الروتين (إلا فيما يخدم المصلحة) ولم مرة تركت مكتبي إلى مكتب آخر قريب أو بعيد (استئذان ولا استئذان ولا استئذار وشيء من أي نوع)، وفي المرات القليلة التي تذكر فيها المسئول (عن حضور رؤساء الأقسام) مسئوليته وجدني غائبا وفقدت راتب يومين أو ثلاثة فلم آبه ولم أحتج ولم أعتذر، ولو قويت ذاكرة المسئول ونشط لمتابعة الحضور لما بقي لي راتب يذكر، ولما غيرت طريقتي، فالمهم المصلحة وقد سرني بعد هذه بضع سنوات أنه أقرني على هذا النهج أشهر الإداريين حرصا على تنفيذ النظام (ونزاهة وخلقا ومواظبة وحزما) د. عبد العزيز الخويطر ختم الله له بصالح النية والعمل، وبالمغفرة والرحمة والثواب، فقد عينه وزير المعارف في وقت طلبت فيه الإحالة على التقاعد، فسأل وكيل الوزارة عن السبب فأجابه بأنه سئم أكره القيود الزمنية والمكانية، فقال: يمكنه البقاء في العمل دون قيود زمنية ولا مكانية، ولم أصدق ما سمعت، فسألته: هل يجيز النظام ذلك؟ (صدرت نظاما أكثر منه)، فقال: نعم، أنا وزير المعارف وأنا أعين لديوان الخدمة المدنية (بالنيابة) وأنا مفوض بتحقيق المصلحة ولو استثناء من النظام.

وبقيت بضع سنوات في وزارة المعارف وأكثرها (٢٠) سنة مع رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة ثم مع وزارة الشؤون الإسلامية (في الخارج) بلا قيود زمنية ولا مكانية، فضلا من الله ونعمة. وتذكرت قول (هرمز هرمس) (القدر: أثر ثابت على الرغبة في الأمر وطلبه فيتحقق عاجلا أو آجلا) وهو وإن كان لا يصلح قدوة ولا يعرف بالتدين وإنما بالفلسفة وهي ظن أو خيال، فإنه هنا

لا يبتعد عن الحقيقة والواقع، فالرغبة في الأمر والمثابرة على طلبه منه قد الله على عبده، والصاقته من الله وحده، وقال الله تعالى: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾، وقال تعالى: ﴿كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا﴾.

وعودة إلى مؤتمر اليونسكو في جنيف؛ حاولت مخالفة رأي رئيس الوفد فطلبت الكلمة في المؤتمر، ولكنه كان يرأس المؤتمر فتجاهل طلبي، ولا ألوم فلربما فعلت ما فعل لو كنت مكانه وكان مكاني.

وعندما حان وقت تنفيذ الرغبة والطلب هيأ الله أسبابه: الخطة الخمسية الثانية واهتمام الأمير خالد به وبرؤيته خالد آل سعود (وكيل الوزارة للشؤون التعليمية والإدارية) وتحمله مسئولية التنفيذ، فانفتحت كل الأبواب المغلقة وبدأ التنفيذ واستمر عشر سنوات بنجاح لم يتوقعه أحد (ولا مقدم الفكرة) حتى جاء التطوير بالحلو فأعموها، وكانت نتيجة (التطوير): إلغاءها بعد بضع سنين.

و(سويسرا): الاسم الإيطالي (بعد تعريبه) لهذا البلد الأوروبي الفتي جدا بأيدي أبنائه الفقير جدا إلى الثروة الطبيعية، فلا نفط ولا معادن ولا مزارع كبيرة، بل تحتل جبال الألب (٧٠٪) من أرضه، ولم يحصل على مستواه المعيشي البارز من المهارة التقنية والصناعة التصديرية الخفيفة، والثقة في استقراره وحسن إدارته صار مركزا ماليا متميزا. وهو مركز سياحي متميز أيضا بموقعه الجميل في وسط أوروبا وبحيراته الكثيرة وأشهرها: بحيرة جنيف، ومنه ينبع نهر الرابع والرون، ويقصده السياح في الشتاء للرياضات الثلجية، وفي الصيف لاعتدال مناخه. وقد حافظ على حياده بقوته العسكرية، وفيه أربع لغات وطنية بتعدد أعراقه أهله الذين يجمعهم الاتحاد الفدرالي لأربع ولايات أو كانتونات.

وقد رفضه الناخبون السويسريون عام ١٩٨٦ الانضمام إلى عضوية الأمم المتحدة، فبقيت (سويسرا) على علاقة بالمنظمة الدولية بصفة مراقب دائم. وأقر الناخبون عام ١٩٩٢ الانضمام إلى البنك الدولي وصندوق النقد الدولي.

ومع أنه ليس لسويسرا منفذ في أربعة أبحر فليس لها اطلالة على البحر مثل جارتها: إيطاليا وفرنسا وألمانيا،

وفيه سويسرا والنمسا عشر واحدة من أصغر بلاد العالم (ليختنشتاين) لا يكاد يعرف أو يرى على خارطة العالم، ومساحتها لا تتجاوز (٤) مساحة الرياض، واسم من اسم العائلة التي تحكمه، فهو تحكمه بملكية وراثية مثل جل دول أوروبا في الماضي والكثير دول أوروبا الغربية في الحاضر، وتتاجر الصناعي الدقيق لا يستغنى به إضافة إلى الزراعة والسياحة.

ولكنه النجاح الصناعي والزراعي والسياحي، والاقتصادي عامة لا يضمن السعادة فالانتحار لا يتعرف طريقها إلى وجوه السويسريين (والأطباء) إلا ما ندر فضلا عن الضحك الذي اختصت به إيطاليا المفلسة،

ت - وفي عام ١٣٩٧ سافرت مع اثنين من جماعة التبليغ لحضور اجتماع (تونكي) السنوي في (بنغلادش).

وليس من عاداتي ولا عاداتي اتباع (الجماعات والأحزاب والفرق والطرق) المنتمية إلى (الدين)، لأن الدين الحق عندي وعندنا: الله واحد لا شريك له، والرسول واحد لا نبي بعده، وجماعة المسلمين واحدة، وحزب الله واحد، ومنهاج الدين والدعوة واحد: الوحي بفهم فقهاء المقدمة المفضلة الذين لم يخلطوا بقية الوحي بفكر البشر الظني. ولكن قالت جماعة التبليغ يدعون أنها ليست جماعة ولا حزبا ولا فرقة، مثل (بيرم التونسي) عندما منعه الانكليز في (مصر) زمن الاحتلال العسكري من إصدار جريدة ولا مجلة، فأصدر مطبوعة سماها (ليست لا جريدة ولا مجلة).

وبصرف النظر عن الادعاءات والمعاني فإنها (جماعة التبليغ) أو (جماعة الدعوة) أو (الأحباب) جماعة وحزب وفرقة وطريقة خاصة (في الدعوة إلى الله، وهي من الدين) مستقاة من جماعة المسلمين منحرفة (بلفظ أبي بكر أبو زيد شفاه الله) عنها بأميرها ومركزها ومنهاجها (وهو الأهم) ثم بأحد أسمائها (أيها تختار).

ولكنه كتب إلي من أمرها: مخالفة الجماعة البارزة الأخرى (الإخوان المسلمين) بانصرافها عن جمع المال، والاستيلاء على المؤسسات العامة والخاصة والوظائف، ومنازعة من ولاهم الله الأمر سلطانهم، واختصاص القادة بالدعوة (ولو كانوا من غير أهلها).

وكتب إلي من أمرها: عدم الاهتمام بالشكل (في أمر الدنيا)، والتمسك بالسنة (في أمر الدين) في حدود معرفتهم بسنة العادات والآداب والأخلاق والهيئات.

وليس من منهج مخالفة منهاج النبوة في الدين (مثل بقية الجماعات والأحزاب والفرق والطرق) بإهمالهم الدعوة إلى إفراد الله بالعبادة (أول ما أمر به جميع الرسل) وإهمالهم الذي هو عين إشراك العبد مع المعبود في العبادة (أول ما نهى عنه جميع الرسل).

وسادس منهم أنه دعوتهم على غير بصيرة، فلا يجتمعون على العلم بأحكام الشريعة (اعتقادا وعبادة ومعاملة) ولا يتفقد منهم العلماء بأحكام الشريعة، فهي (كما روي عن الشيخ الجزائري ختم الله له بالسنة والجنة): دعوة العوام للعوام.

١) ركبنا الطائرة إلى (داكا) وأقمنا أياما في مركز الجماعة به استماع لدروس مشايخ الجماعة (المحصورة في الرقائق بالقصص والأمثال) وبه دعوة عامة (في المساجد) ودعوة خاصة (في المنازل والمكاتب)، تستغني بعلم الفضائل عن علم المسائل.

وقد يكون بعضهم عمره فألقي على شبه أهل القارة الهندية فكثيرا ما أجد منهم يكلمني بلكنة (الأردو)، وبما أعطاني صاحب متجر (داكا) حوالي ريال ظننا منه أني أطلب صدقة، جزاهم الله برا.

٢) وهذا موعد الاجتماع فانتقلنا إلى مكانه على بعد (٥ كيلو) على ضفة نهر جاي كبير.

وفي (تونكي) على ضفة النهر مبنيتان منفصلة متواضعة منه الخشب تتداعى منها دروس المشايخ وضيوفهم من أتباع الجماعة عربا وعجما، ولكنه دروس الأتباع تترجم بتصرف (أو تهذيب بلفظهم). وهي لا تتجاوز الرقائق (بالقصص والأمثال) تحريضا لحث الحاضرين على الخروج مع الجماعة (في سبيل الله بزعمهم) للدعوة على المنهاج الذي اختاره (محمد إلياس) ثم ابنه (محمد يوسف) ثم زوج ابنته (محمد زكريا) تجاوز الله عنه مات منهم ومن غيرهم لا يشرك بالله شيئا ويعد للعرب خطيرة خاصة لإقامتهم ومعهم القادمون من أوربا وأمريكا ونحوها. أما بقية المشتركين في الاجتماع وعلامهم من (بنغلادش) فيتولى كل منهم أمر نفسه ولا يعدلهم من الخدمات إلا بعض دورات المياه المتواضعة تلفى القريبة من المنصة. ويتبارى أتباع الجماعة في تقدير عدد المشاركين في الاجتماع من مئات الألوف إلى آحاد الملايين، فيبالغون في التقدير ظنا منهم أن كثرة العدد دليل على صلاح الدعوة ونجاحها، ولحكامة العدد دليلا لحكم على الكثرة بالضلال، فقد قال الله تعالى: ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون﴾ وقال تعالى: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ وقد مدح القلة فقال تعالى: ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾، وقال تعالى: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم﴾.

٢) وبعد بضعة أيام انفض الاجتماع وعدنا إلى (داكا)، وصحبت أمير الجماعة في زيارة لرئيس القضاة نائب رئيس مجلس الوزراء البنغالي ذلك الوقت، وعند خروجنا اصطف حرس الرئاسة لأداء التحية فانتصب أمير الجماعة لردها، وبعد عودتنا إلى مركز الجماعة طلبت الأمير منا إخفاء خبر هذه الزيارة عن المشايخ في (لاهور) فأنسيت هذا الطلب وذكرت ذلك لأمير الجماعة في دلهي ولم أتنبه لخطئي إلا بعد أن رأيت أثر ذلك على وجهه، وعزا مني من هذه الواقعة أمران: وجود أساس للخلاف على الإمارة وكذه عدم تعيين خلف للأمير بعد موته، وإنما عمر بالخلافة لعدد منهم، فأهل (لاهور) يرون الحق لهم لأنهم القائمون على مركز الجماعة الأول ومنهم أهل اختير الأمراء الثلاثة السابقون، وأهل (داكا) يرون الحق لهم لأنهم يجمعون أكبر عدد من البشر في اجتماع (تونكي)، وأهل (رايوند) في الباكستان يرون لأنفسهم حقا بكثرة مشايخهم وبروزهم. والأمر الثاني: أن النظرة الدنيوية ليست أجنبية عنهم إذا ما حصلوا عليها فكثيرا ما تراهم الأكثرون منهم بأن فلانا الثري أو المغني أو مصمم الأزياء أو الموظف الكبير خرج معهم (ولو مرة واحدة أو مرات قليلة)، وفي الهند وبنغلادش رأيت المشايخ وضيوفهم (ولست أحدهم) يفضلون على بقية أفراد الجماعة في الأكل ولا يفصل بينهم المائدة غير ذراع أو ذراعين. وعندما أبديت هذه الملحوظة لأحدهم

صَرَفَ الحديث بطرفة فقال: (كانه زادنا في الماضي متواضعاً جداً الى درجة أنه أحد المشايخ سمّى الله على طعامه بقول الله تعالى: (وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي) لأنه لم يرَ على المائدة غير بعيرة من المروحة الصناعي تطوعوا عليه قطعة من البطاطس.

٤) وزرنا بعد مركز (راكا): مركز (دلاي) فطلبت منه أحد الطلبة الأردنيين رؤية القبور التي ذكر لي أنها في المسجد فأومأ وقضى على حظيرة مستطيلة في فناء المسجد تضم قبور محمد الياس ومحمد يوسف واثنين لم يعرف اسم أحدهم منهما، والمركز يقع في منطقة تجتمع عدداً من أوثان المنتمية الى الاسلام وتسمّى باسم أحدهم (نظام الدين)، والجماعة (مثل أكثر الجماعات والأحزاب والفرق المنتمية للاسلام) لا تنهى عن الشرك ولا عن البدع بدعوى الاكتفاء بدعوتهم للخروج مع الجماعة فإذا خرجوا أصلحوا، وبدعوى تجنب نفور أخطاء المسلمين وكل هذا تسويل من النفس ووسوسة من الشيطان فجميع رسل الله أسلموا لله بالأمر بالتوحيد والسنة والنهي عن الشرك والبدعة لا بالاكتفاء بالدعوة للخروج (٧) أيام في الشهر و(٤٠) يوماً في السنة و(٤) أشهر في العمر؛ فجماعة التبليغ تخالف دعوة الرسل جميعاً في المنهج (الموضوع) والأسلوب (الشكل).

٥) وطلبت من أمير الجماعة وضع أيديهم في أيدي علماء تجديد السنة والدعوة في جزيرة العرب تعاوناً على البر والتقوى، وجمعاً بينهم العلم بالأحكام الشرعية وهو الأساس وبين التبليغ وهو الوسيلة فأجاب بجواب الحزبيين: (نحن لا نذهب إلى أحد ومن جاءنا لا نرده)، وقال البناء: (ما وافقه دعوتنا فمرحباً به وما خالفها فنحن منه براء).

٦) وصحبنا بعضهم راجعين إلى قرية صغيرة ذكرتني بحال (نجم) قبل (٦٥) سنة، كانه الذباب بنازعنا الطعام والشراب على قلتهما، وكانوا ينزعونه قشر البيض فلا يكادون يضعونه على المائدة حتى يقطّعه الذباب فيغلب السواد على البياض. ولا توجد دورة مياه في المنازل إذ لم تصلها أنابيب المياه، ولهذا يقضي المرء حاجته على حجرية في ركن من المنزل يُلقى فيه الرماد الناتج من الطبخ على الحفرة أو الروث.

٧) والناس في شبه القارة الهندية يشربون الشاي ممزوجاً بالحليب مثل أكثر البلاد التي احتلها الانكليز (عدن والقاهرة بخاصة) فأدركوها على هذه العادة. والناطقون بالأوردو يسمّونه (دودھ) وبدونه حليب يسمّونه (سليماني)، وعندما تاقت نفس أحد القادمين من (الاحساء) إلى الشاي الذي تعوّده بدونه حليب ولم يستطع طلبه لأنه تعاليم الجماعة تمنع الإسراف والسؤال (اتباعاً للسنة) دعا الله بصوت مرتفع: (اللهم ارزقنا شاياً سليمانياً بلا إسراف ولا سؤال) فأجيب دعاؤه دون تأخير.

٨) ثم زرنا مركز (رايي ويند) قرب (لاهور) في (الباكستان) وهو مسجد مبني بجوار المقبرة، وقد سوّل الشيطان لأكثر المنتمين للاسلام بناء المساجد على القبور اتباعاً لسنة من قبلهم فهم تركوا النبي صلى الله عليه وسلم التحذير من ذلك كما في

الصحيحين: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» قالت عائشة رضي الله عنها: (يحذر ما صنعوا)، وهي آخر وصاياه لأمته.
وبايع مشايخ التسليف منذ محمد إلياس (تجاوز الله عنهم جميعاً) على الطرق الصوفية الأربع: الجشتية والسهروردية والنقشبندية والقادرية.
ويزورون القبور عند أهل القبور مرة في الأسبوع آخر الليل مفطرين، وكلهم مردية (الله حاضري الله ناظري)، ويحفظون الضاد والظاء: ز.
واطلعت على حجاب كاد أحدهم يكتبه ويعلم طلبة تحفيظ القرآن يشتمل على (١٦) مربعاً، في كل مربع رقم أو حرف غير مفهوم المعنى أو الغاية.
ومشايخ التسليف في المراكز الثلاثة مثل خريجي مدرسة ديوبند: أحناف في الأحكام العملية، أشاعرة في الاعتقاد على أحسن أحوالهم، صوفية في الطريقة. هدانا الله وهداهم لأقرب منه هذا رشدا.

ثم - وفي عام ١٣٩٧ سافرت ضمن وفد من رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة إلى أمريكا (الولايات المتحدة) للتعرف على المسلمين هناك تمهيداً لإقامة دورة علمية مكثفة تهيئهم للعمل أئمة وخطباء ودعاة:
١) زرنا عدداً من الولايات التي تضم أكبر عدد من المسلمين على اختلاف اتجاهاتهم بين: تبليغي وإخواني وأحناف ومسلمين سود، وغيرهم، وتحت مقابلة عدد كبير منهم (وكان أكثرهم مسلمين بمجرد الانتماء للإسلام لكنهم الأعاجم - بقلة علمهم - مثل الأعراب: ﴿أجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله﴾).
٢) ولما كنت أتولى محادثاتهم وترجمة لجاباتهم لرئيسي في الوفد رغبت في معرفة أكثر الدعاة والمؤسسات أثراً في انتمائهم إلى الإسلام (ولعله كانت البداية من أمر الله وحده) فوجدت أنه جلهم رجع إلى الإسلام (دين الفطرة) بعد أن نصره أبواه بدعوة جماعتين: الأولى والأكثر والأهم جماعة المسلمين السود، والثانية: جماعة التسليف، وهما أقل مؤسسات الدعوة علماً ومالاً، وهما (مثل بقية الجماعات والأحزاب والفرق) أبعد عن منهاج النبوة في الدين والدعوة، ولكنهما تشتركان في ميزة خلقية لا يكاد ينافسهما عليها أحد من أفراد ومؤسسات الدعوة: ألا وهي عدم التكلف شكلاً ومالاً وتنظيماً، فتتميز أفراد الجماعتين على بقية الدعاة بالصبر والتواضع والتحمل والتفاني والتجرد (لا الجماعتهم)، فتراهم يذهبون بدعوتهم إلى الناس في المنزل والمستشفى والمقهى والنادي لا يأنفون من مظاهر الفقر والمرض والمعصية والإعراض والاستهزاء والجحود.
وهذا الواقع لا يجوز أن يقنعنا بخلو الدعوة أو بتأثيرها وقبول العصاة لها

عن العلم الشرعي والمنهج النبوي، فالعبد الداعي إلى الله مطالب بالثبات على المنهج النبوي: ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾ مهما كانت النتيجة (قبولاً أو إعراضاً)، والمعبود وحده يقدر النتائج وكان محمد ﷺ يؤمر مع نوح (بعد ألف سنة إلا خمسين عاماً) إلا قليل وآله يؤمر مع موسى ومحمد (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) السواد العظيم وهما لم يلتقيا في قوم حتى الآن عشرات السنين، ويأتي النبي يوم القيامة وليس معه أحد، وقد يؤيد الله الدين بالرجل الفاجر.

ولم أحدثهم عن تحول إلى الإسلام بطريقة جزئية الإخوان المسلمين أو المؤسسة التي اختصرها: الندوة العالمية للشباب (الإسلامي) أو بطريقة مراكز رابطة العالم الإسلامي، ولا عن ادعاء الأفراد والمؤسسات أنهم (أسلموا على هذه السد الضعيفة [بل المشلولة] ثلاثة آلاف أو أقل أو أكثر).

٢) ولما كانت ظروف العمل رمضان وشيكاً اعتذرت تمديداً قامتي في أمريكا للصيام في مسجد (ريتشموند) من ولاية (ميشيغن) حيث يوجد عدد كبير من أهل اليمن وبلاد الشام يعملون في مصانع السيارات بالمنطقة.

وهذا المسجد (ويسمونه المسجد الإسلامي) بناه الأمريكيون من أصل لبناني مثل أكثر المساجد في الشرق والوسط الشرقي من الولايات المتحدة الأمريكية وكانت هذه المساجد لغير الصلاة والذكر وقراءة القرآن، بل للتجمع في الأعياد الدينية كما يفعل غير المسلمين، ولذلك كانت تخصص الطابق الأسفل من المسجد لرقص الدبكة وللطبخ والأكل.

وفي العام الذي صمت رمضان فيه (والعام الذي بعده) موّل محسن سعودي مأدبة إفطار في هذا المسجد لكل من يرغب من المصلين فلم أتكلف نفقة ولا جهداً إفطاري، وتسابق بعض اليمنيين للدعاء جزاه الله خير الجزاء.

وأثناء إقامتي في هذا المسجد كنت أحاول اصطياد الدعاة المنتدبين من المملكة المباركة للدعوة للثبات في مكانه واحد يكثر فيه المسلمون وتعريفهم بالتعليم والموعظة بالأحكام الشرعية لحفظ دينهم وعرضهم من التشتت في عدة مناطق، ولكنهم كانوا مرتهنين بالتصرف على أمريكا، كما أنهم يرغبون في أمريكا وأوروبا ويرغبون عن الدعوة في أفريقيا وآسيا، حتى قال أحد العامة: إن الدنيا اليوم ليجب الأصبهانية والفنية، ولذلك لم يصبر على الانتداب للطائف في أشهر الصيف والاصطياف بعض المؤسسات الدينية في غير مصلحة العمل، بل مصلحة العامل، تجاوز الله عنا وعنهم جميعاً.

وأخيراً وافق أحد المنتدبين من حزب الإخوان على طلبي (وأكثر المنتدبين من هذا الحزب لا يعلم ولا يصح منه جمع في الدعوة بل لنفوذ الحزب وحركته)

وقد لمست فائدة وجوده هنا (جزاه الله خيرا) في حالة واحدة على الأقل:
٤) كان الخلاف قائما بين جمعية المسجد اللبنانية وبين المصلين من أصل يمني، وبعد أن الخلاف من عادة بعض اليمنيين نزع حذاءهم الداخلية عند الصلاة (لأن نظافة النجاسة) وتركها أثناء الوضوء والصلاة معلقة على حبل في مدخل المسجد بين المصلى وبين المنضأة مما يستهجنه اللبنانيون بخاصة. ولجأت لجنة المسجد إلى المحاكم، فقال القاضي: (يا للعجب، أنتم عرب مسلمون وأنا أمريكي نصراني من صقلية وتطلبون مني الحكم بينكم وأنا لا أعرف طريقة العدل في الحكم بينكم إلا أنه يحضر معكم في الجلسة القادمة عالم مسلم يعينني على الحكم بالعدل.
وكنت في زيارة للمسجد في (تولسيدو - أوهايو) لأتشبث من نبأ عرضه للبيع على كنيسة، فاتصل بي الإخوة اليمنيون للمثول معهم في المحكمة غداة السابعة ذراستي العلوم الشرعية، فرأيت لهم أن يصحبوا الأخ المصري لأنه لا يمكنني العودة في الوقت المحدد ولأنه هذه القضية في محاكم أمريكية تستند إلى الفكر واللباقة وأضى الأستاذ المصري مؤهلا لهما أكثر مني.
وبين الأخ المصري للقاضي أن المساجد مبنية للصلاة والمدعى عليهم هم الذين يصرون بالصلاة فهم أولى بالمسجد، ونشر السراويل مسألة زوجه وليست أجنبية عنه المسجد الكثير من رقص الذكور والإناث في الديسكو، وتنبه إلى فتاة لبنانية حضرت المحاكم بلباس يكشف عن ساقيها والكثير فحذرها، فقال للقاضي: يمكنك أن تسأل هذه الفتاة هل يجيز لها الإسلام الدخول إلى المسجد بهذا اللباس؟ فأجابته بالنفي.
فحكم القاضي للمصلين بوضع أيديهم على المسجد وإدارته وأمواله.
٥) والمسجد الذي كنت في زيارته (أثناء المحاكمة) في (تولسيدو - أوهايو) قصة أسوأ، كانت رابطة العالم الإسلامي قد ضمته إلى مراكز الإسلامية ووظفت لرئاسته وإمامته وخطابته أستاذا عراقيا، وعلمت أنه لا يؤم المصلين ولا يصلي بهم ولا يعظهم عدا يوم الأحد موعظة اجتماعية أكثر منها شرعية مثل أكثر المراكز الإسلامية في أمريكا قبل أن يصلح ما سمي بالصحوة، ولما سألته عن ذلك صدمه الخبر وادعى أنه يصلي بأهله في منزله لأن المسلمين لا يمكنهم الصلاة غير يوم الأحد لانشغالهم بأعمالهم.
ولكن أثناء إقامتنا الصلاة في المسجد بضعة أيام لم يكن يصلي معنا ولا أحد من أعضاء اللجنة غير شيعي لبناني الأصل كان يصلي معنا بضع كلمات من التراويح ثم يذهب لمراقبة حانوته يملكه هو، هدانا الله وإياهم صراطه المستقيم.
٦) وسألت رئيس المركز الإسلامي نفسه عن نبأ عرضه المسجد للبيع على كنيسة،

ومرّة أخرى صدّوه السّلام ولكنّه دافع عن نفسه: (لست أنا الذي رأيت الجنة بيعم على كنيسة ولكنه الواقع أنه يشتريه الآن كنيسة)

وتتمّة القصّة السّعيدة أنه اللجنة قرّرت بيع الكنيسة بثمنه على بناء مسجد أضخم وأفخم على بُعد (٥٠ كيلو) من مركز مدينة (توليدو - أوهايو) يحتوي (مع مسرح الدّراما والمطبخ والنّافورات والسّباحات الأخرى) على بركة للسّباحة، وقال السّود بأنّه السّبب: ضمن اللجنة بالمسلمين السّود وطار فقرهم بعد أنه كثرت زيارتهم للمسجد في العقد العاشر من القرن الرابع عشر.

وقال المقرّبون من اللجنة بأنّه السّبب: الرّغبة في إظهار الإسلام بمظهر لائق، وفي تعارف الشباب المسلم من الجنسين [بالسّباحة والرّقص] طمعاً في تزاوجهم وخشية زواجهم من أصل دين آخر، والله أعلم بحقائق الأسباب وليكن هذا كافياً لمن (لا) يصلّي في المسجد القريب بحجة غياب المصلين فكيف بالمسجد البعيد؟

٧) ومرّة صليت الجمعة في مسجد مؤسّسة الملك فيصل بالرّياض، فجاء خطيب المصلين على التّبرّع لمسجد (توليدو - أوهايو) الذي لم تبق منه بكلفة بناء غير (٩٠٠ ألف دولار) وأشار إلى تركيبة عدد كبير منهم انتدبوا لحضور حفل افتتاحه. ولما خرج أكثر المصلين بعد أن أفرغوا جيوبهم في أكياس التبرعات سألت أحداً مصرياً كان يقوم على الأكياس: هل تمّ بيع المسجد القديم؟ فقال: لا، بل أجّرناه! وصدق هو (الإسلام اليوم) والله المستعان.

٨) ومرّة مسجد (كليفلند - أوهايو) مع أخي الشيخ إسماعيل بن عتيبة زميلي في هذا السّفر، فقصّ علينا أحد القائمين عليه وهو رجل كبير السّنّ من أصل ألباني: أنه أصل هذا المسجد بيت لأمريكي يهودي، فأراد ابن شراءه بخمسة عشر ألف دولار لتوسيع تجارته: تأجير آلات غسيل الثياب، فقال الأب: نحن في حاجة إلى مثل مسجداً، وظنّ الابن أنه اليهودي لم يرضى بذلك، ولكنّ اليهودي تنازل عن نصف ثمنه بشرط تحويله إلى مسجد لهما في الثواب.

ولعلّ هذه المساجد تطوّرت الآن في عصر ما يسمّى الصحوة كما حدث للمساجد في كلّ مكان، ولعلّ الله أن يوفّق لردّ وجهة الحقّ الذي كان عليه النّبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم لا الإبتداع ولا الإسراف ولا الظلم.

خ - وفي عام ١٩٩٨ نتيجة لجولتنا في الولايات المتحدة الأمريكية العام الذي قبل سافرت إليها مرّة أخرى للاشتراك في دورة تقوم عليها رئاسة إدارات البحوث والإفتاء والدّعوة في جامعة (شيكاغو) للمساجد الأمريكية تهيئة لهم لوظائف الإمامة والخطابة والدّعوة في أمريكا:

١) لم يشترك في الدّورة غير المساجد الأمريكية من أصل أفريقي لأنها أكثر

المسلمية في أمريكا منهم بسبب تأييد الدين بعبده (إليجا محمد) الذي جمعهم الله به على اسم الإسلام ولما أضيف إليه اللوبه (المسلمة السود) وبعد موته عام ١٩٧٥ جمع الله أكثرهم على ابنه (وارث الدين) فخطابهم خطى طيبة للالتزام بالإسلام بما يعرفه ويعمل به أكثر المسلمين العرب والعجم، وتغيّر اسمهم فصاروا: (أمة الإسلام في الغرب).

وليس كل الأمريكية الأفارقة من هذه الجماعة بل استمر في الدورة منتمي إلى الأحناف وإلى حزب الإخوان المسلمين وقليل جماعة التبليغ وغيرهم ولكنه أتباع (وارث الدين) ووالده من قبل (إليجا محمد) هم الأكثر انتظاماً وحرصاً على الآداب والأخلاق وانضباطاً وتعاملاً، ولا عجب فقد كان له أساس الحركة وتركيزها على ذلك منذ البداية، ونفع الله به نفعاً عظيماً.

٢) هيأت الدورة لجميع المشتركين فيها والمستفيدين منها: المسكن والطعام والدراسة مجاناً، فنبهت إدارة الدورة إلى أنه نظام انتداب الموظف السعودي لا يجيز له الجمع بين المسكن والطعام وكامل بدل الانتداب كما نص قرار الرئاسة (هذه المرة) خطأ وبدأت بنفسي فدفعت مقابل سكني وطعامي فلم يتيسر لي موقع القرار تجاوز الله عنه (وكان أخوه أحمد المستفيدين بدورة حقنة) ولا أدري فقد كتبت لرئيس الشيخ ابن باز رحمه الله بأنه لا يجوز انتداب أحد للطائف مع الرئيس لعدم الحاجة إلى ذلك ولما فيه من عرقلة العمل، وأنه لا يجوز انتداب (٣٠) موظفاً لحاجة لانتداب أكثرهم بينما كان وزير المعارف لا ينتدب أكثر من (١٥). وكتبت لأحد أعضاء هيئة كبار العلماء وأحد قضاة التمييز (رحمهما الله) منكراً إخراجها الشيخ ابن باز رحمه الله بطلب استثنائهم من قرار الدولة وقف الانتداب للطائف.

٣) زرنا مركز (أمة الإسلام في الغرب) في (شيكاغو)، وقابلنا طيباً سودياً وظيفته رابطة العالم الإسلامي تتصل مع هذه الجماعة وتعليمهم ولكنه (فاقد الشيء لا يعطيه) كما يقول المثل الشعبي، فرد - مثلي - ترك العمل المؤهل له: التعليم الديني أو القضاء في حالي والطب في حال، وعملت في الإدارة ولم أؤهل لها، وعمل في البعثة ولم يؤهل لها، وبالجملة أنه أكثرهم إرضاء قيادة الجماعة ليضمنه بقاءه في أمريكا على حساب الرابطة، تجاوز الله عنا وعنه.

٤) وزرنا مركز الإخوان المسلمين في إنديانا وكان أكبرهم (مثل الأحزاب المبتدعة الأخرى) تجميع الناس حولهم وتقوية مركزهم سياسياً ومالياً وتوظيف أعضائهم في المؤسسات الخاصة والعامة لتسخيرها لصالح الحزب، وكان أقل ما يتميز به دعوة المسلمين (ثم غيرهم) إلى عبادة الله وحده واتباع السنة والنهي عن الشرك في العبادة والابتداع في الدين عامة، هداهم الله لأقرب رشداً.

٥) وانتهت الدورة فعاد الزملاء إلى المملكة المباركة، وضمنت رضاه مرة أخرى

في مسجد (ديربورن)، وكان كثير من المصلين فيه من جماعة التبليغ، وأقيم فيه وحوله اجتماع كبير كالذي اعتادوا إقامته في غير هذا المكان، وأنشئ لهم الإدارة المحلية باغلاق شارع مجاور واستعماله لتوسعة مكان إضافي للنوم والطعام والطبخ ودورات المياه، وهضم عمدة المدينة اجتماعهم وأذنه لهم بالأذان خارج المسجد من مكبرات الصوت داخله ولم يحتج على ذلك غير بعض المسلمين من جيران المسجد بحجة الإزعاج.

وسألت أمير الجماعة الأمريكي عن مصدر تحويل الاجتماع فذكر أنه أميراً غير هندي في الأصل وأنزل لإدارة الاجتماع وتحويله من (كندا) وأنه لم يطلع على مصدر التحويل، فالأمراء في القارة الهندية لا يأتمنون الأمراء المحليين في بلاد العرب وبلاد العجم الأخرى على مثل هذا الشر.

٦) ورعاني بعض الإخوة الأمريكيين من أصل عربي إلى مرافقتهم لزيارة امرأة مرشحة للإسلام، وأظهروا الاهتمام بأن تزور (كونكشن) بيضاء فذهبت معهم ظناً بأنهم محتاجون إلى تعليم شعائر الإسلام التي لا يكون المرء مسلماً بدونها، ثم اتضح أنها إنما تريد أن توسع ثقافتها بمعرفة شيء عن الإسلام، ولكنه الإخوة كانوا يأتون عليها لتنطوه بالشرح ربما متعجبة أنها مجرد أغنية، فبينت لها ولهم الحقيقة التي لا يجوز إخفاؤها ولا الغش ولا الخديعة في أمرها وأن النهاية تحولها عن النصرانية إلى الإسلام، وتحولها عن كل ما يخالف الإسلام في حياتها إلى ما يوافقه ويوافقه الرسالات والرسل والكتب قبله في الاعتقاد، والانقياد والاستسلام لشرع الله وسنة رسوله.

٧) وفي طريقنا إلى أمريكا في هذا السفر مررنا (بالمدينة)، وتعرفنا على بعض المنتمين إلى الإسلام على طريقة صوفية (درقاوية) أخذها شيخهم (عبد القادر الصوفي) من المغرب، وكانت لهم رابطة تجمعهم في (المدينة) مقرها (زاوية حبيبة)، ثم تفرع لهم أحد شيوخ الخليج بشمال أرض شمال انكلترا يستعمرونها بتزكية من أحد علماء الخليج لم يفرقوا بين الصوفية والإسلام كما لم يفرق الإخوة الأمريكيون العرب في الفترة السابقة بين الفرق بين التنطوه بالشرح ربما والمدينة بألفاظ الأغنية، فالمهم اسم الإسلام وكثرة المنتمين إليه بالحق أو بالباطل.

وسألت عبد القادر الصوفي وأتباعه النفس الأمارة بالسوء ووسوس لهم الشيطان نشر فكرهم الصوفي الذي لا يقف عند حدود الرقص والغناء باسم الإسلام بل يتجاوزه إلى فكر ابن عربي) بإنشاء مستعمرات في أوروبا وأمريكا لتحويل الناس عن بدع أهل أديانهم إلى بدع المنتمين - زوراً - إلى الإسلام.

٨) لم أظن الدورة أهلت أحداً منهم بعد شهرين للإمامة أو الخطابة أو الدعوة، ولكنهم جميعهم على اختلاف توجهاتهم هنية الشريعة على العلم الشرعي والعمل الشرعي في مكانه وحده وزمانه وحده وعلى مصدر واحد قبل أن يتفرقوا - كما كانوا - شيعاً وأحزاباً.

واستفاد القائمون على الدورة (وأكثرهم من حزب الإخوان المسلمين وهي قيادتهم مثل: أحمد توتونجي وعلي جريشة وجعفر إدريس) إجازة من العمل في أمريكا على نفقة الدولة المباركة، وأكثرهم من سياسة التعامل واللباقة ما يؤهلهم لاختيارهم للعمل في الدورات والندوات والمؤتمرات والهيئات والمؤسسات الحكومية والخاصة. بل لقد اغتررت بجعفر إدريس على نفسي لتقديم دروس في السيرة لخروجي على المنهجي الذي تصوروا تدريسه في السيرة (العاطفية والسياسية)، ولعجزي عن تدريس ولولا ذلك لما اعتذرت بديلاً في العمل منذ تخرجي من كلية الشريعة عام ١٣٧٦هـ.

ولم يكن بيني وبين العاملين على الدورة من هو مؤهل لتعليم الشريعة علماً وعملاً غير زميلي الشيخ إسماعيل بن عثيمين ختم الله له بالسنة والجنة.

٨) لم أظن الدورة أضافت أحداً منهم بعد شهرين للإمامة أو الخطابة أو الدعوة، ولكن جمعتهم على اختلاف توجهاتهم حول هذه الشريعة على العلم الشرعي والعمل الشرعي في مكانه وحدوده وزمانه والجد وعلى مصدر واحد قبل أن يتفرقوا - كما كانوا - شيعاً وأحزاباً وفرقاً وجماعات. واستفاد القائمون على الدورة (وأكثرهم من حزب الإخوان المسلمين وممن قياداتهم مثل: أحمد توتونجي وعلي جريشة ومحمد أديس) إجادة العمل في أمريكا على نفقة الدولة المباركة، وأكثرهم من سياسة التفاصيل واللباقة ما يؤهلهم لاختيارهم للعمل في الدورات والندوات والمؤتمرات والهيئات والمؤسسات الحكومية والخاصة. بل لقد اختارني محمد أديس على نفسي لتقديم دروس في السيرة لخروجي على المنهج الذي تصوروا تدريسه في السيرة (العاطفية والسياسية)، ولعجزي عن تدريس ولو لدقائق لما استغنيت بديلاً في العمل منذ تخرجي من كلية الشريعة عام ١٣٧٦ هـ. ولم يكن بيني وبين القائمين على الدورة من هو مؤهل لتعليم الشريعة علماً وسيرة غير زميلي الشيخ إسماعيل بن عتيبة حفظه الله بالسنة والجنة.

ذ - وفي عام ١٣٩٩ سافرت بالطائرة إلى أوروبا وأمريكا أستمع بعض النماذج التربوية التي نوه بها تقرير لجنة اليونسكو (Learning to be) وترجمتها العربية: (تعلم لتكون) ولعل الأولى أن يترجم: (التعلم لتحقيق الذات) حرفاً ومعنى. وبدأت بانكلترا مع زميلي رئيس الندوة السواس (وكان خيراً مني بعد الله على تنفيذ فكرتي في إصلاح التعليم الثانوي)، وأقمنا في منزل نظيف في لندن، وكانت محراة مفروشة بسجاد غليظ فذكرت لزميلي أن هذا السجاد برهنة الغلاظ مما يساعد على الاختراق، ولم ألبث أضع رأسي على المخدة حتى سمعت صوت إنذار الحريق، وجاء زميلي جزاه الله خيراً يحثني على النزول إلى الطريق مثل بقية الناس، ولكن من عادتي البطء في التفكير والبطء في التنفيذ فاخترت البقاء في غرفتي (ليقضي الله أمراً كان مفعولاً)، وعاد زميلي يخبرني بالسيطرة على الحريق: فوكل الله المؤمنين القتال، والتفكير والتنفيذ في مثل حالي وضعفي:

ر) وكان أهم ابتكار انكلترا: أربع مؤسسات تعليمية حكومية أنشئت في محاولة لإنقاذ الطلاب الذين لم يتمكنوا من إنهاء المرحلة الثانوية بحيث تتيح لهم تعلم علم أو مهنة أو فنية يعملون به أو يحيون لهم مواصلة الدراسة، وسميت هذه المؤسسات (Sixth Form Colleges)، وأعطى الطالب فيها من الحرية في اختيار المكان والزمان والمادة الدراسية ما يتفق بالعودة

إلى مقاعد الدراسة بعيداً عن المعضلات التنظيمية الروتينية التي ألزمتهم بها.
وقد تحدثت في أحد أفرع وظروف تنفيذها ما وافقه المشروع الذي نفذناه في المملكة المباركة وما أعانني على إقناع الأضرية به فإنه (الفرنجي برنجي).
٣) وفي جولتي معي رسيلي تاجي الدين السواس رأينا في كل مدرسة مطبخاً لتقديم أكلة مطبوخة يومياً لكل طالب، وتدريب كل طالب على الخدمة العامة بأدائهم الخدمة في المطبخ ساعات محدده.
وأدخلنا مضيفونا إلى حيث توجد بركة للسباحة ترفرف عليها الطيور وصمانا لتعلم السباحة، وكانت مفاجأة لنا وللسباحين فسارع كل القيمين إلى تغطية ما ظهر منه أجسامهن والهرب منه المسبح حتى لا يراهن الأجانب.
ويبدو لنا غريباً أن تستحي البنات في انكلترا من ظهور بعض جسمهن بملابس السباحة، والشواطئ والمسابح مهدى بالطاسيات العاريات، ولكننا نذكر المثل الياباني: (الصدر لا يرى في الحمام)، وما يجوز في الشواطئ والمسابح العامة لا يجوز في المدارس بمرأى من غير أهلها، هكذا علمهم العرف والعادة.
وقبل قرنه كانت النساء في الغرب يحجبن ما عدى الوجه والكفين ولا تزال الراهبات يلتزمن بذلك، بل لا تزال نساء (الأمش) و(المورمن) في مستعمراتهم الخاصة يلتزمن به في أمريكا، وأغرب من كل حجاب عُرف أو لم يُعرف ما يقوله بعض الإنكليز عن قدمائهم: أنهم كانوا يغطون أجمل الطاولات تبعاً لأرجل النساء بجامع التأنيث في القسمين مبالغة في الستر.
٢) ولعل هذه الطريقة الجديدة من التعليم الحر في مؤسسات (6TH FORM COLLEGES) الحكومية تأثرت بمدرسة خاصة استمرها قبل نصف قرن تربوي انكليزي في (سري - جنوب غرب انكلترا) سبق بها أهل عصره أو لنقل: رحم بها أهل عصر (أفلاطون) أو على الأقل إلى ما قبل عصر النهضة الأوروبية وتقنين التعليم وإخضاعه للإدارة الرسمية. وقد أعجبت بها التربويون ولم يعمل بها أحد قبل أن تقيس منها هذه المؤسسات ما تحاكيه.
٤) والفرق بين المؤسسة المقيسة والمدرسة المقيس منها: أن الأولى تخضع حرية التعليم فيها إلى تنظيم دقيق بحيث لا تتجاوز حرية الطالب حدود حاجته وميوله وقدرته التعليمية، أما الثانية فتكاد الحرية أن تكون مطلقة لا يحدها إلا الحقوق الأخرى وحرياتهم، والأولى يضع نظامها القائمون عليها بمرونة كبيرة لا يحصل عليها الطالب في المدارس العادية تستوعب الفروق الفردية بين الطلاب حسب قدر الله وإرادته لكل عبد من عباده، والثانية يشترك الطلاب في وضع أنظمتها وربما يستقلون بوضعها ضماناً لتوازن الحقوق والواجبات.

٥) وسافرت مع (لندره) بالطائرة إلى (كندا) حيث لها أكبر ممثل الغرف التجارية الكندية في البلاد العربية (السعودية بخاصة) زيارة عدد من النماذج التعليمية الحديثة في ولاية (ألبرتا) عدّدها تقرير اليونسكو مثالاً يحتذى في الخروج بالتعليم من قوقعته الروتينية، وتتميز مثل أكثر النماذج الجديدة بإخضاع التنظيم التعليمي للاعتراف بفردية كل طالب في القدرة والطرافة والموهبة وتميزه عن طالب آخر، وتعويده تحمل مسئولية تعلمه في المدرسة وخارجها في الحاضر وفي المستقبل، وتنمية رغبته الذاتية في التعلم (التي فطره الله عليها) بل محبة التعلم. وتتميز مدارس (ألبرتا) الثانوية بجمعها بين الفنون الأكاديمية والتجارية والصناعية.

٦) وكنت متخوفاً من المشي على مخبرة متجمدة فأكد دليلي في هذه الزيارة أنه هذا الغطاء الثلجي للبحيرة يتحمل نزول أكبر الطائرات المدنية على سطحه.

وفي آخر أيام زيارتي للولاية دعاني دليلي إلى مشاركته العشاء في مطعم متميز بغناء وتأثيث وطعام وخدمته ظناً منه أنه (الأصالة في المطاعم) تلائم رغبتي في تطوير التعليم بالرجوع به لما تقتضيه الفطرة والأصالة.

وجاء مقدم الطعام يعرضه علي (بصفتي الضيف والأكبر سناً) أصناف الطعام مكتوبة على لوح خشبي في أعلاه نتوء مثقوب يربط فيه خيط (كاللوح الذي يحمله الأطفال إلى المدرسة يتعلمون فيه القراءة والكتابة قبل المدارس العصرية في جزيرة العرب)، وقد رأيت منه قبل لوحة لرسام مغربي تدل على التشابه بين طرق التعليم القديم في الشرق والغرب، وفيه يتحلو الأولاد على الأرض حول دكة المعلم وهو يعلم قلم من القصب بسكين صغيرة، ومن خلفه بعض الأطفال يشيرون إليه ويزهاونه به وهو منشغل بقلمه وبراءته.

ولما انتهى عرض أصناف الطعام بكثير من التكلف في القول والحركة واللباس فوجئت باعتذاري عن الأكل لأني تركت أكلة العشاء منذ (٢٠) سنة، وتطيباً لخاطره طلبت كأساً من الحليب الحار، فأوقفته في وسط ثانية فالناس لا يطلبون الحليب وقت العشاء، ولو وجد لم يتسهل عليه حتى انتشر استعمال (المايكروويف) وصار من السهل على الحليب في علبته الورقية.

٧) ومن ولاية (ألبرتا) ركبت طائرة كندية إلى (فانكوفر) من ولاية (كولومبيا البريطانية) وهي في أقصى الغرب الكندي على المحيط الهادي، ومن أهم محطات سكة الحديد والسفن والطائرات في كندا، وتحمل اسم أول مستكشف بريطاني في المنطقة عام ١٧٩٢. ولم يصطلح السكان الانكليز حتى عام ١٨٦٢، ولم يكن يمشي على أرضها قبل ذلك غير الهنود الأصليين، وأضطرت المضرة بسبب كثرة أمطارها (٢٠٠ ملم) في العام. و(بندستريت) صورة مصغرة من (تشاينا تاون) في (سان فرانسسكو) شمال غرب الولايات المتحدة الأمريكية.

٨) ومن مطار (فانكوفر) الدولي ركبت طائرة إلى (ليما) عاصمة جمهورية (البيرو) وسط غرب أمريكا الجنوبية في رحلة استغرقت (٩) ساعات، وهذه أول مرة أطأ فيها أرض هذه القارة، ولم تكن (البيرو) أحب بلاد إلى قلبي لكنه الحاكم فيها مستقراً في ذلك الوقت، ولم تكن صور تراث الإسلامية ملونة جذابة مثل (البرازيل)، ولكنه تقرير لجنة اليونسكو اختار لإحدى مدارس (ليما) قدوة تربوية، وتحقق زيارتها والوقوف على أحوالها للمقارنة بينها وبين المدارس التجريبية التي بدأنا العمل فيها منذ بضع سنين.

وزرت هذه المدرسة الخاصة التي يديرها أمريكي شمالي منذ الصباح التالي لوصولي، وتفقدت النظريات التربوية التي تميزت بها المدرسة كما يراها القائم عليها مقارنة بتقرير اللجنة الدولية، وأهم من ذلك الإجراءات الإدارية والفنية التنفيذية التي أستطيع مشاهدتها أثناء التنفيذ عن كثب.

٩) وفي نهاية اليوم الدراسي دعاني مدير المدرسة إلى مشاركته وعائلته الغداء في منزله بإحدى ضواحي (ليما - البيرو).

وفي انتظار إعداد المائدة استأذنت مضيفي لأداء صلاة الظهر والعصر جمعاً وقصراً فانضم إلي في أداء حركات الصلاة أخو المضيف (مع أنه من طائفة (الرسميين) الذين لا يلتزمون بعبادة دينية ولا عبادة دنيوية مألوفة، بل ظهر وامتد بضع عشرة سنة تقليداً سيئاً لطائفة (الهيبيز) وكل أتباع الطائفتين لا يلتزمون بأهل ولا منزل ولا عمل وإنما يعيشون حياتهم الحيوانية يوماً بيوم وبأي حال وقعوا ناموا في العراء ويأكلون من الزبالة، وقد يتسولون طعامهم ومسائل سفرهم، ولكنه الأصل غير من التقليد، فقد اشتهر المتأخرون بإباحية الفواحش والمخدرات وأحياناً الذبح والسلب والعنف)، وذكرتني صلاته معي بفلسطيني الترمته لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الرياض قبل عشرات السنين بالدخول إلى المسجد للصلاة (ولم يكن تعود ذلك في الأرض المقدسة) فدخل وهو يتمتم: (أصلي للسعودية بلا وضوء ولا نية)، والفرق أنه الرجل صلى طوعاً والمنتمي للإسلام صلى كرهاً، لهدانا الله ولإياهم للتي هي أقوم.

١٠) والبيرو كانت مركزاً لحضارة (الإنكا) الوثنية التي امتدت إلى الأرجنتين وازدهرت قريباً من مائتي عام، ومع أنها لم تعرف اللغة المكتوبة ولا فكرة (العجلة) فقد حققت نجاحاً لم يكن له مثيل في أمريكا فيما يتعلق بالهندسة المعمارية والإدارة والاقتصاد، ولكنه نجاح في استخراج الذهب والفضة كان سبب دمارها قبل أربعة قرون على يد الأسبان الباحثين عن الثروة لملكهم ومن منجزات (الإنكا) تأهيل حيوان (اللاما) ليكون مصدر فضلة (الجعل) لعمل الأثقال في السفر والعمل، ويتميز على الجمل بقدرته على تحمل نقص الأوكسجين في جبال (الأنديز) التي يزيد ارتفاعها عن (٦٥٠٠ متر).

١١) وركبت طائرة مه (ليما) إلى (بوينس آيرس) في (الأرجنتين) ولم يكن الحكم مستقراً فيها أيضاً كما لم يكن في كثير من دول ما يسمّى بالعالم الثالث ذلك الوقت، ويكون (الأرجنتين) بعد (البرازيل) أكبر دول أمريكا الجنوبيّة وتستحق الزيارة سياحياً لا تربوياً.
وبينما لا يتمسك (البيرو) مه العنصر الأبيض غير (١٠٪) فإنه (٩٠٪) مه سكان (الأرجنتين) هم أوروبيّو الأصل (مه إيطاليا بخاصّة) وتقع (الأرجنتين) مع (تشيلي) على مجمع البحرين (الهادي والأطلنطي) مثل (جنوب أفريقيا) في الجمع المقابل على البحرين (الهندي والأطلنطي) أمّا اللغة فتطغى على القارّة كلّها لغة مستعمريها الإسبانيّة والبرتغاليّة.

١٢) ويتميّز أهل الأرجنتين وجيرانهم بحبّ التمتّع بالحياة، وبعد الظهر كأنما يتحوّل مركز المدينة (بوينس آيرس) إلى ميدان للتنافس على الأكل والشرب، فلم أر في الشرق ولا الغرب ولا عند العرب ولا العجم مثل ما رأيت فيها مه مطاعم ولا مه هجوم جماعيّ على مطاعم وأغرب بمشاركتهم ما رأيت في بعض المطاعم مه وجبات زجاجيّة أو قريبة مه الزجاج وهي (تشبه عليك) عدد مه الحيوانات فتحت كما تفتح الكتب (ومثل ما يفتح سمك المسقوف في الصواعق) ليسهل نضجها على حرارة النار الرطبة.
ويكون (مثل المسقوف على نهر دجلة) جنبك منظرها ولا يعجبك طعمها مع شهرة المراعي وكثرة في الأرجنتين بحيث لا تدخل الفضم الحيوانات إلا الجزّ صوفها أو التنظيف؛ فإنه نسبة التسمين (أو التربح) تحوّل بين اللحم والشحم، وقد يكون هذا سبباً في كثرة شربهم الخمر عليها.

١٣) ومه ذيل (أمريكا اللاتينيّة) الذي يفصل بينه محيطيه ركبت طائرة إلى ذيل (أفريقيا) الذي يفصل بين محيطيه، إلى (كيب تاون) في دولة جنوب أفريقيا التي يحكمها (مثل البيرو) الأقليّة مه أصل أوروبيّ.
ولقد صدّر العرب هذه المرّة قسموا الاحتلال الأوروبيّ: (استعمار) والحجّة أنّه (بالرغم مما صاحبه مه استغلال) كان استعماراً لكلّ منطقة حلّ بها (في القرون الماضية) فلم تعرف بلاد العرب والعجم المستعمرة بالأوروبيين) المدارس ولا الطرق ولا الكهرباء ولا الماء (في الأنابيب) ولا الغاز ولا البترول (استخراجاً أو استعمالاً) إلا بفضل الله ثم بفضل المستعمرين الأوروبيين (باستثناءات نادرة مثل السعوديّة التي حماها الله مه الاحتلال الأوروبي وسخّر الأمريكيين لاستخراج ثروتها الدنيويّة مه باطه الأرض دون احتلال بل بتبادل المصالح).

١٤) وعند الجزّ للسفر بالطائرة طلبت أن يكون الطعام خلال (٥) ساعات تقريباً (كوشر)

مما يُعدّ للمسافرين اليهود (وهم من أكثر الأقليات في الأرجنتين) لحصرهم على تجنب أكل الخنزير وما يتعلقون به من ذكاة أو ذبح أو نقله أو أكله، وكنا في أمريكا لا نأكل إلا ذبائح قوم يبالغون في إجادة الذبح فيمرّرون السكين الحادة راقما على الحلق مرة واحدة، ولا يجيزون الذبح بسكين ذبح خنزير بل ولا نقل الذبيحة في سيارة تبريد استعملت لنقل ذبائح الخنزير احتراما للمعتقدين منهم.

ورأيت في هذه الطائرة مبالغة أخرى فقد كتبت على صينية طعامي: (إن كل الأدوات المستعملة في هذه الأكلة جديدة لم تستعمل من قبل (أي الطعوم والسكين والشوكة والملعقة) تنظما وتكلفا في تجنب شبهة أكل لحم الخنزير.

(٥) ولأن السامية يُستثنون في (جنوب أفريقيا) من كل ما يسمى بالتمييز العنصري وأن العرب (عامة) يُعدّون (كوكيشنز) مثل الأوروبيين والأمريكيين (أو البيض) فقد بدت لي (جنوب أفريقيا) جنة من جنات الأرض (طبيعة ومستوى المعيشة فيها وحضارة). أما الكثرة السكانية ففيها مظالم مختلفة (منهم وعليهم) ومن سوء فكرة التمييز (أو الفصل) العنصري المخالفة للشرع وللعقل السليم فإنها في (جنوب أفريقيا) غيرها في (ألمانيا النازية)؛ فهي في جنوب أفريقيا تعني عزل الأوروبيين عن الأفارقة والزنود أو مخالطين الأصل (في الإدارة وفي الخدمات وفي المناطق) في جنوب أفريقيا فرارا من التفرقة العنصرية قبلها في الولايات المتحدة الأمريكية. أما التمييز العرقي في ألمانيا النازية فهو مبني على أن الجنس الآري الذي ادعت ألمانيا تميزها عن الجميع (واليهود والغجر خاصة)، وعدم حقوق اليهود والغجر وحرمانهم في مجرد الحياة. والحقيقة أنه نوعا من التمييز العرقي موجود بدرجة متفاوتة عند العرب وعند الزنود (الهندوس) وعند اليهود بل عند الإنكليز في انكلترا وفي البلاد التي استعمروها أو استوطنوها، ولم يقاطع بسبب التمييز العرقي غير جنوب أفريقيا، ولم تحارب ألمانيا النازية إلا بسبب حروبها التوسعية، وفرحت أكثر الأفراد والهيئات (خلافا للحكومات) في البلاد الغربية بانتصارات النازية الأولى (كما فرحهم المراهنة على الحوادث بل النمل أو الجمل - الخاسر)، وسقطت ألمانيا النازية وبقي فلسطين (تجاوز الدعتا وعنز) بيد اليهود، ولم يحجم منه محاكمات (نورمبرك) غير الله ثم وظيفة الدينية ومكانة بيت المقدس في نفوس المسلمين، مع أن العرب مثل اليهود عند النازية عنصر منحط بالدرجة السفلى.

ولعل العنصرية البيضاء في جنوب أفريقيا بعد إلغاء نظام الفصل العنصري (APARTHEID) وانتقال الحكم إلى أيدي الأفارقة وتردي الأحوال الإدارية والاقتصادية والاجتماعية قد أرادوا اقناعهم بعنصريتهم ولكنه السبب في النجاح أو الفشل الحضاري ليس العرق بل الفرد به الأصل والتقليد.

(٦) وجنوب أفريقيا فريدة في موقعها: محاطة بمياه المحيط الأطلنطي الباردة من الغرب ومياه المحيط الهندي الدافئة من الجنوب والشرق، وفريدة بما حباها الله من المعادن (الذهب واللؤلؤ والبلاتين بخاصة)، وفريدة بين دول أفريقيا بنجاحها الاقتصادي والصناعي والزراعي والإداري الذي يقوم عليه البيض (١٤٪ من السكان) ويعمل فيه السود (٧٤٪) والهنود والمختلطو الأعراق (٧٪) بنسبة (٧٥٪) من القوة العاملة. وميزها نجاحها أكثر من مصادرها. وقد بدأ السود في الانتقال إلى هذه المنطقة قريباً من عام (١٠٠٠) وأسست أول محطة لشركة الهند الشرقية (الهولندية) عام (١٦٥٢)؛ فالفرق (١٠) سنة. وثارت حروب متتالية بين قبائل الأفارقة السابقة إلى المنطقة وبين المزارعين البيض (البوير) للاستحواذ على الأرض، ثم بين البوير والمحتلين الإنكليز احتجاجاً على إلغاء الإنكليز الرق ومنح السود والملونين حقوقهم القانونية. وبعد انتصار الإنكليز في حرب البوير عام (١٩٠٢) أسسوا اتحاد جنوب أفريقيا. وبعد استقلال جنوب أفريقيا عام (١٩٢١) ازدهرت اقتصادياً واتجهت إلى عزل الأفارقة في عشر مناطق أعلنت استقلال أربع مناطق منها ولم يعترف بذلك أحد (غير دولة جنوب أفريقيا)، لأن هذه المناطق العشر لا تتجاوز (١٤٪) من البلاد ومن أفقرها. واستمر هذا الظلم (٤٥) سنة رغم المقاطعة العالمية. ثم جاء بوتين وزراءه (دي كليرك) فألغى الحظر على حزب المجلس الوطني الأفريقي وأطلق سراح زعيمه (نلسون مانديلا)، وألغى الحظر على كل معارضة للفصل بين البيض والسود، وألغى كل قوانين هذا الفصل الظالم في بداية العقد (١٠) من القرن (٢٠) وأفرج جميع زعماء المعارضة من السجن. ويميز المقاربين (مانديلا) بخلق فلم ينتقم من سجانيه بل تعاون معهم لتحقيق مصالحة البلاد والعباد، وأبى لهذا ممّا فعله الثوار العرب (العراق بخاصة)؟ رغم أن الثوار العرب لم يُعْزلوا مثل الأفارقة، ولم يُسْجَنوا (٢٧) سنة مثل (مانديلا). وتقاسم مانديلا ودي كليرك جائزة نوبل للسلام. وليس في اللون أو العرق دلالة على الخير أو الشر، وليس في أي منها مفخرة لأحد بحسب الشرع أو العقل فليس امرؤ كشف البشر، وإنما المعيار العمل. وطاب لي المقام في هذه البلاد الغريبة مراقباً البيض يديرونها ويطورونها والملونين ينفذون ويعملون، وظننت أن أكثر أسباب الشقاء الدنيوي سياسية واجتماعية وأحياناً خيالية، أكثر منها واقعية أو عقلية أو شرعية. واستمتعت بالرحلات السياحية إلى السهول والجبال والشواطئ ومحميات الحيوان، وفي إحدى هذه الرحلات جاورت سائحة عمدت على من رافقهم في شعاب مكة المكرمة في جنوب أستراليا عفا الله عنهم.

١٧) وأنى زرت أسفل أفريقيا (جنوب أفريقيا) وأعلاها (مصر وليبيا وتونس والجزائر والمغرب) فقد اخترت زيارة (كينيا) في شرق وسط القارة لأنه اللغة الانكليزية فيها (مثل جنوب أفريقيا) لغة تعلم ومنطقة (كينيا) لم تكن مأهولة (بمعنى الكلمة) قبل القرن (١٩) الكريتوري، ثم بدأت هجرة القبائل الأفريقية المختلفة إليها من مناطق مختلفة في أفريقيا، وكانت هذه القبائل التي بلغ عددها (٤٠) فيما بعد أشبه بقبائل جزيرة العرب: لا يجمعهم دين ولا نظام ولا حكم، وربما غزا بعضهم بعضاً واعتدى بعضهم على بعض، فالقوة وحدها هي الفيصل، ثم جاءها الغزو الاستعماري الأوربي وتغلبت انكلترا على الجميع فسميت المنطقة (محمية شرق أفريقيا) ثم وحدت عام (١٩٢٠) على اسم (مستعمرة كينيا).

وحكم القرب (العمانيون خاصة) مدينة (ممبسا) على ساحل المحيط الهندي، قبلها وتعاونوا مع الأفارقة على طرد (...) البرتغالي) احتلوا (ممبسا) قبل طردهم بستين سنة، وأعلنوا حاكمها العماني دولة مستقلة.

وفي عام (١٩٦٣) حصلت (كينيا) على (استقلالها من انكلترا، وحكمها (جومو كنياتا) الذي شارك في ثورة (الماو ماو) من عام ١٩٥٢ إلى ١٩٥٦.

ونشأت اللغة (السواحيلية) من لغة الشعوب الثلاثة الموجودة في المنطقة: البانتو الأفريقية والعربية والأوربية، على أنه (٩٧٪) من سكان المنطقة أفارقة ينتمون إلى (٤٠) مجموعة أو قبيلة، وقيل (٢٥).

وتتقاسم (كينيا) بحيرة (فيكتوريا) مع (أوغندا) و(تنزانيا) وهي ثاني أكبر بحيرات العالم (وشلالاتها من أشهر الشلالات) ومساحة البحيرة قريباً من (٧٠٠٠٠ كم٢) وهي مصدر مهم من مصادر نهر النيل، وتختص بجل بحيرة (تركانا - رودلف) وطولها قريباً من (٣٠٠ كيل) وعرضها (١٠ و ٣٧ كيلا).

ومن صنع البشر يجذب السياح محمية (تسافو الوطنية) وهي مثل محمية (كروكر) في جنوب أفريقيا معاً أنشأه الأوربيون لحماية حيوانات المنطقة من الانقراض، ويوجد مثلها (بمساحة أصغر) عدة حدائق ومحميات في أوربا وأمريكا تتجمع الحيوانات بيئة مماثلة لبيئتها الأصلية لا تحدها أقفاص حدائق الحيوان في المدن.

ولم أجد مكاناً يستحق زيارتي في نيروبي غير مسجد (مجمع) كبير تشرفت أنه خاص بالبوهرة، وهذه النحلة انتقلت إلى أفريقيا (وانكلترا وفلسطين وغيرها) من شبه القارة الهندية.

وزرت (حديقة نيروبي الوطنية) وهي محمية للحيوان بمساحة أصغر وبعد معاناة سوء الإدارة والتأخير ركبت الطائرة إلى المملكة المباركة.

ض - وفي ليلة الأول من محرم (١٤٠٠) سافرت مع والدتي وأخي إلى أمريكا حيث لم نجد علاجاً للوالدة رحمها الله في البلاد العربية وسألنا عن خير مركز للعلاج في العالم فأتفق الجميع على (ميوكلينك) في (روتشستر منسوتا) في الولايات المتحدة الأمريكية، وفرح لي في أوروبا، وبراءة للذمة اخترنا الأصل:

١) بكنباطائرة سعودية (بوينك ٧٤٧) من مطار الظهران إلى نيويورك في رحلة دامت (١٤ ساعة) دون توقف، وكان أحد الأقارب من القائمين على شركة الجميح جزاه الله وجزاهم جميعاً خير الجزاء قد اتصل بشركة (جنرال موتورز) للحجز للوالدة في مركز (ميوكلينك) لصعوبة الحجز العاجل، فاستقبلنا ممثل الشركة في نيويورك وخيرنا في الانتقال للفندق انتظار السفرنا القادم إلى (روتشستر) فاخترنا الوالدة الانتظار في المطار بضع ساعات لصعوبة التنقل علينا، ورقدت على الأرض.

٢) بكنباطائرة أمريكية بضع ساعات إلى (روتشستر) وطاف جناح المطار وجبنا الثلج يغطي كل شيء وطوقع المنطقة في أقصى شمال الولايات المتحدة الأمريكية.

وركبنا ثلاثتنا سيارة أجرة فاحتضنت الوالدة على ركبتي بجوار السائق فبادرت أن السائقة امرأة كالرجال زادتها شدة البرودة والعمل خارج المنزل خشونة.

ومركز (ميوكلينك) أكثر شهرة في العالم من مدينة (روتشستر) بل من ولاية (منسوتا). وأصله عيادة صغيرة افتتحها (وليام ميو) وطورها أبناه تشارلز ووليم اختصاصيا في الجراحة حتى صارت (Mayo Clinic) المشهور دولياً.

وفي عام ١٩١٥ أسسا (مؤسسة ميو للبحث الطبي) فرعاً من جامعة منسوتا.

وفي صباح اليوم التالي للبلة وصولنا اتصل بنا ممثل شركة (GMC) ليبلغنا أن المملكة المباركة قطعت اتصالاتها بالعالم الخارجي فترة قصيرة ثم أعادتها، فالتمسنا الأخبار (وقليلاً ما أفعل) وعرفت السبب: احتلال مجموعة من الناس المسجد الحرام، وظنّ: أنه لإيران الخمينية) وراء هذا الاعتداء الشنيع الذي لم يسبق له مثيل منذ فتنة (القرامطة)، وكانت طيرانه في أول عهد الخميني تحاول تصدير الثورة إلى المنطقة المجاورة (على الأخص السعودية راعية التوحيد والسنة).

واتصلت بأخي رحمه الله في مكتب الشيخ ابن باز رحمه الله وعرفت أنه قائد الفئة بجهيمان.

ودخلت الوالدة رحمها الله مركز (ميوكلينك) فور وصولها، واستأجرنا منزلاً في فندق (كهلي ريجنسي) ويربطه بالمركز الطبي نفق تحت الأرض يكفينا عقبات المرور والثلج والمطر أثناء انتقالنا به الوالدة رحمها الله في المستشفى وبه منزلنا في الفندق.

وبقيت الوالدة رحمها الله (بلا زوج أحدنا) في (ميوكلينك) أسبوعين تحت الفحص المركز ولم يكتب لها الله الشفاء على أيدي أطبائه ولا مجرد معرفة مرضها، ومع ذلك فقد زاد إعجابي بمعاملة المختصين الأمريكيين (الأصل) مقارنة بالعرب (التقليد): الأمريكي يفحص بالمسة رفيقة، والعربي يفحص بطعنة من أصابعه

المنيفة، والممرضة الأمريكية تحمل مصباحاً صغيراً وتمشي بكل هدوء حتى لا توقظ المريض باضاءة الغرفة أو بحركاتها، والعربية تحب صخب الضوء والحركة والصوت. ولكنها اتهمت طبيباً أمريكياً مبتدئاً بأنه امرأة في حقيقة حاله، واتهمت ممرضة زنجية بأنه معاملتها للمرضى معاملة (عربية) أي: سيئة.

وفي رحلة العودة من نيويورك للظهران لم تختبر طائرتنا أكثر من (١٥) ساعة ونصف بفارق ساعة ونصف عن رحلة القدوم بسبب مقاومة الرياح أو مساندتها. وبتقدير من الله وصلنا ليلة تطهير المسجد الحرام من المعتدين كما سافرنا ليلة الاعتداء عليه، ولوكانه لنا الخيرة من أمرنا ما اخترنا غير ذلك، والحمد لله على كل حال.

ظ - وفي عام (١٤٠٠) أيضاً طلب مني ثلاثة من الإخوة مرافقتهم إلى الحدود الباكستانية - الأفغانستانية لتسليم رؤساء الأحزاب الأفغانية إعانة من المملكة المباركة (اختارتهم لتسليمها إمارة الرياض) ظناً منهم أنهم سيتجاوبون إلى من يتكلم الإنكليزية، فقبلت طلبهم بشرط أن أتحمل نفقة سفري وإقامتي هناك لأني غير موفد (رسمياً)، ولاحق لي في إعانة نائب الأمير إياكم على السفر.

) سافرنا بالطائرة إلى (إسلام أباد) برفقة السفير السعودي حسب توجيه الإمارة وقدر الله عليه الموت قبل عودة الوفد، فعدت مع جثمانه على طائرة عسكرية سعودية كانت هناك ضمن الطائرات التي تصل يومياً تحمل إعانات عسكرية للمقاتلين ضد الشيوعيين (حسب علمي)، رحمه الله وخلف على أهله بصلاحهم.

وقابلنا زعماء الأحزاب في ذلك الوقت، وكانوا ستة: حكمتيار، ورباني، ومجددي، ومحمدنبي محمدي، ومحمديونس خالص، والكيلاني، ولم يكن (سياف) استقل بحزب، ولم يوجد داعي لذلك (لأن زيادة نصيب قائده: حكمتيار من الإعانات المتتالية لهما) فحكمتيار وسياف سياستهما بعملاء لصالح حزب واحد ولو انفصلا ظاهراً، ورباني غير بعيد عنهم منزجرهما وطالما استقل عن حزبهما، والأربعة الباقون صوفية. ولم يكن بينهم داعي إلى الله على بصيرة حتى ظهر (جميل الرحمن) رحمه الله فرفضه بل حاربه الحزبيون (المرتبطون بحزب الإخوان المسلمين): حكمتيار وسياف على الأخص، وكان (جميل الرحمن) رحمه الله متميزاً بين الأحزاب يقصد لواء جهاده وأتباعه على انفراد الله بالعبادة والتزام السنة. (واختار لي الشيخ ابن باز رحمه الله أو أضحى صالح بعد ذلك - للاشتراك معه ممثل لحزب الإخوان المسلمين الشيخ عبد المجيد الزنداني) للتحقيق في هذا الأمر مع المضي على الحدود الباكستانية الأفغانية ولكني بعد الاجتماع بالزنداني أكثر من مرة وجدته متعصباً لحزبه إلى درجة لا تحملني من القيام برفقته فتركت الأمر لأضحى الذي وجدته يتعصب (لسياف) كذلك ما قضى على أي أمل في الإصلاح) نجاه الله منا وعنهم.

٤) لم يكن بين رؤساء الأحزاب من يعمل داخل أفغانستان باسم الجهاد غير (يونس خالص)، ولم يكن بينهم من يهتم بالدعوة إلى الإسلام بصيرة (وآخر من احتلط الجهاد الحقيقي لتكون كلمة الله هي العليا) غير (جميل الرحمن) وانتهى الأمر بخالصي من الحركية والحزبية إلى قتله رحمه الله وأسكنه الجنة.

٥) حاولنا جمع كلمة رؤساء الأحزاب على كلمة الله (أو بالأقل على اسم الجهاد) فلم نستطع تحقيق ذلك ولا الاقتراب منه، كان كل حزب بما لديهم فرحين كما ذكر الله عن عباده الذين فرقوا دينهم وآمنهم شيعًا كل حزب بما لديهم فرحون، والأحزاب والجماعات؛ فلم يكن بد من تقسيم الإعانة على خمسة أحزاب، أما رئيس الحزب السادس فكان غائبًا عن القسمة وعن المنطقة منشغلًا بجمع الإعانات في دول الخليج لصالح حزبه، فوكلناه إلى سهمه، وكان أقل من ملايين التزاما باسم الدين وحمته فضائحه فقد.

٤) أما السفارة السعودية فبدورها قد بذلت جهدًا لتوحيد الأحزاب (في الظاهر إلى حين) باصرارها على ألا تسلم الإعانات إلا لرئيس الاتحاد بعد الاتفاق عليه، ولم مرة حضر عن تحقيق الاتحاد وتعيين رئيس له ثم انفض الاتحاد بعد استلام الإعانة وتقسيمها، فلم يكن اتحادًا على تحكيم شرع الله ولا على الدعوة إلى أحكامه لتكون كلمة الله هي العليا، بل على تحصيل المال ثم يعود كل حزب إلى مذهبه السياسي أو الصوفي، وظهرت النتيجة الفاسدة للجميع بعد انتهاء الحرب.

٥) وقام السياسيون والمتصوفة بإعطاء صفة الحزب لجميل الرحمن وأتباعه مع أنهم وحدهم أهل لذلك (بجعل قاعدة تجمعهم الكتاب والسنة وفقه الأئمة الأولى في الدين)، وتولى كبر ذلك حزب الإخوان المسلمين المبتدع في دول الخليج، وقد سعى الحزب منذ البداية (كعادته) لاستغلال الاقتتال الأفغاني حتى سمي أحد قادته (قائد المجاهدين العرب في أفغانستان) تجاوز الله عنهم.

٦) ولم يجد الإخوة الموكلون بالإعانة حاجة لوجودي لأنه رؤساء الأحزاب الذين التقيناهم يتكلمون العربية ولا يحتاجون إلى مترجم، ولو احتاجوا إلى ترجمة فإنهم يكونون لا يكلمونني غالبًا، ولأني خضعت لفطرة الله التي فطر الناس (وأكثر الحيوان والطير عليها: النوم مبكرًا بعد صلاة العشاء) والإخوة العرب والأفغان لا ينشطون للحركة والحديث إلا بعد العشاء، ولأني لم أر فائدة من استماعهم وتسجيلهم لما يقوله رؤساء الأحزاب الذين ليس لهم (غالبًا) إلا ما يرضي من يطعمونهم في أموالهم، ثم أماتني الله السفير رحمه الله في نوم ليلة فصحبت جسده إلى الرياض.

٤ - بعد أن نجح مشروع المدارس التجريبية لتعديل هيكل التعليم الثانوي بدرجة أقسامه وزارة المعارف بتعميمه (بعد تطويره بصورة انتهت بالحي الزوال) رأيت الاستجابة لطلب الشيخ ابن باز رحمه الله انتقال عملي للدعوة خارج المملكة العربية السعودية عاماً ونصف عاماً بعد ارتباطي بهذا المشروع، واختار الله لي الخير كما أراده:

١) أخبرت أن الأرض المباركة (بلاد الشام) فسافرت بالسيارة إلى الأردن في ١٤٠٧/٧/١ سفراً تكرر واستمر أكثر من (٢٠) سنة متنقلاً بالسيارة بين المملكة المباركة وأرض الشام (الأقل بركة) نحواً من (١٥٠) مرة قاطعاً المسافة بين الأرضين بما لا يقل عن (٦٠٠) كيلو في كل مرة، وبين بلاد الشام نفسها مرات لم أحصرها عدداً والكيلو صغيرة بالمقارنة بجزيرة العرب، ولم أتجاوز بلاد الشام إلا مرة إلى تونس بالطائرة لحضور اجتماع عربي تربوي، ومرة إلى مصر بالسيارة لزيارة بعض إخوة الدعاة، ومرة إلى أوروبا بالسيارة لزيارة مكتب الدعوة في لندن ولكنني اضطررت للعودة من شمال سويسرا، وقد يأتي الحديث عنه بعد.

٢) ولما كانت لبنان تعاني من الحرب الأهلية الفتنة التي لا يعرف فيها القاتل أحياناً من قتل ولا المقتول فيم قتل، وكانت سوريا تعاني من فتنة (حزب الإخوان المسلمين) في حماة ثم في كل مكان، وكانت فلسطين تعاني من اليهود ومن أعداء دين الله تعالى في الأرض المحتلة لم يبق إلا الأردن فاتخذت عمان منزلاً، وفي فصل الصيف يوم ارتباط الدعوة بالسفارة ناسياً أو جاهلاً أن الدولة المباركة التي انتدبتني وانتدبتني قامت على الدعوة ولا تزال تحميها وتنشرها في القرون الثلاثة الأخيرة فضلاً من الله. ونعم اختيار الله لعبده، فتحررت من القيد الزمني والقيد المكاني الروتيني واتخذت منزلي مكتباً ومجلساً للدعوة والدعاة بلا تكلف ولا مظاهر كما كانت الدعوة قبل القرن الأخير، وفيه توجد المشكلات الأمنية أنقل الدعوة والدعاة إلى المسجد تحت بصر وسمع الجميع، وكنت أهدي نسخة من مطبوعاتنا لمن أستطيع الوصول إليه من رجال الأمن في بلاد الشام، ودعوت الجهات المسئولة (الأوقاف أو الإفتاء) للمشاركة في الإشراف على دعاتنا والاستفادة منهم في الدعوة والإمامة والخطابة، وفي ذلك فلم يتسلل من منزلي من تسلل الأمنية في غيابي وتفتيشه في بلديه من بلاد الشام، والسؤال عني في كل مكان، رحمهم الله.

٣) وكنت أستقبل الزوار من الدعاة، وطالبي الشفاعة للقبول في الجامعات والراغبين في الكتب والإعانة المالية من بعد العشرة إلى أذان المغرب، ثم أرابط في المسجد إلى أن أؤدي صلاة العشاء ثم أعود إلى البيت وأقطع وسائل الاتصال حتى سحور يوم الخميس اليوم الثاني، ومرة واحدة وصل ابني من السفر على غير موعد فوجد نافذة غير محكمة القفل ووجد المفتاح على الباب من الداخل فتدبر أمره، ومرة واحدة وصل أخي من السفر على غير موعد فاضطر للنوم عند مؤذن المسجد المجاور

٤) وعندما تدعو الحاجة إلى تفقد حميمية أو مسبح أو فرد طلبت الإجازة من المدرسة مدة أو قرى الأردن أضطر أهلي في جولة حول الدولة تبدأ مع الشروق وتنتهي مع المغيب، وقد أعانني الله بتحمل (كل هواية) السفر بالسيارة فلم أترك مكاناً في هذه البلاد لم أزره، حتى ليدعي بعضهم أنني عرفت منها أكثر مما عرفوه. والأردن على صغر مساحته (مقارنة بالسعودية أو سوريا أو العراق) تضم خمس مناطق مختلفة أكبرها الصحراوية (٨٠٪)، والساحلية على خليج العقبة، وغور الأردن (من ١٠٠ إلى ٤٠٠ متر تحت مستوى البحر)، والمرتفعات (أعلاها: رأس منيف ٥٠ ١٨ متر)، ومناطق الأحراج والغابات والجبال التي تغطيها الثلوج بعض أشهر الشتاء مع أنه معدل ارتفاعها لا يتجاوز (٩٠٠ متر). ومع أنه منزلنا الآن في الطائف يرتفع (١٦٥٠ متر) فهو مستوى البحر فإنه أقل برودة للفروق بين مواقع الشمال والجنوب والشرق والغرب من خط الاستواء. ويتوقع المطر في الطائف وغيره من مرتفعات السعودية (وهي أكبر من مساحة الأردن كاملة) كما يتوقع المطر في عز الصيف ولا يتوقع في بلاد الشام إلا في أشهر الشتاء، وبعض أشهر الخريف والربيع نادراً.

٥) وعلم الله حاجتي إلى وسيلة للسفر مريحة أكثر من السيارة العادية لمدة تزيد (١٠) ساعات في اليوم يتخللها الوضوء والصلاة والطعام) فقادني على غير قصد مني إلى معرض سيارات إنكليزية، ولمحت سيارة غريبة الشكل كتب على مقدمتها (AUTO SLEEPER) أي: سيارة نوم متحركة، صغيرة الحجم بحيث تستعمل لأغراض متعددة وتدار بالديزل، وتحوي مطبخاً، وثلاجة، وخزانة ملابس، وخزانة للآنية، وخزان ماء متصل بمضخة صغيرة تفتح بمجرد فتح الصنبور، ومنضدة للأكل، وسريرين معلقين للأطفال، وتتحول مقاعد السيارة عند الأكل للأكل وعند النوم للنوم، ويرتفع سقف السيارة عند الحاجة ليمكنه للرجل العادي المشي داخلها براحة. ولا زلت استعملها في الطائف وضواحيها وبين الطائف ومكة، بعد مرور ربع قرن على تاريخ صنعها، فأتذكر أنه لو كانت امرأة لملأت البيت عياناً فيما لو كانه زوجاً أحد صديقيه (سلفي وتبليغي) بلغ عدد أولاده وبناته كل منهما (٣٠) قبل أن أتوقف عن العد، هداهما الله جميعاً إلى منهج النبوة.

فصرنا نطبخ وناكل فيها أو نقف عند المطعم فيطعمنا ونأكل ونتغدى ونتعشى ونقضي معظم سفرنا هذا نصفه نائم، وننام فيها أياماً تبلغ عدد أيام الشهر أحياناً عندما لا نحلل منزلاً في المنطقة، وفي أحد أيام الشتاء الباردة في دمشق تفقدت مقياس الحرارة فوجدته (٣) درجات مئوية تحت الصفر، وأشعلنا الموقد وشربنا بضعة أكواب من الحليب ما أن ذهبا وأدفأها، وأبينا النزول في فندق مدفأ مركزياً، فأفقدتنا شدة الدفء لذة الأكل والشرب والدفء فعدنا إلى المخيم وبحثنا وضأنا وصلينا داخل السيارة عند الحاجة. وتحيط (البعير) لسموها وخشونتها

٦) ومع محاولاتي المستمرة لإطلاع المسئولين في السلك الذي أعمل فيه على منهج الدعوة الذي نلتزم به شرعاً وهو منهج النبوة والإلمام باستعدادي للتعاون معي الأوقاف والافتاء في اختيار وتوجيه الدعاة والاشراف عليهم بشرط واحد: الدعوة بالأحكام الشرعية إلى الأحكام الشرعية اعتقاداً وعبادة ومعاملة بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن دون تعصب ولا تحزب ولا عنف ولا خوصصة في السياسة الرخيصة غير الشرعية، رغم كل ذلك فلم أسلم ولم تسلم الدعوة ولم يسلم الدعاة من المضايقات الأمنية المبنية على سوء الظن، وسوء الظن - كما يقول أحد الأمنيين الانكليز في مذكراته بعد تقاعده عن العمل هو أهم أساس يقوم عليه العمل الأمني ولولاه لما وجدت وظائف لأكثر العاملين في المؤسسات الأمنية، لكنا في انكلترا (الأفضل) فكيف في العالم الثالث المقلد؟

٧) وبعد احتلال حزب البعث العراقي الكويت وما صاحبه من فتنة جرت كثيراً من العرب على شرفي نهر الأردن وغربيه (بخاصة) إلى الفرح بهذا الحدث الشنيع وتأييد الظالم والشماتة بالمظلوم، وجمعت لإسلاميهم وشيوعيهم متعلميهم وجاهلهم على مفارقة الشرع والعقل، كان لابد من التنقل في بلاد الشام الأخرى، فاخترت صرفي وقتاً أكثر للعمل والاقامة في دمشق لأن الدولة السورية لم تؤيد العراق بل أرسلت بعض قواتها للاشتراك في تحرير الكويت فلم يتمكنه المخدوعون بزيف الاحتلال ومؤيدوه من لفظها وعناصرهم لم تزل في سوريا.
وكانت الحرب الأهلية في لبنان تلفظ أنفاسها الأخيرة بعد اجتماع الطائف الذي وافق فيه قادة لبنان على دخول الجيش السوري لفرض الأمن. وصرفت وقتاً أكثر للإقامة والعمل في لبنان.

٨) ولبنان يختلف عن بقية البلاد العربية من حيث قوة صلته بالثقافة الغربية وبالتالي اتساع المساحة لحرية العمل الديني والدنيوي ولوأن الحرب الأهلية وأسبابها الطائفية قد هدمت من هذه الحرية شيئاً.
قبل الحرب لم تكن هناك في لبنان دعوة سلفية تذكر بل كان أكثر الناس منصرفين إلى المشاركة الدنيوية في تميز لبنان الثقافي والتجاري والسياحي.
وعدت إلى لبنان بعد انقضاء الحرب فوجدت شيئاً لم أعهده قط قبل الحرب: طلب للعلم الشرعي (بدليل) يتطوعون بالجلوس في حلقة العالم على معلميهم يتطوعونه بالتعليم ويدعونه إلى الله على بصيرة، والطالب المعلم في سرعة تقابله.
٩) وتجسد هذا الاتجاه العلمي الجديد المبرأ من مخدرات الطائفية والحزبية الدينية فخرجت للمرة الأولى والأخيرة عن أدبيات الدعوة في عصر النبوة والصحبة، إذ

وحدت عدداً من صغار التجار يقومون على مؤسسة صغيرة أهلية تطوعية للدفاع المدني ظهرت الحاجة إلى وجودها أثناء الحرب، إذا انقطعت المياه مثلاً في المنطقة أعانوا من يحتاج عونهم (من أجهزة فنية) بنقل المياه إليهم، وربما طلبت الشرطة منهم الإعانة في نقل جثة غريق أو قتيل إلى المقابر، ونحو ذلك، وفي فترات السلم يجتمعون على طلب العلم في حدود استطاعتهم الضيقة.

وقبلت التعاون معهم أولاً بشراء شقة للمؤسسة ثم بشراء سيارة لإسعاف بتمويل من شركة الجميح القابضة جزاهم الله خير الجزاء، والقائمون على الشركة من خير من عرفت من التجار معرفة بشرع الله واهتماماً بالدعوة إلى إفراد الله بالعبادة والسنة ولإنكار الشرك والبدع الأخرى في النية، وبراءة من أشراك الحزبية المبتدعة باسم الإسلام التي وقعت فيها شركة للصرافة من أكبر الشركات المالية في المنطقة بل في العالم، وبراءة من فرقة التصوف والإرهاب والفتنة التي تمولها شركات أخرى مما استغلها الله فيه من أموالها بلاد الدعوة إلى التوحيد والسنة، ولازالت شركة الجميع القابضة تمول نحو (٨٠) من دعاة بيت الشيخ ابن باز رحمه الله (بعد أن توقفت الإعانات عن بقيتهم) إضافة إلى أكثر من (٥٠) أتولى الإشراف عليهم، وبعد تمويل الفتية قبل بضع عشرة سنة باقتراحي منّي للشركة خلف الله نفقتها بالبركة.

١٠) وتعاونت مع الإخوة في جمعية الدفاع المدني على تأسيس (وقف للعلم والدعوة والخدمة) ضمّ الدفاع المدني والدروس الدينية وإذاعة (FM) لبث أشرطة العلم الشرعي وتم تركيب أجهزة البث الإذاعي وشراء شقتين للإذاعة والمكتبة وقاعة للدروس تعاونت على تمويلها مع شركة الجميح القابضة وجمعية إحياء التراث بالكويت، جزاهم الله جميعاً خير الجزاء وأجزل الثواب.

واجتمع أمراء على إعاقة استمرار الإذاعة والوقف، أحدهما: صدور نظام جديد للإعلام في لبنان بعد الحرب قضى على أكثر مؤسسات البث الإذاعي والتلفازي الأهلية التي لا تحمل ترخيصاً رسمياً، وثانيهما: طمع من اشترت البث الشقة بأكمها في الاستحواذ عليها، فتوقفت الإذاعة عن البث (بعد أن أخلّ الفنيون القائمون عليها بشرط تخصيصها لدروس العلم الشرعي من كبار العلماء) ثم نشبت شقاقه بين الإخوة حول إرث الأجهزة والأثاث (التي تصرفت فيها أحدهم منفرداً عنهم) وأهم من ذلك إرث الشقة الثلاث، وكنت أحاول وضعها تحت إشراف مفتي الجبل (ولازلت أدور نجاحي يذكر) خوفاً من استمرارها شركاً لاصطياد الشرعات.

والحق أن كثرة الملاك وكثرة الأدوات وكثرة الأنظمة تعوق الدعوة إلى الله أكثر مما تفيدها وتفتح منافذ للشيطان ليبذر بذور الخلاف بين الدعاة وطمع بعضهم في التفرد على الحق المشترك ومحاولة صرف المصالح فردية لهم والله الجميع برحمته.

١١) وكنت أرغب بطبعي عن التكلف، وهذا أحد الأسباب التي حببت إليّ يوماً أسلوب جماعة التبليغ، ولولا فساد منهاجها وضلال قادتها، وتعصب الأتباع لهذا المنهاج وهؤلاء القادة لكانت خير خلف لخير سلف.

وثبتني - بفضل الله - على منهاج النبوة والخلافة الراشدة المهدية في الدين والدعوة كما أنزل الله بهما الآيات المحكمة في كتابه، وكما بيّنهما السنة الصحيحة، وكما فقههما أئمة السلف المعتدبهم في القرون المفضلة؛ فلا التزام بمنهاج غير منهاج الوحي، ولا اتباع لسنة غير سنة النبي صلى الله عليه وسلم وسنة خلفائه الراشدين المهديين، ولا انتماء لحزب ولا جمعية ولا شعار محدث خاص يفرق بعصبة المنتمين إلى الإسلام والسنة عن الجماعة والإمام.

١٢) ولم أنصب لنفسي ولا للدعوة التي شرفني الله بخدمتها ولا للدعاة الذين شرفني الله بخدمتهم الانشغال بنظرة الفكر الموصوف زوراً بالإسلامي عن بقية الوحي والفقه فيه عند أهله في الزمرة الذي شهد النبي صلى الله عليه وسلم له بالخيرية، والانشغال بالنافلة عن الفريضة؛ فحذرت من انتشار الانشغال بتحفيظ القرآن (حتى لو لم يتخذ مطية لأغراض حزبية أو مالية) عن تدبره وهو الفريضة (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب). وحذرت من المبالغة في الالتزام بما يسمى أحكام التجويد ودعوى حتمية الضبط، ولم يرد بذلك دليل شرعي، (انظر كتاب العلم ص ١٧ للشيخ ابن عثيمين وفتوى الشيخ ابن باز رحمه الله وما ورد عند الإمام أحمد من كراهية بعضه لهذه الأحكام) مثل الإدغام الذي يمنع القطع بحرف أنزله الله ويجزي به عشر حسنات) والإخفاء أشواط. وحذرت من بدعة ما سمي: (الإعجاز العلمي في القرآن) الذي يربط تأويل كلام الله اليقيني بنظريات العلمية الظنية. وحذرت من القول على الله بغير علم بتفسير بعصبة الكتاب والأطباء والقصاص كتاب الله، وأشهر التفاسير المفتراة: (في ظلال القرآن لسيد قطب).

وحذرت من التفرقة في الدين والدعوة باسم الدين والدعوة. وأخيراً حذرت من الفتنة الجديدة: (موقع ومؤسسة ومجلة الإسلام اليوم) التي تجلب بخيل ورجل، وأموال المحسنين الجاهلة بشرع الله، وقلوب بعصبة المفتونين الفاتنين الذين قبلوا في الخروج الصريح على الجماعة والإمامة في العقد الماضي - بفضل الله - فلجأوا إلى الخروج المتستر بمحاولة هدم القاعدة العظيمة (التي أقام الله عليها هذه البلاد والدولة المباركة): فقه السلف الصالح في الدين (وهو سبيل المؤمنين) والبناء على فكر خبيص مبتدع باسم الاجتهاد (من غير أهله)، والتعددية والصفاء النفسي (وهما لفظان أجنبيان عن سبيل المؤمنين لا وزن لهما في الوحي ولا في الفقه الأول فيه). ولا يجعل القائمون على هذه الفتنة والسبب الجديد من أبواب الشر (ولو بمجرد الادعاء) أكبر همهم ما أرسل الله به كل رسله من الأمر بإفراد الله بالعبادة والنهي عن الشرك وما دونه من

الابتداع في الدين، ولا التفقه (أو التفقه) في الدين إلا طمسه بدعوى فقه الواقع والموقف، هدانا الله وإياكم لأقرب منه هذا رشداً بالرجوع إلى (الإسلام المتبوع) الذي كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم وأرضاهم.

٢) وحذرت (مما يعود وبه ذلك) من الالتزام بما تعود المنتمون إلى الإسلام الالتزام به تعبداً ولم يشرعه الله أو خالف شرعه من التباهي بزخرفة المساجد والمصاحف، وتعدد المآذن، وإضافة القباب والأقواس الكنسية البيزنطية إلى بناء المساجد وتشييدها (زوراً) بعمارة إسلامية، وفصل مصلى النساء عن مصلى الرجال بحيث لا ترى المأمومة إمامها ولا سمعه وراءه تنظماً واستدراكاً على السنة، والوصل بين الآيات في التلاوة بحجة إظهار المعنى (وقد فصل الله ورسوله)، وإطالة الخطبة يوم الجمعة وتقصير الصلاة خلافاً للسنة، وصرف خطبة الجمعة (وهي عبادة مفروضة) إلى أخبار الحوادث والطوارئ الطنينة عن تعليم أحكام الشريعة اعتقاداً وعبادة ومعاملة، والسجع المبتدع في دعاء القنوت وخطبة الجمعة وكتب العلوم الشرعية، ومشارع كثيرة.

٤) وجعلت أكبر همي الالتزام بمنهاج النبوة، والتذكير به (لما رأيت من انصراف أكثر المنتمين إلى الإسلام والدعوة عنه) بترهيب ونشر الكتب الشرعية المتعلقة أو لا بأركان الإسلام والإيمان فما دونها مقترنة بالتحذير مما يخالفها وبالتدليل من الوحي والفقه فيه أهله على كل أمر وكل نهي، وبنشر المقالات وكتابة الرسائل بياناً للحق ورداً للباطل بالحكمة والموعظة الحسنة.

٥) ولم أجد في بلاد الشام (ولا غيرها) مصداقاً للنشاطات التي يقوم بها وفود الدعاة الحزبية والحركية إلى مراجع التدين من أنه الدولة تخاصمهم وتقاتلهم على الدين ولما تخاصمهم وتخاصمونها وتقاتلهم ويقاتلونها على الدنيا وعلى كراسي الحكم. بل وجدت من كبار قادة الإخوان المسلمين في الأردن من ينشر تراث جده الصوفي ويدعي لأمه عند وفاته سمي باسم النبي شعيب، بينما يأمر ملك الأردن بهدم تمثال أقيم له (تأسياً بتمثال أقامه المنتمون إلى الإسلام لصلاح الدين على فرس) ويوصي الملك بمنع البناء على قبره. وجل البدع والشركيات يقترفها المحكومون وتشكك بعض الحاكمين إرضاءً لهم، أو ضعفاً بل لأنه حالهم منهم تشترك مثالهم ليس بحق والملك. وأكبر دليل على أنه فساد المحكوم يسبق أو يقلب فساد الحاكم أنه حكام روسيا السوفيتية كانوا يمنعون المسلمين من بناء أو بناء المقامات والمزارات لأنهم لا يؤمنون بالدين الحق ولا الدين الباطل، وبعد استقلال ما يسمى بالجمهوريات الإسلامية أخذ شيوخ (لا حكامها) يجمعون التبرعات لتدارك ما فاتهم من بناء الأوثان.

٦) وكذلك الطائفية في لبنان لا تعود الدعوة الصحيحة - فيما رأيت - لأنه كل طائفة تدرك أنه لا بد لها من التعايش مع بقية الطوائف، ولم أسمع مرة واحدة شيعياً يسب صحابياً (ولو بأدنى من سب سيد قطب تجاوز الله عنه معاوية

وعمرو بن العاص وغيرهما رضي الله عنهم وأرضاهم).

وقبل عصر النصارى خيرا من ذلك فقد كنت عائدا بعائلتي من شمال لبنان إلى منزلنا في جنوبه ليلة الانتخاب الأولى بعد الحرب، وكان الناس متخوفون من عواقب مقاطعة القوات اللبنانية النصرانية لهذا الانتخاب، وكنت حريصا على العودة إلى المنزل قبل الليل وتحيرا من التوقف في (جونية) معقل القوات فأراد الله أن تتعطل سيارتنا أمام مركز القوات اللبنانية قبل المغرب بساعة فنفشت لحيتي ووقفت على الطريق العام لعل سلفيا أو صوفيا أو تبليغيا يلبي طلبي المساعدة، أما الإخواني والتحريري فليس توفير الماء من شعارهم وغربت الشمس فنزل النساء والأطفال للصلاة على حصير حملناه لهذه الغاية. وبعد الصلاة طلبت العون من الله ثم من القوات اللبنانية فجاء ميكانيكي منهم يحاول إصلاح السيارة فلم يفلح ولكنه استمر في المحاولة، وفجأة توقفت سيارة بجانب سيارتنا ونزل سائقها يشارك الميكانيكي في محاولته (دون أن نطلب منه ذلك) وبعد فترة جاء بالحبل اللازم المتطوع، وأخبرني أنهما فشلا في إصلاح السيارة ولكنه سيجرها إلى منزلنا وأخرج حبلا مصنوعا لهذا الغرض فأخبرته أن المسافة (٥٠ كيلا) فلم يثنه ذلك عن عزمه، وعاد لسيارتي يهيئ للجر، وكأنه تذكر شيئا فكرر محاولة الإصلاح فوفقه الله لمعرفة الخلل وإصلاحه ولكنه قال: الإصلاح مؤقت وقد تتعطل السيارة مرة أخرى ولذلك فسأرافقكم بسيارتي إلى منزلكم فشكرته ورفضت عرضه رفقا به جزاء إحسانه، وأخرجت له الأجر فأخذه وقال: (الظاهر أنك لم تعرفني .. أنا أبونا) أي: القسيس، فقلت في نفسي: يا ليت (أبونا) المسلم يكتفي بالأجرة العادلة، ولكني تعودت منه طلب أضعاف ما يستحقه، وقد عرفت بعض الإخوة المنتمية إلى السنة الصحيحة لا يشترطون الأجر للتحايل على سلب مال الخليجيين بدون حق ثم يعودون إلى حالهم تذكرني بقصة يروي الأصمعي عن أعرابي كسول وجده في الصحراء عاريا يستظل شجرة وثوبه تلعب به الريح فوقر فسأله خبره فأخبره أنه ينتظر أن يرزقه الله زوجة، فقال: هل سمعت الله أنه يأتي بالليل؟ فقال: لا، بل سمعت إليه فاستشهد ببيت من الشعر:

(لعل الله أن يأتي بليلى ... فيطرح ويلقيني عليها - ويأتي بعد ذلك كان مزن ... يظهرنا ويسقي الربا).

وعن طائفة الدروز كتب عبد الرحمن الراشد في جريدة الشرق الأوسط أن وليد جنبلاط قائد الدروز السياسي في مقابلة معه تمنى أن تقوم السعودية بواجب دعوة الدروز إلى الإسلام الصحيح، فاستأذنت السفير أحمد الحكيم لزيارة وليد جنبلاط وتوكيد الخبر فقال: (سؤ عليه، وقل له أحمد يسلم عليك) فزرته بصحبة أحد دعاتنا من أصل درزي، وشكرته على إيفاد (٢٠) طالبا درزيا إلى الأزهر لحضور دورة دينية مقترحا شهرا له، فقال: (وأنتم كذلك لا بد أن تساهموا في إعادة الدروز إلى

حظيرة الإسلام) أو كلاماً بهذا المعنى، وقمنا بعد التشاور معه بزيارة لأحد مدارسهم في (عالية)، وأذكر أنهم أبدوا استياءهم لما قرأوه في أحد الجرائد أو المجلات من إجابة الشيخ ابن باز لسؤال عبد الدروز بأنهم خارجون من الملة، وفي المقابل: كتب شيخ العقل (بهجت غيث) في مجلة الضحى الدرزية: (دستورنا كتاب الله وسنة رسوله، نحل ما أحلا ونحرم ما حرما)، والشيعة والصوفية والحزبية تدعي بمثله ولكني لم أشهد مرة واحدة وقوف طائفة لبنانية في وجه الدعوة إلى الدين الصحيح وشهدت مرات عديدة وقوف الدعاة المنتمية إلى الإسلام والسنة عقبات في طريق إخوانهم الذين لا ينتمون منهج جهم الأنصاري، ولم تعاد الدعوة السلفية في سوريا بقدر أعلى نشاطها قبل أن يجتاحها النطيحي هدانا الله وإياه في التأليب عليها. ولم تعاد الدعوة السلفية في لبنان والأردن أي قدر على نشاطها إلا بسبب الشقاقات بين المنتمين إليها إضافة إلى الحزبيين والمتصوفة والأحباش هداهم الله جميعاً. ولم يقتل في فتنة حماة ولم يشجب من دعاة السنة الصحيحة غير واحد من السلفيين اعترف لي بعد طلاقه مراجعه بأنه خرج عن منهج السلف لكونه سجن إذ دفع لقريب له من حزب الإخوان المسلمين مالاً اشترى بجزء منه سلاحاً للمقتولين وطبع بجزء منه ديوان لمرواني حميد يذكي الفتنة ليس فيه كلمة واحدة للدعوة على بصيرة، ولم يحمل الشيخ عبد القادر شيبة الحمد الخطابة إلا بسبب خروجه عن منهج الدعوة في خطبة الجمعة إلى خطب الحياة الإسلامية عن الحوادث والطوارئ، تجاوز الله عنا وعنهم جميعاً. ولم يخرج الشيخ الألباني من الأردن إلا بتأليب من كبار المبتدعة ثم رده الملك بعدما بين له حقيقة حاله أحد تلاميذه، وعندما سلم للمخابرات السورية صدر ضده حكم بالإعدام فأطلق سراحه في الليلة نفسها وسمح له بالخروج إلى لبنان بعد ثلاثة أيام حسب رغبته لأنه رحمه الله مشتغل بالعلم الشرعي والدعوة الشرعية عن السياسة غير الشرعية. ولم يحمل شيء من كتب ابن تيمية في سوريا حتى استفاد حزب الإخوان المسلمين (وهو غير منتمٍ لمنهج جهم) في محاولته للتسلط على السلطة.

وشرف الله دولة الدعوة إلى التوحيد والسنة بطبع ونشر وتوزيع الكتب والمراجع والرسائل والمصاحف في كل بلاد الشام (وغيرها) وشرفني بترتيب وطبع وتوزيع نحو ستين كتاباً لم تجمع دولة واحدة كتاباً واحداً، وفقهم الله لطاعته وهداه. وحتى المراقبة على سوء حالها لم تحارب الدعوة السلفية (بخصوص) إلا بعد أن استقل عزت إبراهيم حزب تحرير الكويت وقيادة الدولة السعودية للدعوة السلفية لإرضاء نزعته الصوفية والانتقام من أهل المنهج السلفي.

وأشهد الله منهج العقيدة في معاهد الدولة السعودية أقرب إلى السنة منه في معاهد حزب الإخوان المسلمين وغيرهم من المنتمين إلى السنة ألف الخير وقلعجي والبغا وغيرهم. الشيخ علي الشوربجي جزاهم الله خير الجزاء.

١٧) وأسسنا معهداً للعلوم الشرعية في طرابلس لبنان بتمويل بعض المحسنين ولكنه الإرهاب والعدوان (المستشفى - زوراً - الجرحى) تسبب في توقف ممولي الأول عن تمويله، ولكنه استمر في العمل بتمويل من شركة الجميح القابضة وجمعية إحياء التراث بالكويت جزاهما الله خير الجزاء وأجزل لهما الثواب.

وأسسنا عدداً من المعاهد والمدارس والجمعيات الدينية الشرعية بشرط تجنب التحزب والتعصب والعنف، والتزام الدعوة على منهج النبوة من أحكام الشريعة بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن.

١٨) ولبنان شاهد حي على سوء عاقبة التحزب والتعصب والعنف يذكر من زاره بعيد انتهاء الحرب الطائفية بأن الفتنة الداخلية أسوأ من الغزو الخارجي؛ فلم يفعل محتل أعجمي في بلد عربي ما فعلته الحرب الأهلية في لبنان والصومال والاحتلال العراقي في الكويت وأخيراً الاقتتال في فلسطين بين الفلسطينيين.

كانت آثار الدمار في كل مكان (في السهل والجبل والبحر)، وكان الناس في بيروت يزيدون آثار الدمار سوءاً؛ يسرقون الكهرباء (مثلاً) من خطوط في الشوارع ويضيئون المصابيح الكاشفة بقوة (٥٠٠ واط) على بيوتهم ليلاً ونهاراً، ثم يلعنون الدولة محملين إياها مسئولية ضعف الكهرباء (وما لبنان بأسبب سوانا).

وعودهم الاقتتال بينهم على تحصين منازلهم بالأبواب الحديدية الثقيلة والأقفال المتعددة، وتحصين سياراتهم بأجهزة الإنذار.

وأقنعني أحد الإخوة بالتباس الباب الخشبي لمنزلي بدرع من الحديد وتزويده بثلاثة أقفال بيه (٣ في ٦ درجات) ويشرفني بعد ذلك أن له يتمكن مقتحم منه فتح بملقط كما يحدث للأبواب غير المدرعة بل يقاوم صوابي مضاد للدروع.

ولابد أن يتقبل ما يقول فقد رحمت منه أن استولى على منزل لسعودي غائب قبل استعمال الدروع والأقفال المزدوجة، وفارقه وهو في حيازته.

وتعود اللبنانيون على انقطاع الكهرباء بسبب الحرب وسوء الاستعمال فحملوا المصابيح اليدوية ليعدوا طريقهم إلى منازلهم وطريقهم داخلها حتى يضيئوا الشموع.

وتعودوا على أصوات الرشاشات؛ زارني الأخ (مقتص الشقوق في فندقي وأظهر نقصاً في الشجاعة إذ توارى خلف حائط عندما سمعت بفتحي قذيفة طبخت فيه غمائي خوفاً من الانفجار، ولكنه رافقني في السيارة إلى (صيدا) وكان الطريق مزدحماً بالسيارات، فسمعت طلقات الرشاشات المتتابعة وكأنه لم يسمع، فلما سألته عن ذلك تثاءب وتمطى وقال: (بيأقصوا في الهوا تا يفلوا عجاة السير) كانوا يطلقون الرشاشات ليختبروا السيارات على الحركة فرأيت العودة إلى المنزل وتأجيل الزيارة حتى يبدأ استعمال الرشاشات مروراً أسلم.

١٩) وأثناء عملي في بلاد الشام زارني الشيخ إسماعيل بن عثمان المدرس العام المساعد

للدعوة في الخارج وأخبرني برغبة الشيخ ابن باز رحمه الله في أن نقوم معاً بزيارة مفتي الجمهورية السورية في دمشق ومؤسسة التعليمية (معهد النور) في حي الأكراد في دمشق، ومفتي الجمهورية الشيخ أحمد كفتارو هو رئيس الطريقة النقشبندية في سوريا، أصل كردي وهو محدث لبيب، ولباقته أقنعت الملك فيصل رحمه الله بتمويل بناء (معهد النور) رغم الاختلاف بينه السلفية والصوفية، ولباقته يسرت له الحصول على تصويت علماء سوريا بتعيينه مفتياً عاماً.

وسمعته في أحد دروسه يرد على إجابته على سؤال السفير الكندي: كم عدد المسيحيين في سوريا؟ أجاب المفتي: (١٥ مليون) بمعنى أنه المسلمين أيضاً يؤمنون بالمسيح، فهو حريص على إرضاء الجميع، وكان الشيخ ابن باز رحمه الله فهم منه أن (معهد النور) يعلم معتقد السلف ويطلب إعانته، وعلى هذا طلب منا زيارته، وزرنا المعهد فوجدنا منهاجه خليطاً من الفكر والتصوف وما يسمى علم الكلام، وهو يضم كلية للدعوة تمول (ليبيا) تشغيلاً وتشترط وجود ليبيين في الإدارة، ومقرر العقيدة كتب للترمذي لا تأمر بسنة ولا تنهى عن بدعة.

وزرنا الشيخ كفتارو في منزعته على طريق المطار وتغدينا بطيب طعام الفطور الصوفي فلم يفد - كما تروى - ماء وكسرة خبز، وأبدينا للشيخ وابنه مدير المعهد استعدادنا للإعانة بالكتب والمعلمين من سوريا، ورأينا أنه يقرر لتدريس الاعتقاد متن الطحاوية في المعهد وشرحه لابن أبي العز الحنفي في الكلمة (عوضاً عن كبرى البيقينيات الكونية للسنوسي) فوافق الشيخ فوراً وزاد بأنه كان يتمنى - من قبل - التخلص من كتاب (كبرى اليقينيات) لأنه يقوم على الفكر المعقد الذي لا يستطيع الطالب أن يفهم أو يخرج منه بشيء، ولكنه ابن التنفيذي فصبر قولاً وفعلاً.

وكانت زيارتنا عام (١٤٠٢) في ذروة فتنة (حماة) فلم نجد أثراً لها كما كان يتجلب بحزب الإخوان أثناء تجمعهم التبرعات من أبناء الدولة منعت الحجاب ومنعت الدروس الدينية واعتقلت الشباب المصلين والمتحجبين بل إنه أول ما رأينا على الحدود عسكرياً يصلي، ورأيت الحجاب في بعض أحياء دمشق أبرز منه في أي بلد بعد جزيرة العرب، وفوجئت بضابط سوري (بلا ثياب نجوم) ملتحٍ يصلي بجانبي في المسجد، وعرفت منه وصفه فيما بعد أنه النظام في الجيش السوري لا يمنع منسوبيه من الالتحاء (كما تفعل أكثر الجيوش العربية).

وأصل فتنة منع الحجاب تصرف فردي في يوم واحد أعلمه بعض رئيس الدولة على الملأ أنه وطء كان هو شخصياً يرى فرضية الحجاب فإنه لا يجوز منعه.

ووجدنا دروس الشيخ عبد القادر منتظمة ولكنه توقف عن الخطابة على إثر إشاعة بأنه وزارة الأوقاف السورية ستلزم الخطباء بالمجيء للرئيس فكتب للشيخ ابن باز رحمه الله أنه يعود للخطبة ويعود للرئيس ولو لم يلزم لعل الدائرة يقبل منه.

وأدّعت مجلة المجتمع لسانه حزب الإخوان المسلمين في الكويت أنه الدولة السورية قتلت (٢٠) ألف ثائر في فتنة (حماة) وقال غيرها: (٢٠) ألفاً و(٧٠) ألفاً (وكيل العرب اليوم جزافاً). وظهر تقرير حزب الإخوان وحلفائه من القوميين العرب والبعثيين العراقيين وغيرهم من العلمانيين (حماة مأساة العصر) فقدّم (٢٠٠٠ آلاف) ولكنه من يعدّ ومن يصدّقه ومن هو القاتل وما مزاج المقتول؟

واستعدى المبتدعة (وهم الغالبية العظمى في الشام كغيرها) مؤسسة أمنية على صديقي الداعي إلى الله على بصيرة (في المالكية شمال القامشلي) ملا اسماعيل رحمه الله فسئل في التحقيق عن رأيه في فتنة (حماة) وأجاب إجابة فقرة: (الإسلام دين الدولة) من الدستور الجديد فأجاب: (حزب الإخوان ومن حالفهم من العلمانيين مخطئون والدولة مخطئة) فسئل كيف؟ فأجاب: هم يعلمون أن الإسلام لم يكن دين الدولة منذ الحكم العثماني فليس من الشرع ولا من العقل أن يخرجوا انتصاراً لقول يخالف العمل، وأخطأت الدولة لأنها لم تدرأ الفتنة (وما أريد فيما من دماء وما ندّر فيما من أموال) بمثل هذه كلمات؛ فأعطيت حصانة من كيد المبتدعة، وهو شيخ حمدي السلفي الداعي إلى الله في العراق، والإثنان من أصل كردي عراقي، وجنّد المبتدعة المنتمون إلى السنة من العراقيين في طلب الملا اسماعيل ليشتموه أو يقتلوه أو يخرجوه فرحل إلى أرض الشام المباركة فحاسبه فيما بقيت حياة رحمه الله، وانتظم في سلك الدراسة بمسجد التقوى أول عهده بالشام ليدعّمه الإقامة والطعام والدعوة (وأهل الشام من خير من عرفت بذلّ في سبيل الإحسان) وقضى به إلى الشيخ على التقوى تجاوز الله عنهم بتهمة نشر التوحيد والتحذير من الشرك فتمنع من الطعام ولكنه الطباخ صار يزيد نصيب صديقه من الطعام لما كان معاً (حسب روايته لي وما جرّبت عليه كذباً).

وسافر إلى الرياض بجمع التبرعات لبناء مسجد للسنة في المالكية لا يفسده المتصوفة ببدعهم ورقصهم وشركهم وغزلهم أحياناً (ذكر لي الشيخ عبد القادر الأرناؤوط رحمه الله أنه شهد حضرة صوفية في أحد مساجد دمشق شهدها اثنان من كبار علمائها أحدهما حسني والثاني حسيني فكان مما قالوا الصوفية يومئذ إلى كل منهما يدعون من دونه الله: مدد يا حسني مدد يا حسيني، والشيخان يضحكان طرباً فلا ينكران عليهم ثم يعود إلى فتاته تطلب منه حجيرة النساء متمايلة معتنية: حتى يحلى؟ والأحلى؟) وأدرك الحج فحجّ مع قافلة تأخر عنه موعد سفر العودة معها فعادت بدونه ومعها متاعه وجواز سفره، وكان خيراً له فدلّه الله على ابنة عساكر وكان معه رسالة من الشيخ ابن باز رحمه الله تعرّف به وتطلب إعانته على بناء مسجد السنة فرقّ له قلب واحد من أقارب ابنة عساكر وقبل مرافقته في سيارته إلى الرياض لسلامة متاعه وجواز سفره، وأنس به في الطريق فعرض عليه الإقامة على نفقته بالمملكة المباركة.

وليست أريد إنزال أهل السنة بمساجدهم عن المبتدعة لعلهم يكونوا قدوة صالحة ولو لرجل واحد، ولكني أعنت الشيخ على بناء مسجد التوحيد بالمالكية بعدما عانيت من شراسة متصوفة الشام بخاصة (أذكر مرة حضرت بدعة متكررة يومياً في بعض مساجد دمشق بعد صلاة الفجر يسمونها: جلسة الصلاة على النبي مع أنه صلى الله عليه وسلم لم يأمر بها، ولم يفعلها ولا أحد من خلفائه ولا صحابة ولا متبعي سنته في القرون المفضلة: يجلس شيخ الجلسة على عرشه وبين يديه صندوق فيه عشرات المسابح أكثر من عدد المصلين - عادة - فتوزع عليهم، وفيه وعاء فارغ وآخر مملوء بالحصى، ويأخذ الحاضرون بالتقاطة على المسابح والبدء بما يفترضه أنه صلاة على النبي، ثم يرفع أحدهم أصبعه إشارة إلى أنه صلى مائة فينقل الشيخ حصاة إلى الوعاء الفارغ حتى يمتلئ ويفرغ الآخر، ثم قاموا إلى الرقص والغناء، وتنبه شيطانه منهم إلى أني من أهل نجد ولم أشاركهم بدعتهم فالتجم علي البقيمي قسراً في صف الراقصة المغنية المتقربين بالابتداع، فكدت أقول له بلسانه شوقي: (أقوم؟ لهات قدما. أقول؟ أعطني فما - أما ترى لي هيكلاً محطماً مردما) من رواية عن مجنون ليلى، وأغاثني الله برجل عرف الحق في السعودية فشهر لي بالعجز.

(٢) وأثناء عملي في دبي بلاد الشام دعاني الملحق التربوي السعودي بلندن إلى زيارة الدعاة هناك فاستعنت بالله وركبت السيارة - المنزل الصغير مع زوجتي وابني من عجمان إلى سوريا إلى تركيا إلى اليونان (من شرق إلى غرب) ثم ركبنا بسياراتنا في عبارة إلى جنوب إيطاليا، ونزلنا وقد أرهقنا السفر بسيارة دبزل أقصى سرعتها (٨٠ كم/س) مسافة تقارب (٥٠٠٠ كيل) قبل أن تقوم العبارة بالإقلاع. ولما كان الليل وشيكاً ونحن في حاجة إلى البحث عن مخيم للمبيت فيه وقفنا عند أول مطعم للوجبات الخفيفة، ولكنه كانت ثقيلة من حيث الثمن ومن حيث صعوبة التأكد من حلال لحمه تعود مثلنا - بفضل الله - لحم الطعم ورخص ثمنه، فلا أعلم بلداً في الدنيا يضاهي السعودية المباركة من حيث ثبات (بل تدني) أسعار الطعام مع زيادة الدخل؛ تضحية (١٠ و٢٠ و٣٠) سنة وسعر الأكلة لحوم لم يتغير، ومثله كيلو الفاكهة والخضروات، وقبل نصف قرن كان ثمن المطعوم بالي فضة واليوم بريالين أو ثلاثة ريالات وزده، وكان ثمن كيلو واحد الأرز بباء قبل (٣٠) سنة خمسين هللة وثمنه اليوم خمس هللات، وثمن المكالمات الهاتفية في نزول مستمر، وثمن المتر المكعب من الماء هو هو منذ عرفت محطات المياه وإن كانت لا توجد أو لا تصل أو لا تحسن في أكثر مدن وقرى المملكة المباركة، وشكر النعمة الإسراف والرد.

وأخذنا بأنفسنا تلك الليلة وفي الصباح قبل أن نركب (طريق الشمس) الذي يصل جنوب إيطاليا بشمالها مررنا ببائعة خضروات فاشترينا ما

يكفينا يومين أو ثلاثة وطبخنا غذاءنا في السيارة أثناء السفر فلم نحتج للمطاعم (حتى عدنا إلى تركيا وبلاد الشام) إلا نادرا.

والصور والتماثيل منتشرة بارزة لأكثر المدن الإيطالية في الشوارع والميادين والكنائس والمتاحف وأكثرها دينية وأكثرها عارية (ومن أشهر هذه تمثال باسم النبي داود عليه السلام (لمايكل أنجلو) يظهر سوأة القبل حتى اليوم) مع أنه جاء يوم على بعض هذه التماثيل رأى بعض متدينين النصارى أنه لا بد من تغطية السوءة أو قطعها، ولا يظهر أنه الدافع كراهية النبي أو الملك بل الواقعية. وللعمارة الرومانية منتشرة في الملاعب والكاتدرائيات والأبراج وأشهرها (برج بيزا المائل) ولا زال مائلا في ازدياد منذ بني قبل (٤٠٠ سنة) ولكنه البناء يشتد بعضه بعضا. ومن أهم ما يجذب السائحين إليه. وهو مبنى الجرس الكاتدرائية الرومانية الشهيرة بجانبه، ويبرز فيها الأعمدة والأقواس التي يستعيرها المسلمون - خطأ - الطراز الإسلامي أو العمارة الإسلامية وهي بدعة كنسية. وكانت قادة النصرانية يقاومون الرسامين والمصورين والنحاتين لتزيين هذه الكاتدرائيات (سقوفها بخاصة) بصور وتماثيل الأنبياء والقديسين والملائكة وقصص التوراة التي اشتهر منها (أكثر من غيره) مايكل أنجلو قصة داود وموسى والمسيح وأمه عليهم السلام والقصص من بداية الخلق إلى يوم الحشر والحساب، وسبقه إلى شيء من ذلك (بقليل) سلفه لونارد دافنشي ولكنه لم يقتصر على التصوير بل كان بارعا في العمارة والهندسة والفكر فسبقه إلى كثير من المخترعات قبل تنفيذها في هذا العصر بنصف قرون، ويذكر التاريخ الأوروبي أنه ابن زنى، وعد من أبرز الأوروبيين في عصر النهضة الأوروبية.

وفي طريقنا إلى شمال إيطاليا ذكرت للأهل أننا مقبلون على أجمل منطقة رأيتها في أوروبا عندما تجولت فيها عام ١٩٦٣ حيث تلتقي إيطاليا بسويسرا تحت جبال الألب حول بحيرة (كومو) في الجانب الإيطالي وبحيرة (لوكانو) في الجانب السويسري، ولما وصلنا لها عرفوا الأهل منه وصيفي لها واقروا بأنها أجمل ما رأوا في أوروبا وأمريكا.

وفي (سويسرا) تذكرنا حسان وقت السفر ذهابا وعودة فوجدنا أنه لم يبق منه الوقت المتاح لنا ما يكفي لتحقيق غرض السفر: زيارة الإخوة الدعاة في (إنكلترا) فقررنا آسفين الوصول إلى شمال (سويسرا) قبل أن نبدأ رحلة العودة إلى بلاد الشام.

ونزلنا من شمال فرنسا إلى جنوبها، وبين سويسرا وإيطاليا وفرنسا في جبال الألب ممر اسمه (سانت برنارد) أصغرها في فرنسا، وعلى بعد (٣٠ كيلا) يقع أكبرها على الحدود بين سويسرا وإيطاليا على ارتفاع (٢٤٧٠)

بسيارتي

متراً فوق سطح البحر، وقد تورطت عام (١٩٦٢) في صعوده مع سيارات السائحين (راجع فصل الكذب)، وكانت الطريق ضيقاً والسيارات أمامي وخلفي كثيرة، وهي تبدأ الصعود لا تتمالك من إتمامه والنزول من الجانب الآخر، أما لهذه المرة فقد وجدنا الثلج قد سقط نفقاً تحت الجبل وحوله طوله (٩) متراً، ولهانت عملية ذكرني صعوده بصدأ عملت أنه (نابليون) صعده مع (٤٠) ألف من جنوده (بدون سيارات) عام (١٨٠٠) ليهزم النمساويين في معركة (ماريانكو) المشهورة. (على قدر أهل العزم تأتي العزائم).

ولم تضعه طرقه (مونت كارلو) لهذه المرة بيتنا الصغير السيار عام (١٩٧٤) كما فعلت ببيتنا الكبير السيار عام (١٩٧٤).

وفي (الريفيرا الفرنسية) رأينا نزلاً صغيراً جميلاً وأعجبنا (لأول مرة في القارة الأوربية) بالنزول فيه ليلة واحدة، ومما أعجب ما تميز به أنه تقوم على إدارته وحساباته وتقديم الطعام والشراب في مطعمه ومقره امرأة واحدة، ومع كل هذه الأعمال تجد أحياناً فراغاً قصيراً لسقي النباتات وتجيرات الزينة وتسوية أرض الزراعة بمساحة أنيقة (تليق بالريفيرا الجميلة) والنزل الجميل وأمدح القوارير ولا تظهر رسماً.

وذكرنا الريفيرا الفرنسية ثم الإيطالية للمرة الثالثة لأنها على الطريق، وكلما ابتعدنا يقود السيارة المنزل أكثر الوقت، فإذا طلبنا منه التوقف من أجل الأكل قال: (بعد.. بعد)، والظاهر أنه كان يخشى أنه (نابليون) وجود الدنة المتحيزة (حباً تاماً) لا يكاد يعرف خارج السعودية) نشأ في الريفيرات.

ولما طال بنا المسير واشتد بنا الجوع عرفنا العادة فوقفنا على مطعم إيطالي تقليدي فملأ أحمد قدورنا منه (الباسطا - المكرونة) اللذيذة وزادها الجوع لذة.

وكنا العبارة من (بريندسي) جنوب إيطاليا إلى اليونان فوصلنا بها إلى (باترا)، ومنها إلى تركيا ووجدنا جسراً ثانياً قد بني على مضيق (البوسفور)، وتنقلنا في تركيا شواطئ البحر الأسود ثم على البحر الأبيض المتوسط ثم شواطئ سوريا ثم طريق الصحراوية - الجبلية إلى دمشق فعمان.

(٢١) وأثناء عملي في بلاد الشام رغبت في زيارة بعض الإخوة الدعاة في (مصر) تواصياً بالحق وتواصياً بالصبر؛ فركبنا منزلنا الصغير السيار إلى ميناء (العقبة) قريباً منه (٣٠ كيلا)، ومن العقبة ركبنا عبارة إلى ميناء (نويبع) المصري، ثم قطعنا أرض سيناء التي قطعها موسى عليه السلام مرات إحداها إلى أرض مدين التي يقال عنها بأنها القرية من (البنع) في السعودية.

وقد أراد الله لمصر بقيادة (السادات) استعادة من الاحتلال الإسرائيلي باتفاقه مع الدولة العبرية بقيادة (بيجن)، ومع أن السادات محمود بسبب ذلك

ثم قتيل ، وقوطعت مصر للسبب نفسه ، فإنه العرب (الفلسطينيين بخاصة) لم يتمكنوا من الحصول على خير من هذا الاتفاق ، بل أبرموا اتفاقاً لهزيلاً في (أوسلو) نعم لإرادتهم وعنترياتهم أردأ مما أنكروا على المصريين .

وعبرنا قناة السويس من نفق تحت لم نعرف من قبل ، وقضينا الليل في الإسماعيلية وفي الصباح استمر السفر إلى القاهرة ، ودخلت القاهرة أول مرة عام ١٩٥٤ أقل سيارات وأقل بشراً وأقل تلوثاً وأقل أسماراً ولم تنقص البيض والمحبة المصرية للحبيب والضيف والغريب ، وقل أنظر السعودية بمصر بعد مصر أو ما يفوق مدينة في الداخل والخارج ، ولكنه كثيرين (من المنطقة الغربية خاصة) يقضون إجازاتهم في مصر ، شرهنت أحدهم أعطى متسولاً (١٠) قروش فدعا له أن يعيده الله إلى بلاده فاستعاد صدقته خشية أن يقبل الله دعاء المتصدق عليه .

ووجدت في المطاعم أكلاً ما كنا نجدها إلا في البيوت (الحمام بالفريك) لذيذة وطبيعية ولو وجدت من يستوقف في الخارج فلربما نافست مطاعم الرامبوكر والبيتزا ولكانت خيراً منها عاقبة .

وفي أيام إقامتنا في مصر كان يوجد مطعم على النيل في منطقة الجزيرة اسمه (كازينو الحمام) بجوار نادي الصيد يقدم الحمام (بمصيده) مشوياً ، وفوقه برج يشرف بخشبه تصرف جمال عبد الناصر تجاوز الدعنه : قدمت أمريكا (٣) ملايين دولار لأحد القادة الأفريقيين لتحسين العلاقة بينه والدولتين فرفض ، ولأنه (فرد حمزه تايرتاير) قدم أمريكا لجمال عبد الناصر فتقبلها دونه تردد وبنى برجاً يشرف الإذاعة والتلفزيون بيت مساوئ السياسة الأمريكية ليلاً ونهاراً وبكل اللغات المنتشرة . ويذكرني هذا (مع الفارق) بما نشر من علماء المملكة المباركة قدم لأحدهما نصف مليون ريال بناء على طلب من الشيخ ابن باز رحمه الله مقابل عمله خارج الدوام فرفضه ، وقدم للآخر أرصده لم يطلبه (مقابل أعمال تطوعية) فصرف ثمنها في بناء أوقف على أعمال الإغاثة والدعوة إلى الله على بصيرة ولا شك أنه هذا أولى شرعاً وعقلاً ، وهو اختيار النبي صلى الله عليه وسلم لعمر رضي الله عنه ولأمته بأمر الله : « ما جاءك من هذا المال غير مستشرف ولا سائل فخذه فتموله أو تصدق به » رواه مسلم ، ورأى بعض الفقهاء وجوب أخذ ما أعطي دون إشراف ولا سؤال وفيه لهذا النص الصريح الصحيح ، قاله ابن المنذر رحمه الله .

وفي زيارتنا لأخ لنا في الدعوة والدعوة في الصباحية مررنا بكنيسة مجاورة لمسجد مرتين بنتر حما مبشرة نصرانية أو دينية ورأيت من العدل بناء مسجد كان أول مسجد يبنى في منطقة عملها الإغاثي في زاوية المطرية وبيئة صحراء مصر الغربية ، وكانت ملكاً للزبالة يسكنه فيه أهل الزبالة ليستفيدوا

من الزبالة ما يصلح للاستعمال أو البيع (ربكيا)، فجاءت لهذه المرأة من أوروبا وسكنت معهم على الزبالة في كوخ صنعته مثلهم مما في الزبالة من ألواح وورق مقوى وشرائح الصفيح وبنت مثلهم مدرسة لتعليم أبناء وبنات الزبالة (تلثهم نصارى وثلثهم من المسلمين) القراءة والكتابة والخياطة (والإنجيل للنصارى)، وهي أول من اهتم بتعليمهم دينا أو دنيا (بل هي الوحيدة) فهداهم الله جميعا لدينه الحق، لم يعرفهم الأزهر ولا الإخواني ولا التبليغي.

٢٢) ومع تقدمي في السن وبلوغي سن التقاعد ثم التعاقد معي بعد تسع سنوات بإشارة من معالي الشيخ د. عبد الله التركي وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة زار ضيقي بالبيروقراطية الإدارية التي يستهلك الجهد والوقت ولا يفيد في الغالب الدعوة التي وظفنا الله فيها قدرا شرعيا وكونا طلبت تحويل القسم الإداري الروتيني من العمل لأحد الموظفين الإداريين في الوزارة اشتد للعمل (مأمور صرف)، وبعد أن شارفت سن (٧٠) وما ظننت أني سأصل طلبت تحويل كامل العمل لطالب علم (رغب في هذه الوظيفة) كما هو حزبا حركيا فأنقذه الله من الحزبية (وهي أخوف ما أخاف على الدعوة منهم) فتم لنا ذلك. واخترت الانتقال من الأرض المباركة في الشام إلى أرض أكثر بركة وقداسة فسكنت الطائف على بعد (٨٥ كيلا) من المسجد الحرام، وقد سبقني والدي رحمه الله إلى الموت في مكة والدفن في مقبرة (المعلى) الشرعية داخل حدود الحرم وكنت أرى لي ولنفسي ذلك، ولكنه مقبرة المعلى امتلأت وأغلقت، فسميت جانحا مع أكثر من مختص لتوسعتها، فحقق الله ما طلبت فأضيفت إليها أرض لعدد ثلاث حدائق (للأحياء) بجوارها، ولعل الله أن يقدر رفاتي فيها وفاء بوعدي للوالدة رحمها الله، وأجدني ازددت رغبة في التردد على مكة المباركة وحتى يحيه الأهل أرجو من الله الثبات على منهاج النبوة في النية والدعوة وتذكير نفسي وغيري بهذا المنهاج الذي لا يقبل الله غيره، ومنه هذه البلاد وهذه الدولة به، وكانه أمرأوها وساندوا الوالي ضربوبه مثلا صالحا وقدوة صالحة، والمثل الفردي فضلا عن أنه الدولة قامت وحدها (منذ القرون المفضلة) على هذا المنهاج.

- يذكر الزركلي أن الملك فيصل بن الحسين ملك العراق (أثناء اجتماعه بالملك عبد العزيز رحمهما الله) حاول إقناع الملك عبد العزيز بصدقه فحلف برأسه، فلم يكد يلفظ هذا الشرك أو الكفر حتى أنكره الملك عبد العزيز بقوله: (قل والله) دون مراعاة للأدب واللياقة.

- ويذكر محمد أسد (الصحفي النمساوي اليهودي الذي أسلم) أنه كان يوما في مكتبة المسجد الحرام عندما دخل الأمير الشاب (٢٣ سنة) فيصل بن عبد العزيز فانحنى له محمد أسد تحيته، فرفع فيصل (رحمه الله) رأس محمد أسد برفق قائلا: (نحن هنا ننحني لله الله) وكانه أول لقاء بينهما (الطريق إلى مكة - دار العلم للملايين).

عام ١٤٠٧هـ

- ويذكر حمد الجاسر في سوانح ذكرياته أنه دخل على الملك سعود رحمه الله يقدم له كبير مستشاري المديرية العامة للمعارف (وزارة المعارف فيما بعد) فقال: (يخسأ، هذا جرحي لا يبيت عندنا في الرياض ليلة واحدة) رحم ما عُرف به رحمه الله وتميز منه الكرم والجود والعطاء وصلة من يفيد عليه.

- وذكر الشيخ عبد الله خياط (رحمه الله) خطيب المسجد الحرام وعضو هيئة كبار العلماء أنه الأمير عبد الله بن عبد الرحمن آل سعود رحمه الله نصح أن لا يدخل القضايا الاجتماعية في خطب الجمعة [لأن عبارة مفروضة لا يصلح لها إلا ما نزل به الوحي لا الفكر والظنة]، وظنه الشيخ رحمه الله أنه هذا الأمر حري به أن (يستفتى فيه الجمهور الواعي لترجيح أي المسلكين) في مذكرات الحياة والماضي، فأصاب الأمير في إنكاره مخالفة السنة وأمره بالمعروف، وأخطأ الشيخ إذ خالف ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ومتبعوا سنته في القرون الأولى (بل والأخيرة حتى القريب الماضي)، وأخطأ الشيخ ثانية إذ لم ير الرد إلى الله والرسول في أمر من أمور العبادة ورأى الرد إلى فكر الجمهور الواعي.

- وسئل الأمير نايف بن عبد العزيز قبل بضعة أشهر عن (تحفيظ القرآن) فنبه نصر الله بن دينه أن حفظ القرآن نافلة وأن تدبره فريضة وأن الانشغال بالنافلة عن الفريضة مخالفة لشرع الله [ولذلك اهتمت مدارس الدولة باسم (تحفيظ القرآن) وعدد ما يقرب من (١٥٠٠) بتدبر القرآن أولا وتعليم التوحيد والفقه والحديث والتفسير واللغة والسيرة وبالحفظ ثانيا].

ولهذا فقد للشريعة لا تذكر القائمون على جمعيات تحفظ القرآن الذين اقتدوا بالأعاجم الذين يستفتونه بالحفظ عن التدبر، واستغلوه لأغراضهم.

- وأهم مما تقدم: ما تعاهد عليه الإمام محمد بن سعود ومحمد بن عبد الوهاب رحمهما الله من تجديد الدين والدعوة، وما عاهد الإمام عبد العزيز بن محمد وسعود بن عبد العزيز بن محمد رحمهما الله من إزالة المقامات والمزارات من العراق إلى عمان ومن الخليج إلى البحر الأحمر، وما أزالوه جميعا من البدع ونشروه من السنة، واعتدت قوى الضلال العثمانية عليهم فجدد الله الدين بتركي بن عبد الله.

- ومثل هذا في الأهمية ما جدد به الدين في عهد الملك عبد العزيز وتعهد به الأبناء (المعارة) وما أزيل من البدع وما طبع من كتب الدين وراجعه، وما نشر في عهد الملك سعود من فقه ابن تيمية رحمهم الله جميعا وغيرهم، وما أسس في عهده من معاهد العلوم الشرعية وكلياتها، وما رفع للسنة في عهدهم وفي عهود من بعدهم من أعلام في الداخل والخارج.

فوفاء لهؤلاء الذين ميزنا الله بسببهم على بلاد ودول وشعوب الأرض في الدين والدنيا لا يليق بالمواطنة السعودي (خاصة) الخروج مما عليه النبي وأصحابه.

(خاتمة)

١) لقد حاولت أن أجيب الطلب بتسطير ملخص لما أتذكره من أسفاري في طلب العلم وخدمة دولة الدعوة إلى التوحيد والسنة بأقل عدد من الأسطر والأوراق كما دأبت في القصد في القول والعمل وتجنب الإسراف والتبذير في أي منهما وفي الوقت والجهد والمال.
وعلى هذا كتبت مثلاً واحداً أو اثنين أو ثلاثة لأسفاري في الداخل وذكرت أمثلة قليلة لأسفاري في الخارج في خدمة دولة التوحيد والسنة سواء في حقل التعليم المصري قريباً من ربع قرن أو الدعوة قريباً من ربع قرن آخر.

٢) ولم أكد دوّنت سطراً واحداً عن هذا الأمر من قبل ولا ظننت أني سأفعل، وذاكرتي ضعيفة من قبل أن تمر عليّ عشرات السنين فلا عجب لمن نسيت أكثر مما ذكرت، أعاننا الله على ذكره وشكره وحسن عبادته.

٣) وتعمدت أن أذكر الكتابة عن زيارتي إلى (عُمان) وهي خير بلد عرفته من حيث جمع الله لأهله خمسة الخلوة والمحافظة على النظام وطاعة ولاة الأمر وشكر النعمة وقد آتاه ما تستحق وصف النبي صلى الله عليه وسلم: «لو أتاه أهل عُمان أتيت ما ضربوك ولا سألوك» رواه مسلم.
ومقالي عنه منشور في مجموع مقالاتي الثاني بعنوان: (إنما اليقين في الوحي والفقه لا في الفكر الإسلامي)، ردّنا الله وإياكم إلى دينه رداً جميلاً.
ويوجد مقال مماثل عن تميّز (أشيقر) في المجموع الثالث بعنوان: (الدعوة والدعاء من شرع الله لجميع عباده) وهو منشور على موقعي باسمي أتحدث ويشرف عليه أصحاب في الدنيا والدعوة فضيلة الشيخ عبد المحسن البدر الكمالي (سويدي من أصل تركي عراقي) جزاه الله خير الجزاء في الدارين.

٤) وأنا الآن في انتظار السفر الأخير إلى القبر راجياً رحمة الله وفضله وكرمه ورأفته وعفوه ومغفرته مما لا ينفي عنه نقصي وتقصيري وغفلتي وأخطائي لا يفوق عندي إلا نعم الله عليّ بالدين والدنيا وأولها تعدد نعمة الله لا تحصوها، اللهم اجعل خير أعمالنا خواتمها وخير أيامنا يوم لقائك.
ومع ما فطرنا الله عليه من محبة للحياة وكراهية للموت فإني أرى أن الموت راضياً بقسمة الله تعالى موقناً أنه ما عند الله خير لعبده وقد تعودت منذ خمسة العاشرة في كل أمر، ولو كان الأمر بيدي لأحببت أن أموت اليوم وأنا في حال طيبة من الصحة والعافية والأمن والسعادة بالدين والدعوة على منهج النبوة، والسعادة بالبلاد والدولة المباركة (فضلاً من الله لم أتسبب بعمل). ولله الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم.
وصلى الله وسلم وبارك على محمد وعلى آله وصحبه ومتبعي سنته.